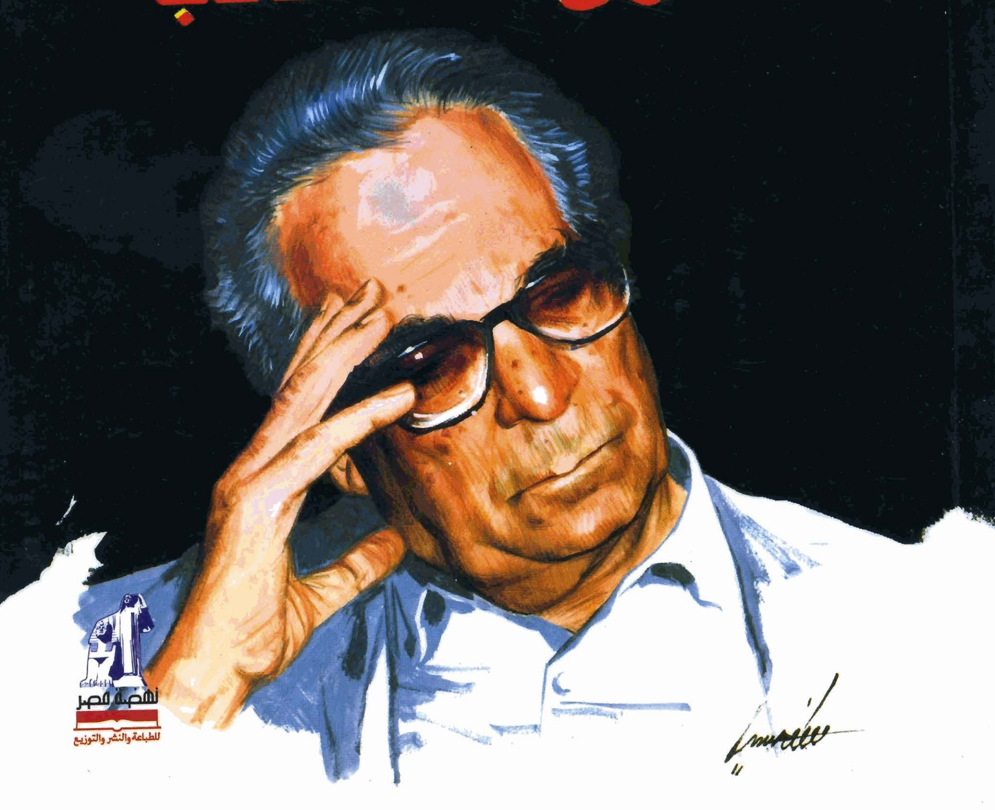
أنيس منصور

زي الفل

أو

أحزان هذا الكاتب



أنيس منصور

زى الفل
أو
أحزان هذا الكاتب



اســم الكتــاب: زى الفل أو أحزان هذا الكاتب.

المــؤلــف: أنيس منصور.

إشـراف عـام: داليا محمد إبراهيم.

تاريـخ النشـر: الطبعة السادسة إبريل 2007م.

رقـم الإيـداع: 2003 / 13060

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2337-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص. ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لخدمة العملاء:
customerservice@nahdetmisr.com
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

كلمة أولى..

قال لى الطبيب : اجلس الآن وحدك !

قال (الآن) ؟ وليس غدا ؟ ووحدى وليس مع الآخرين ؟ لا بد أن أجلس وأن أفكر فى شىء يراه الطبيب بعد أن شفيت إلا قليلا . لابد أنه يريدنى أن أكتب وأن يكون ذلك على شكل اعتراف . . مع أننى إعترفت له بأننى غلطان . فقد اعتدت أن أجلس طويلا إلى مكتبى . وأن أدخل ساقى تحت المكتب ولا أنهض إلا وأنا غير قادر على أن أشد ساقى وظهرى وعنقى . . مع القليل جداً من السوائل : الشاى والقهوة . . غلط ! ألف غلط !

وأنا لا أستطيع أن أكتب واقفا مثل الشاعر الألمانى جيته . ولكنه لم يفعل ذلك إلا عندما استعصى على الأطباء علاج تقلصات مصرانه الغليظ . .

ولا أستطيع أن أكتب نصف واقف ونصف جالس كما كان يفعل الأستاذ العقاد . فقد نسى الأستاذ العقاد أن يشترى مكتباً

أكبر من الذى كان يجلس إليه . . ولذلك كان غير قادر على أن يدخل ساقيه تحت المكتب وإنما كان يضع المكتب إلى جواره وينحنى يكتب واضعا يده اليسرى على مصرانه الغليظ . . حتى مات به !

ولا أستطيع أن أكتب منبطحا على وجهى كما كان يفعل الكاتب الإنجليزى والتر اسكوت . . كان يحاول الكتابة جالسا ثم واقفا . ولم يسترح إلا أن يكتب على الأرض . وكان يفسر ذلك بأنه يريد أن يستسلم للنوم من حين إلى حين ، لأن أكثر أفكاره وحلول مشاكله تجىء أثناء النوم !

ولا أستطيع أن أركب سيارة واضع أمامى ورقا كثيرا وقلما كما كان يفعل أديب الصاخبين الأمريكان جاك كيرواك . . وكان يقول : يعجنى صوت الموتور . وأتوهم أنه صوت عقلى . . وأننى لا بد أن أجرى مثله والاحقه . .

ومن الغريب أن كيرواك هذا كان يتوقف عن الكتابة إذا توقفت السيارة . فلم يعد يفرق بين عقله والموتور !

ولا أعرف أيضا أن أضع أمامى زجاجة من النبيذ وأجلس وسط صخب المتحدثين والضاحكين وأكتب فلسفة بديعة كما كان يفعل الفيلسوف الوجودى سارتر . .

ولا أن أذهب إلى أقرب محطة سكة حديد وفى يدى ورق وقلم وأكتب عبارات موسيقية بديعة كما كان يفعل الموسيقار الروسى برودين . . وأنا أتفق معه فى حبه للسكك الحديدية . . فأنا أحب

شكل القطار فخما ضخما وقد تحددت له محطاته وأهدافه . وأحب منظر المسافرين وكل واحد يحمل حقيبته ويجرى ليجد مكانا . . المهم أنهم يهرلون كل واحد فى سبيل . . وكل له هدف . فالقطار كأنه هو الحياة . . يسارع إليه ويسارع إلى الهبوط منه . . ويمضى القطار كأنه الزمان . . يعيش من يعيش ويموت من يموت - والقطار ماض فى طريقه إلى هدفه . . ولا زلت أفضل رحلات القطارات على السيارات والطائرات . . فمن نافذة القطار أرى الدنيا على مهل . . وصوت القطار وصغيره وحفيف عجلاته كل ذلك يدغدغنى فأنام . . كأننى فى (سرير هزاز) . . ثم أصحو وأجد الدنيا كلها موجودة فى ألوانها وجمالها وبهائها . . أملأ عينى وأذنى وأسرح بخيالى وأنام لأصحو . .

ولا أستطيع أن أمشى ليلا ونهارا وأفكر كما كان يفعل أساتذتنا العظماء : سقراط وأفلاطون وأرسطو . .

ولا مثل أمير الشعراء شوقى الذى كان ينظم القصيدة كلها فى رأسه فإذا إكتملت أمسك قلما وراح يكتب على أى نوع من الورق . . فكيف أفعل ذلك إذا كان المطلوب أن أؤلف كتابا من مئات الصفحات !

قال لى الطبيب : أجلس وحدك . . مع نفسك لنفسك !

إنه لا يعلم ما هذا الذى بينى وبين نفسى . . لست صديقا لها دائما . بل تدور بينها وبينى معارك . . ولا أعرف من الذى يقول لى أسمع كلام الطبيب . . ولا من الذى يقول لى : لا تسمع

كلامه . . ولا من الذى يقول : أجلس . . ولا من الذى يقول لى : قم . .

أن الفلسفة التى تعلمتها أورثتنى إدمان السؤال . . فأنا كثير التساؤل . . ولا أحظى إلا بإجابات قليلة . .

فساعات الجلوس مع نفسى قاسية على نفسى . فأنا قاس على نفسى . وآخذها بالشدة . والضبط والربط . وأفعل نفس الشىء مع الآخرين . فأحشر الكثير بينى وبين نفسى هرباً منها . .مع أننى أحتاج إلى الجلوس معهم .

ولكننى أنسى أن العيب ليس فى الناس ، إنما هو فى تكوينى !

يريدنى الطبيب أن أفعل ماذا ؟

أن أعترف . وأقول بأعلى الصوت : أننى غلطان فى حق نفسى ؟

أنا فعلا كذلك . .

يريدنى أن أعترف . أننى أعترف بأنه هو على حق . وأن التجربة المريرة التى مررت بها ، يجب أن تدق رأسى فأفيق . من ماذا ؟ من أن أكون أسيرا لعاداتى القديمة فى القراءة والكتابة والنوم القليل ، والعطش والجوع والشوق إلى المعرفة ، من أى نوع ومن أى مصدر . فلابدأن أفرمل نفسى وأن أتوقف وأن أتريث . . وأن أهون على نفسى ، وأن أرحمها . . وقد نصحنا الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : إن لبدنك عليك حقا . .

لا ببد أن أجلس وأقول كلمة أو كلمتين . . أو أجلس ولا أقول شيئا . فهل رأى الطبيب أننى إنتهيت . . ولم يبق إلا كلمة وداع له وللدنيا . . لا أظن ذلك فأنا أشعر أن حالتى الجسمية والنفسية أفضل كثيرا . فهل أنا مخدوع فى مشاعرى ، لأننى أريد أن أكون أحسن . . لعل الطبيب الذى يعرف أكثر له رأى آخر . إنه يريدنى أن أختار أجمل الكلمات تعبيرا عن حالى . . عن النهاية . . أو قرب النهاية . . تماما كما يفعل (طائر الشوك) . . الذى عندما يشعر بإقتراب النهاية يطير عاليا بين الأشجار وفوقها حتى يجد شجرة بها شوك . . وينتقى أطول شوكة ويلقى بنفسه عليها ويصرخ . . وتكون صرخته الأخيرة هى أروع ألحانه ! هى مسك الختام . . فهذا هو الكمال : كمال الصوت وكمال الحياة . وليس بعد الكمال إلا الموت !

فهل هذا ما يريده الطبيب ؟!

أن عددا كبيرا من العظماء قد إستطاعوا ذلك فى وجه الطبيب . فالشاعر الألمانى جيته إلتفت إلى الطبيب وأشار بيده : إفتحوا النوافذ أريد مزيدا من النور !

والعالم الكبير دارون قال : لعلك ترى أننى لست خائفا !

وبرنارد شو قال للطبيب : أنت حريص على أن تحتفظ بى حيا ، مومياء لها قيمة تاريخية . فلا تتعب نفسك أنا إنتهيت وسوف أموت !

والمفكر العظيم كارليل أدار ظهره للطبيب وقال له : إن كان هذا وهو الموت . . فليكن !

والأديب الروسى تولستوى هرب من البيت ليموت بعيدا عن زوجته إلى إحدى محطات السكك الحديدية وجاءه الطبيب ونظر إليه تولستوى طويلا وقال : ليتنى أعرف كيف يموت الفقراء ؟

وعلى فراش الموت راح الفيلسوف الألمانى هيجل يناقش الطبيب . . ثم أدار ظهره إلى الطبيب يستقبل الموت وقال : لم يكن هناك إلا إنسان واحد يفهمنى . . حتى هذا لم يفهمنى تماما !

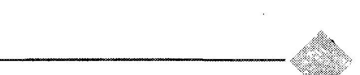
والأديب الفرنسى الكير رابليه أمسك ورقة وقلما . . ولم يشأ أن يكت شيئا وإنما إلتفت إلى الطبيب وقال له : يمكنك أن تسدل الستار ، فقد إنتهت المهزلة !

والعالم الكبير نيوتن نظر إلى الواقفين حول فراشه وقال : بمنتهى الصراحة لقد أمضيت العمر كله ألعب على شاطئ المحيط . . وكنت أسعد الناس عندما أجد بعض الظلط والحجاز الملونة . . بينما بقى محيط المعرفة واسعا عميقا لأعرف عنه أى شىء !

والعالم الكبير أينشتين عندما سئل فى آخر أيامه أن يقول شيئاً فقال للطبيب : إننى عرفت الكثير وحاولت أن أعرف أكثر . . ولكن الذى أعرفه إذا ما قورن بالذى لا أعرفه مثل طابع بريد الصقته فى قمة إحدى المسلات الفرعونية !

أما الإمبراطور السفاح نيرون فقد هز رأسه حزناعلى مصيره وتصفح وجوه رجاله وأطبائه والكهنة وقال : أى فنان عظيم ذلك الذى سوف يموت بموتى !

❑ ❑ ❑



ولم يضايقنى من كل الذى قاله الطبيب إلا قوله : الآن . . وهو لا يعرف معنى كلمة (الآن) عندى . . إنها تعنى الأمس وتعنى غدا . . الأمس البعيد والغد الأبعد . . ولا انفصال بين أمسى وغدى . . فلا شىء ينتهى . . ولا أعرف متى بدأ ولا أين يمتد . .

وجعلت أكتب (الآن) كما أراد الطبيب . . وحشدت أفكارى . . وعصرت دماغى . . وسددت قلمى إلى الورق . . ثم جعلته شبكة أصيد بها أفكارى . . وجعلت أفكارى فراشا أتفرج عليه وأتمنى لو سقط على الورق حروفا ونقطا وعلامات استفهام وتعجب . .

ولأن كلمة (الآن) ليس معناها هذه اللحظة ولا قبلها بلحظات . . وإنما قبلها بملايين اللحظات . . . وجلست أكتب (الآن) . . عن الأمس البعيد جدا . .

فكان هذا الكتاب عن أحزان الكاتب :



القاهرة سنة ١٩٩٩

آه : أقولها من زمان !

١

فى الليل قبل أن أنام عرفت أن أمى قد اشترت لى ملابس جديدة . فقفزت من السرير لكى أراها . . وبسرعة خلعت ملابسى وارتديت الملابس الجديدة . ومنعتنى أمى أن أنام بها . وقالت : فى الصباح سوف نخرج . .

ولم أنم تلك الليلة . وإنما كنت أطل من تحت اللحاف أتأكد من أن ملابسى الجديدة معلقة على الحائط . . ثم تسللت وأمى نائمة ولمستها . . وقلبت فيها ودخلت تحت اللحاف ونمت .

وفى الصباح صحوت على حركة أمى داخلة خارجة . ورأتنى ولم تشأ أن تقول شيئا . ووجدتها هى الأخرى ترتدى ملابسها . . ثم أشارت لى أن أغسل وجهى . وأن آخذ سندوتش الجبنة الملفوف فى ورقة . وأن أسرع . وأسرعت . . وفى دقائق ارتديت ملابسى الجديدة ومسحت حذائى . وسألت أمى إن كان من

الممكن أن آخذ الكلب معى فلم ترد . وعرفت أن هذا غير ممكن . وارتدت أمى ملابس سوداء . وكان وجهها صارماً . وسمعت طرقاً على الباب . وأخذ الكلب ينبح . وأشارت أمى أن أربط الكلب وأفتح الباب . . كانت على الباب عربة حنطور وأشارت أمى إلى سلة صغيرة بها برتقال ولفائف . وربطت الكلب حزيناً . . أنا وهو فى غاية الحزن . ونقلت سلة البرتقال إلى الحنطور وركبت إلى جوار أمى . وحاولت أن أشير إلى أن الحنطور كان من الممكن أن يتسع للكلب أيضا .

ولا يزال وجه أمى صارماً . حزيناً . . واتجه الحنطور إلى شارع الحسنية . . ثم شارع السكة الجديدة . . ثم ميدان موافى فى المنصورة . ونزلنا ولم تقل لعربجى الحنطور شيئاً ومشيت وراءها . . ومن حين إلى حين تلتفت أمى إلى السلة التى أحملها وتسألنى إن كنت ما أزال قادرا على حملها . .

ودخلنا بيتاً استقبلنا بهواء بارد راكد وأبواب مغلقة وسلالم كأنها أسنان مسوسة . ولم تنظر أمى وراءها . وصعدت طابقاً ثانياً وثالثاً . ومدت يدها إلى الجرس فرد علينا كلب صغير . وانفتح الباب ومن ورائه طفلة . واتجهت أمى إلى إحدى الغرف . ونادتنى . وبسرعة وضعت سلة البرتقال على أحد المقاعد . .

يا خبر . . إنها خالتى المريضة . أجمل الناس وأحب الناس . . ولم تذكر أمى ذلك مرة واحدة . . ولم أستطع أن أصل إلى وجهها أقبلها أو إلى ذراعيها أرتمى بينهما فقد كان السرير مرتفعاً . رأيتها . وجهها الأبيض الشاحب وعينيها الجميلتين وابتسامتها العليلة . .

ومدت ذراعها . . يدها إلى خدى ورحت أقبلها وأبكى . وهى أيضاً . ولم أعرف ما الذى أقول . ولا عرفت ما الذى قالت . وبكت وبكيت . . وكانت دموعى تحويشة سنة أو سنتين . . وقالت خالتى أنها بخير . وأن ربنا شفاها . . يمكن شفاها من أجلى . . أى من أجل أن ترانى وأن أراها . . ونظرت إلى أمى فوجدت فى عينيها دموعاً . . أو تخيلت . . أو كأنها بكت كثيراً قبل ذلك فلم يبق فى عينيها دموع . . إنما آثارها . . تماما كما يتوقف المطر وتظل قطرات تتساقط من أوراق الشجر . . أما خالتى فنزلت الدموع على خديها على يديها فى شفتى . .

إذن هى مريضة . . يعنى قد لزمت الفراش . وغير قادرة على الحركة . . ماذا أصابها ماذا عندها ؟ لا أعرف . . ولكنها من حين إلى حين تقول : آه . . الحمد لله . . قضاء أخف من قضاء . .

آه من ماذا ؟ الحمد على ماذا ؟ ولكنها مريضة ومن الضرورى أن نزورها وأن نرتدى ملابس جديدة . وأمى ترتدى ملابس سوداء ولا بد أن نأخذ لها برتقالا وأشياء أخرى . هذا واجب . كم مضى من الوقت . هل ظللت واقفاً ؟ جالساً ؟ وكيف انتهت الزيارة ؟ وكيف نزلت درجات السلم وكانت طويلة . لقد نسيت أن أرى كلب خالتى . ولم أكن أعرف أن لديها كلباً . ولا أين ذهب ولا من الذى فتح لنا الباب . ولا بد أن يكون طفلاً مثلى قد فتح الباب واختفى . فخالتى لم يرزقها الله أطفالاً . . وهى تقول دائماً أننى أنا ابنها ولكن أمى هى التى ولدتنى . وصدقتها زمناً طويلاً . ولم أشغل نفسى بالتفكير فى استحالة ذلك . ولم يقل لى أحد

إن كان ذلك ممكناً . ولكنى أدركت عمق المعنى وجمال العبارة وبالغ الأسى عند خالتى . .

وفى الحنطور لم تقل أمى شيئا . ولو قالت فإننى لم أكن قادراً على أن أقول .

وانعدمت الأصوات والألوان والروائح فى الطريق . . كأننى تركت عينى وأذنى وأنفى عند خالتى . . وتركتنى أمى أنام بملابسى حتى الصباح . ولما صحوت اندهشت كيف حدث ذلك . لم تقل أمى شيئاً . ولم تعد ملابسى جديدة . ولذلك خلعتها وتركتها على السرير . . وعدت إلى ملابسى القديمة . وجلست إلى جوار الكلب هو على المقعد وأنا على الأرض . هو حزين لأننى لم أداعبه . وأنا حزين لأسباب أخرى . .

□ □ □

وبعد أيام ارتدت أمى ملابسها السوداء وأشارت أن أرتدى ملابس الخروج ولم تكن هناك سلة برتقال ولم نجد الحنطور أمام الباب ولم تعترض أمى على أن آخذ كلبى معى ومشت أمامى ولاحظت أن أمى أطول مما كنت أرى . . وأن خطوتها قصيرة . وأنها دوغرى . وبعد دقائق وصلنا إلى بيت من دور واحد . وكان الباب مفتوحا . وأشارت أن أربط الكلب . ودخلت . وسمعتها تقول : الحمد لله على سلامتك . نت كويسة الحمد لله . .

وسمعت من ترد عليها بصوت يدل على العافية والصحة : أهلاً أهلاً . . خطوة عزيزة . والله انت اللى جبت الصحة معاك . . أهلاً وسهلاً . . هوه معاك . . أهلا يا حبيبى . .

إنها جارتنا كانت مريضة وأمى قد زارتها أكثر من مرة . وتحسنت صحتها . ووجدت أمى قد خلعت بعض ملابسها . وجلست فى الصالون . . وجهها أبيض وفيه حمرة . . وعيناها عسليتان وشعرها أسود طويل . . والله أمى جميلة . كأننى لم أرها قبل ذلك . . أما جارتنا المريضة فقد ارتدت ملابس بيضاء . . وفى يدها مسبحة . . وفى عنقها مسبحة أيضا . وتذكر الله كثيراً . وبسرعة جاءت من تحمل البخور . وتدور به فى البيت وحولنا وطلبت أمى أن أقف لكى تبخرنى وتدعو لى بالنجاح والفلاح . . وجاءت جارتنا المريضة الست أم فتحية تبخرنى . . وتدعو لى بأن أظل ابناَ باراَ وأباَ صالحا َناجحاَ فالحاَ . وأمى تقول : إن شاء الله . .

وبدأت أمى وجارتنا تتحدثان عن المرض والأدوية والدكاترة . وانشغلت أنا بالكلب الذى رأى قطة فراح ينبح ويعوى . ونهضت أمى وطلبت منى أن أبتعد قليلاَ أمام باب الشقة ولا أخرج إلى الشارع لأنها سوف تمكث قليلاً وتعود إلى البيت . .

وكانت زيارات أمى قصيرة أو كنت أشعر بها كذلك . . وخرجت أمى ومعها سلة صغيرة بها لفائف من الورق . ربما سكر نبات قد باركته هذه السيدة المبروكة . . وحمص وحلاوة من مولد الشيخ الباز . . جد أمى . .

ولم نكد نغلق شقتنا حتى أخذ الكلب ينبح ويقفز بقدميه على الباب . إذن لابد أن زائراَ يعرفه الكلب قد اقترب . . ثم دقات على الباب وفتحت وجاء أطفال وفى يد كل منهم قرطاس برتقال وعنب وتين . . وجاءت خادمة تحمل على رأسها قفة لابد أن بها

فطيراً وجبنة وزبدة وسمنة وقشدة . . وسيدة يساندونها وقد تغطى وجهها . فهى ترتدى الملابس السوداء . ووقفت أتفرس ملامحها إنها خالتى . أحب الأخوات إلى أمى وقد أعطتنى اسمها . . إنها مريضة . وتريد أن تدخل المستشفى وأن تبيت عندنا هذه الليلة وكذلك أولادها . .

واتجهت خالتى وأولادها الصغار إلى غرفتى التى كنت أنام فيها . أخذتها . . أما أطفالها فقد جلسوا على المقاعد أمامها . وأمى سوف تنام مع أختها أما نحن الأطفال فسوف ننام فى غرفة أمى على السرير وعلى الأرض . .

إذن هذا هو المرض . . أن تقول : آه طوال الليل . . وأن تنام وتصحو أمى . . وأن تغلى لها النعناع أو الينسون وأن تعطيها أقراصا وتتوسل إليها أن تبتلعها بالشفاء إن شاء الله . . وأن تساعدها طوال الليل على الذهاب إلى دورة المياه . . وأن يتعالى صوتها بالألم والوجع والسعال . .

ونهضت من فراشى . . فلم أجد أحداً فى البيت . . لا أمى ولا خالتى ولا الأطفال جاءوا وذهبوا ومعهم الكلب . . أو تركوا الباب مفتوحاً فخرج الكلب . . ولم أجد أحداً أسأله عن أى شىء . .

كل الزحام قد انفض . . كل الأصوات كل الآهات . . كل الأطفال . لم تبق إلا روائح غريبة من النعناع والينسون والفطير الذى أكلوه ساخنا كل ذلك حدث وأنا نائم . . شىء غريب أن يستغرقنى النوم هكذا . فأنا عادة لا أنام إلا ساعات قليلة ونومى أقرب إلى اليقظة . فأنا لا أغوص تحت النوم وإنما أطفو عليه . .

فكأننى على وش النوم ، ولست نائما . ولكن لابد أنه التعب . . الإرهاق . . القلق . . الهرب من مواكب الألم . .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد . وإنما المرض . فقد أصابتنى الإنفلونزا . وقال الدكتور : إنها عدوى . .

وكتب روشتة . وعادت الصرامة والحزن إلى وجه أمى . وأحزننى حزنها . . وارتدت ملابسها . وخرجت وعادت بسلة صغيرة من البرتقال وبعض الحلوى وبعض العقاقير ووضعتها . وجلست إلى جوارى ويدها على خدها وأنا أبكى . ومسحت أمى دموعى . ولم تعترض على بكائى . وإنما قالت لى : سوف تخف ياحبيبى . . لا تخف يا حبيبى . . لا تخف . . كلها كام يوم .

ولم أكن أشعر بأى ألم . وإنما أبكى كلما رأيت أمى حزينة . .

وسألتنى : إيه اللى بيوجعك ؟

فقلت لها : أنت !

وانحنت أمى . وجهها على وجهى . على خدى . دموعها فى دموعى ولم تقل أبلغ من ذلك . ومضى الحوار بيننا صامتاً . أراها ترانى . تبتسم أبتسم . تضع يدها على خدى أقبلها . وأسحب الغطاء وأطبق عينى على وجهها الباسم الهادئ وأنام . وأول شىء أفتح عينى عليه هو وجه أمى . . فلا أكاد أنظر إليها حتى تفتح عينيها . كيف يحدث ذلك . لا أعرف . . وإذا هى صحت قبلى وأدنت وجهها من وجهى دون أن تلمسنى فإننى أصحو ويسعدها ذلك ويسعدنى . .

وكنت إذا مرضت جاء الطبيب مرة واحدة . . ولكن إذا مرضت أمى فإنه يجىء كثيراً . . ويجىء غيره . . وتتكون زجاجات وعلب الدواء إلى جوار سريرها . . وأمى تقول لى : هات العلبة الحمراء . . أو الزرقاء الصغيرة . . أو هات الحبوب الصفراء . . وخذ هذه الزجاجة واشتر واحدة مثلها . .

ولم أعرف ما مرض أمى . ولو عرفت فما الذى يمكن أن أفعله . إنها مريضة . ومرضها طويل . وهى لا تشكو وإنما تتأوه وتتوجع . ويجىء طبيب ومن بعد طبيب . وأسمع كلاماً لا أفهمه . ولا حاولت أمى أن تشركنى فى شىء . . فمرضها شخصى مثل فستانها . . هى ترتديه وهى تخلعه . وهى تعلقه وهى تغسله . . ومرضى أنا لا يطول . إنها تمنعنى من أن أفكر فى مرضى . وإنما تقول : كلها أيام . . وتبقى بصحة وعافية . . ذاكر فى السرير . . ولا تتعب نفسك . . ربنا يكرمك يا ابنى . .

حتى كان ذلك اليوم الحزين . . لقد ظهرت أعراض المرض على كلبى . . إنه غير قادر على الحركة . لا يأكل . لا يشرب . ينام تحت السرير . . أزحف إليه تحت السرير . . أقترب منه أحتضنه . . أقبله . . إنه يحرك ذيله ولا يفعل شيئاً . . قلت لأمى . . نظرت تحت السرير . . سحبت الكلب . ونظرت إلى وجهه . ولم تقل شيئاً . وحزنت وغابت ساعة وجاءت ومعها أحد أقاربى . إنه طبيب بيطرى . نظر إلى الكلب . وقال لها : أنا جئت فى الوقت المناسب .

ودون أن يكلمنى أو ينظر لى . سحب الكلب . ووضعه فى

عربة حنطور . واختفى ولم يعد الكلب . وعرفت من أمى أن الكلب مات . . وكان حزنى عميقاً فهو أول . ميت فى بيتنا . أول ميت فى حياتى . أين ذهبوا به . . وعندما كنت أسأل أحداً ماذا يحدث إذا كلب مات . . فكان بعضهم يسخر قائلاً : كلب ومات . . هاها . .

كلب . كلبى . غاب وسوف لا يعود . . ولكن أين يضعون الكلاب إذا ماتت . . وأول مرة أرى ضحكة أمى وكانت ضحكتها جميلة صامتة عندما قلت لها : ماما . . هل من الواجب أن أرتدى ملابس سوداء . .

- لماذا يا ولدى ؟

- الكلب مات .

وراحت تحكى لكل من يزورنا وكلهم يضحكون . وعرفت غياب من أحببت . . وعرفت معنى غيابه . . ورحت أفتش فى كل مكان دون أن أدرى كأننى أتوقع أن أجده . . تحت السرير . . تحت اللحاف . . وراء الباب . . وفى كل مرة أفتح الباب افتحه برفق حتى لا أصدمه . . وأحياناً كنت أتوهم أننى سمعت نباحه . . أو أننى سمعته بالفعل وكانت أمى تضع يدها على خدى وتحتضنى ولا تقول شيئاً . .

ولم يمت الكلب . . هذا إحساسى به . . وإنما بقى زمنا طويلا . . وجئت بعده بكلاب كثيرة . . كأننى أحيى ذكرى أول كلب . . وكأن هذه الكلاب بديلة عنه . . تذكرنى به ولكنها ليست هو . .

لقد خرج ولم يعد .. بل لم يعد ، ولكنه لم يخرج من ذاكرتى . ومن الغريب أن الكلاب الأخرى كانت قصيرة العمر .. لم يمت منها واحد موتة طبيعية .. واحد ضربته سيارة وواحد أكل سم فئران .. وواحد ألقت به الخادمة من النافذة وهو رضيع حقداً عليه .. فقد كان يلقى اهتماماً عاطفياً وطبياً ..

وكانت هذه الكلاب نوعاً من الاستنساخ لأول كلب فى حياتى ..

ومضيت مع أمى فى هذه الأفلام التسجيلية الصامتة .. التى تبدأ باليقظة المبكرة وسلة البرتقال والحنطور .. ولا كلمة ذهاباً وإياباً حزناً واضحاً .. ومريضاً هناك ينتظرنا .. والذى ينتظرنى دائماً هو الزكام .. وينتهى الفيلم التسجيلى أبيض وأسود بدعوات أمى ونظراتى ودموعى دائماً ودموعها أحياناً ..

٢

كان مريضاً أبى وأمى . . فحيرتى قديمة . . فلم أعرف ما الذى يمكن عمله لمن يقول : آه . . ويشير إلى دماغه أو إلى بطنه . .

وكانت العقاقير بسيطة . وكلها موجودة عند البقال أو الأجزاخانة . ولكنها لا تشفى ويجىء الطبيب ويخرج ويكتب روشتة . وأجرى لكى أحضر الدواء من هنا وهناك . . وصاحب الآه لا يكف . وهو يضع يده على بطنه ونحن نضعها على قلوبنا . . ويجىء الليل يحتوينا . والنوم يخمدنا كأننا نار بلا دخان أو دخان بلا نار . إننا ننطفئ فى الليل . ومن حين إلى حين أسمع أمى تئن تحت اللحاف إنها لا تريدنى أن أسمعها حتى لا تصرفنى عن دروسى . . وكنت أسمعها وأنصرف عن دروسى . ولا أحب أن تعرف ذلك فأضيف خوفاً إلى ألم . . ويأساً من الشفاء إلى فزع

من ضياع مستقبلى !

وكان فى أول شارعنا واحد يصرخ طوال الليل . . ولا أحد قادر على أن يسكته . والناس فى البيوت المجاورة لا ينامون . وقد اعتاد أهله على ذلك والناس أيضا . ورأوا أن هذا قدرهم ، كما أنه قدره . .

وكان قدرى أيضاً : المرض أسمعه وأراه وأرانى عاجزاً عن فعل شىء .

واعتدت على رؤية وسماع أحب الناس يقولون : آه . .

هذه العادة جعلت مشاعرى أكثر حساسية . واعتدت على الحزن . . ولم أفلح فى أن أتعود على الهرب من هذا الإحساس الفظيع بأن أعز الناس يموت . . فى عينى . . فى أذنى . . أنا وحدى . . دون خلق الله . .

وكنت ألاحظ أننى أسأل زملائى فى المدرسة : بابا صحته كويسة . .

- آه . . ليه ؟

- مجرد سؤال .

- وماما كمان ؟

- أيوه . ليه ؟

- مجرد سؤال . .

فقد تصورت أن كل الآباء والأمهات مرضى . أو أن واحدا منهما . .

وكان إذا أحد مات سألت : هل كان مريضا ؟

- صدمته سيارة .

- ومات ؟

- نعم .

- أحسن .

- أحسن من إيه ؟

- من أن يتعذب ويتعذب به أولاده . .

- أبدا أنا كنت أتمنى أن يعيش . . برجل واحدة بعين واحدة . . بس يعيش . .

ولكنه لا يعرف معنى العذاب اليومي لرؤية أعز الناس كأنه يموت ولا يموت . . أو كأننا نمشي ونقعد وننام في جنازته مع أنه لم يمت . . وكأنني أتلقى العزاء فيه . . مع أنه لم يمت . . وكنت كل يوم أصافح يدي اليمنى بيدي اليسرى وأقول : البقية في حياتك . .

مات أبي وأمي وكثيرون ولم تنقذهم دموعنا ودعواتنا . فالموت نهاية كل حي طيب أو شرير .

وكنت أنسى هذه الحقيقة كثيرا . فالموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في حياتنا . . فإذا أنت وقفت إلى جانب طفل ساعة مولده : فليس في استطاعتك أن تتنبأ له بأن يكون طبيباً أو مهندساً أو غنياً أو فقيراً . ولكن تستطيع أن تقول وأنت على يقين تام : أن هذا الطفل سيموت !

وفى يوم وجدت أمى فى غرفتى . وعلى فراشى وقد اعتدت ذلك . وقبل أن أسألها قالت لى : أنت تعرف الرجل الذى يمشى على عصا طويلة . . وتهرب منه الكلاب . .

- أيوه . .

- . . . .

- هوه اللى موت الكلب بتاعى ؟!

- أيوه يا ابنى .

وبكيت وبكيت حتى خجلت من نفسى . ولكنه كلبى . وحبيبى . يسمع صوتى أو يشم رائحتى وأنا على مسافة كليو متر فينبح . . فعندما كنت طالبا فى الجامعة أقمت فى بيت رقم ٣٨ شارع الأمير حسين بالزمالك . فقد كان والدى ناظراً لزراعة نعمت هانم يكن . ولا أكاد أمشى فى أول الشارع حتى أسمع الكلب ينبح . . سعيداً ـ هو سعيد وأنا أيضاً . مات هذا الكلب . .

ولم ألاحظ أن الكلب كان مريضاً بالسكر كما عرفت فيما بعد . .

❑ ❑ ❑

وفى ذلك الوقت وكنت عضوا فى (جماعة الإخوان المسلمين) بإمبابة . . كنت أميناً للمكتبة . . وفى يوم جلسنا حتى يكتمل عددنا . ولكن واحداً قد غاب . . فذهب أحد الإخوان إلى بيته . . ولكنه لم يعد . فأرسلنا ثانياً . ولم يعد . فذهبنا جميعاً . لقد غرق فى النيل . وقالوا : لم يكن يعرف السباحة فكيف ذهب ؟

وقيل لنا أن دوامة ابتلعته وهو يتوضأ . . وقالوا : عفريتة . . وهذه العفريتة قد فعلت ذلك أكثر من مرة وفى نفس المكان . .

أما الذى لم أطق عليه صبراً فهو أن أمه كانت تمشى على عكازين .. وأما أبوه فمريض تكوم فى سريره .. فما الذى يمكن أن نقوله للأبوين .. وظللنا واجمين جامدين .. فبعضنا يقرأ عليه آيات من القرآن الكريم .. وبعضنا فقد النطق .. وبعضنا يقول : لا إله إلا الله .. لا دايم إلا الله .. الموت علينا حق .. إنك ميت وإنهم ميتون . كل نفس ذائقة الموت ..

وكما ذهبنا معا خرجنا ولم يلتفت أحد إلى أحد ..

وبعدها بيومين مات الأب .. وبعد شهر ماتت الأم .. وامتدت أيدينا تغلق البيت بالضبة والمفتاح .. انتهت أسرة فى أيام .. ذهبوا إلى القبور وتركوا وراءهم قبراً !

أما كلب صديقى فلزم باب البيت حتى مات جوعاً !

وفى يوم استدعانى أستاذنا الشيخ عبد الرحمن السبكى .. من أئمة الإخوان المسلمين فى إمبابة .. الرجل لطيف رقيق مشرق الوجه والعبارة والإيمان .. ودمه خفيف فكان يقول لنا : لا مؤاخذة يا أولادى .. آه (يقولها بكل ما فيه من قوة) لقد حبست هذه الآهة فى أعماقى حتى تشربوا الشاى ..

ونحن مندهشون كيف يمكن كتمان الألم أو حبس الوجع . أما أنا فعرفت ذلك طول عمرى .. كأنه وضع رجله فوق رأس ثعبان .. وعلى سبيل الرفق بالثعبان فإنه يرفع رجله فيلدغه الثعبان ويكتم الصرخة ويعود فيضع رجله فوق الثعبان ..

وقال كلاماً كثيراً . ومما قاله لنا ونحن فى ذهول ولا نفهم تماماً : اسمعوا يا إخوتى .. الموت علينا حق .. وأنا بمشيئة الله

تعالىٍ سوف أموت اليوم أو غدا . . هذا إحساس هذه رؤيا وليس علما . . فالله وحده هو الذى يعلم . وقال لنا « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » . . وقد أتيت بكم لأقول آخر ما عندى . .

ثم تراجع برأسه ومات . . إنه لم يقل إلا أن الموت حق علينا جميعا . ولم يقل ما كنا نتوقعه . أما الذى قاله فهو الذى نعرفه تماما وننساه . .

وعمر بن الخطاب عندما قيل له إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد مات رفع سيفه ليقتل من يقولها . . حتى قيل له إنك نسيت قوله تعالى : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٍ أعقابكم . .

هنا انهار عمر بن الخطاب باكيا حزيناًعلى وفاة رسول الله . فأستاذنا وشيخنا عبد الرحمن السبكى قال كل شىء .

وانتهت قصة مرضه . وكنا فى دهشة كيف أن رجلاً طويل المرض طريح الفراش لا يزال مضىء الوجه لامع العينين باسم الثغر . . إنها إذن مقاومة الشيخ للموت . . إن الموت كان يزحف عليه فيطفئ الأنوار فى كل مكان إلا وجهه . . ولما أدرك الشيخ أنها النهاية . . دعانا لنرى نهايته . . ونهاية كل حى . !

وقد علمت من زميل فى كلية الآداب أن والده كان عنده كلب . . وكان ينام تحت سريره ولا ينبح أبداً . فلما مات والده خرج الكلب مذعوراً وحاول الوصول إليه . . ثم ظل يضرب رأسه فى الحائط حتى مات !



وأنا صغير كنت أرى التلميذ المجتهد هو النحيف الشاحب .. لأنه يذاكر ويسهر وينسى أن يأكل ويشرب .. وفى الصباح كانت عيون زملائى حمراء .. وبعضهم يقول : إن رموشه قد احترقت لأنه نام فسقط رأسه على المصباح الغازى .. أو أن شعره قد احترق لنفس السبب ..

وكنت أجد عدداً من التلامذة قد انحنت ظهورهم فى هذه السن الصغيرة . ولم يكن عندى إلا تفسير واحد : إنهم يذاكرون ..

فالمرض والشحوب والضعف من مظاهر الامتياز والتفوق . وكنت أندهش عندما أجد تلميذاً صحيحاً سليماً متفوقاً . وكان بعضنا يقول : إنه غشاش .. أو أن المدرسين قد أعطوه الامتحان لأنه ابن عمدة .. أو ابن باشا ..

وما دام سليماً ، فمن الصعب أن يكون الأفضل أو الأذكى أو الأكثر تفوقاً . .

أغرب من ذلك أن التلامذة كانوا يتنافسون فى إظهار الضعف وأحياناً يصابون بالإغماء فى الحصة والسبب : المذاكرة .

وبعض المدرسين كانوا يمتدحون هذا الضعف أو هذا المرض . .

وفى إحدى الحصص قال المدرس لواحد من الزملاء : ما هو أنت لو كان عندك دم أو إحساس كان لونك انخطف وكرشك اختفى . ولكن أنت نايم فى العسل نوم . .

مع أن هذا التلميذ كان من المتفوقين . ولكن الطبيعى أن يكون الفالح مريضاً ، والسليم المعافى مستهتراً بليداً . .

وكنا نقول أن مدرس الفلسفة هو أذكى الجميع . . لماذا ؟ نحيف . . شاحب اللون بطىء الحركة لا يكاد يقف حتى يجلس ولا يكاد يجلس حتى يتوجع من المقعد الخشن فيقف . . إنه شعلة من النار . . وليس كتلة من الشحم واللحم مثل مدرس اللغة العربية أو الألعاب الرياضية أو حضرة الناظر . .

ولم يكن غريباً أن نجد عدداً من العظماء مرضى . . أو ماتوا مرضى . وهذا طبيعى . . فالذكاء وتبديد الطاقة تأكل اللحم وتذيب الشحم وتمتص النوم والراحة والحياة أيضا . .

ولما درسنا الرومانسية (زمان العشق) فى أوروبا كان كل الشعراء مصابين بالالتهاب الرئوى . . يبصقون وينزفون دماً . وكان المألوف أن تظهر بقع الدم على ملابس الفنان أو الشاعر ويرى

الناس فى ذلك شهادة تقدير . . فما دام فناناً مرهف الحس فالمرض هو الحياة . . والعبقرية هى المكافأة . .

ولم نعرف ونحن صغار معنى المرض ولا معنى الصحة . . ولا أن صيانة الجسم شرط الإنتاج لأن الجسم وسيلة للحياة . . فلا وسيلة للتعبير أو العمل إلا بالجسم . . أما المريض فطاقته محدودة . . وقدرته عاجزة . .

ومعلوماتنا الساذجة تقول : إن أبا العلاء المعرى وطه حسين والأعشى وملتون وبايبنى وهوميروس كلهم عميان . . وأن صادق الرافعى أطرش والمازنى أعرج . .

ولكن ليس كل أعمى طه حسين ولا كل أطرش بيتهوفن . . وأن طه حسين ليس عظيماً لأنه أعمى . وإنما هو عظيم حتى لو كان مبصراً . وأن بيتهوفن لم يكن عبقرياً لأنه أطرش معظم حياته . ولكنه عبقرى فى البداية والنهاية . .

والشاعر الألمانى هيلدرن عاش نصف حياته فى مستشفى الأمراض العقلية . ولكنه لم يكن مجنوناً قبل المستشفى . . وكذلك الفيلسوف نيتشه . . ولا كان الجنون هو سر العبقرية . . ولا الأديبة منى زيادة كانت باهرة لأنها دخلت مستشفى الأمراض العقلية حتى موتها . . ولا كان المصران الغليظ هو سر عظمة العقاد ونابليون ويوليوس قيصر . .

ولم يكن أحد يشاركنى الضحك وأنا أستدرج زملائى إلى سيدة تعيش على النيل وسط جدران من قوالب الطوب وقد تغطت بألف قطعة قماش . . وأنها تراب يمشى فوق التراب . .

وهى متسولة مجنونة . . تصرخ طول الوقت ونظرها ضعيف وسمعها أيضا . . وكنت أقول ضاحكا : لابد أن تكون أعظم امرأة فى العالم ففيها كل العيوب التى نجدها عند العباقرة !

ولم يكن أحد يشاركنى الضحك عليها . وهى فعلا لا تبعث على الضحك لأنها صورة ممسوخة للعجز والفقر والمرض . . ولأنها (طرح المجتمع) أو (طرح بحر) الحياة . . فالمجتمع قد قذفها بعيداً فليست لديها وسيلة للاتصال بالناس أو التفاهم معهم . فهى جسم غريب نبذه الناس . ولا دخل لها فى ذلك . . ولا ذنب ولا جريمة . . إنها ضحية لأسباب لا نعرفها . . أو هى نكتة خشنة . وقد حاولت أن أؤكد لزملائى الصغار وكنت صغيراً - أن المرض ليس شرط التفوق . . وإننى شخصياً كنت متفوقاً ولا أشكو مرضاً وليست عندى أيه رغبة فى ذلك . . ولم أجد سبباً لضحكى إلا معنى واحداً هو تمسكى برأيى وسخريتى من آراء الآخرين !!

وفجأة أصابتنى الدوسنتاريا والبلهارسيا والانكلستوما مثل معظم أبناء الريف . وكان طبيب مدينة (أبو حمص) بمحافظة البحيرة هو د . هنرى يزبك . . خواجه . . لبنانى . . أرمنى . . كان قصير القامة أحمر الوجه بكرش وله طربوش أحمر قاتم طويل وله عينان خضراوان . وكان ظريفاً . كنا نخاف منه . . ولكنه الطبيب الذى عالجنى من أمراض الريف - الماء القذر والطعام الفاسد والرمرمة !

وتشاء الصدفة عندما كنت رئيساً لتحرير مجلة (الجيل) سنة ١٩٦٠ أن رأست لجنة اختيار (ملكة جمال الإسكندرية) . .

وجاءت ملكة الجمال وسألتنى : تعرف الدكتور يزيك . .

- يزيك ؟ آه . . ياه . . ليه ؟

- إنه جدى .

- وأين هو الآن ؟

- تعيش انت .

وكان هو أيضاً جميل الملامح !

وكان فى مدينة (أبو حمص) مسجدان واحد له خطيب اسمه (الشيخ روحه) ومسجد ثان خطيبه اسمه الشيخ عبد القوى . . وكنت أفضل الشيخ روحه لأن والدى يذهب إليه ولأنه تنبأ لى بأني سوف أكون شيئاً هاماً يوماً ما . وكان الرجل رشيق القوام نحيفاً دقيق الملامح ملىء الصوت . .

فهو يبدو كما لو كان مريضا من السهر والقراءة من أجل إعداد هذه الخطب البديعة . .

أما الشيخ عبد القوى فهو ضخم الجثة يصعد المنبر بصعوبة . . ولكنه قصير العبارة حاضر البديهة . يدخل قلوب الناس بسهولة لأنه يحكى لهم حكايات عن حياتهم ثم يدعمها بآيات من القرآن وأحاديث للرسول . . ولكن ـ ولابد من هذه الكلمة ـ ولكن رغم أن صوته سليم وأداءه سهل فهو فى صحة جيدة . .

إنها ـ إذن ـ نفس الفكرة الغريبة التى التصقت بحكمى على الناس والنظر إليهم . . وعلى الرغم من أننى تخليت عنها فى بعض الأوقات فقد لاحظت أنها تعاودنى . . أى تطل برأسها من

دماغى أو من أحشائى . . وإننى عندما كنت أسخر من زملائى ، كنت أسخر من نفسى أيضا حين أردد كالببغاء أن المرض لم يكن شيئا بشعاً ولا هو بسبب غلطة فى الأكل والشرب أو العدوى . . وإنما هو توأم الذكاء والتفوق . . فلم أكن أعرف أننى أبدو مريضاً ؟! ففى إحدى ليالى رمضان بادرنى فضيلة الشيخ روحه بقوله أمام والدى : صحتكك يا ابنى مش عاجبانى . . يجب أن تأكل وأن تترك الكتاب وتشم هواء . . أنت ضعيف جداً لماذا ؟

والتفت إلى والدى يسأله !

ولم أكن أعرف أننى نحيف هكذا . . وأننى أبدو مريضاً . وأن هناك خوفاً على صحتى . وأن القراءة هى السبب . . وهنا أحسست بشىء من الفضيحة . . فكأننى عندما كنت أدافع عن المرض والنحافة إنما كنت أدافع عن نفسى وأرى أن هذا أيضا هو سر تفوقى !!

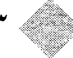
ومعظم الأفكار فى مثل هذه السن الصغيرة ، ليست واضحة . ولا المعانى مؤكدة ولا الأحكام على الناس صائبة . لأننا صغار مثل أفكارنا مثل آمالنا . . مثل دنيانا !

٤

من المؤكد أننى كرهت المستشفيات . . اللون الأبيض فى الجدران وملابس الأطباء والممرضات . الطواقى البيضاء والكمامات . . وكرهت لمعان الأرض ورائحة الفنيك ورائحة التعقيم . . وأحياناً رائحة الطعام مختلطاً برائحة الاتير واليود وروائح أخرى لا أعرفها ولا أجدها إلا فى عيادات الأطباء . .

ومن خوفى من المرض . . وكراهيتى له . . وقد عايشته طول عمرى مع أمى وأبى ، كان لى أصدقاء كثيرون من الأطباء فى كل الأمراض . .

أذكر أن أحد أظافر قدمى قد انغرز فى لحم أصبعى حتى صرت عاجزاً عن المشى . فاتصلت بصديقى د . فيليب المنقبادى رئيس أطباء شركة شل . . وقلت : يا دكتور . .



- يا نعم .

- أصبعى .

- اشمعنى ؟!

- أظفرى دخل فى اللحم .

- تعال للعيادة . .

- ماذا ستعمل ؟!

- سوف أقص أظفرك . .

- واللحم ؟

- أقص منه القليل . .

- من غير بنج ؟

- لا داعى . .

- لابد . .

- هو كذلك . . بنج موضعى . .

- لا . . بل بنج شامل . .

- بنج شامل لإخراج الأظافر من اللحم ؟ دى نكتة . .

- هذا هو الشرط . .

- أوكى . .

وسبقته إلى عيادته وطلبت من الممرضات إعداد غرفة العمليات . . وسألونى قلت أن الدكتور سوف يجرى لى عملية الآن . . وهذه تعليماته إليكم . .

وجاء الدكتور ليجد الممرضات فى حالة استعداد للعملية الكبرى التى سوف يقوم بها الطبيب ! وأندهش لهذا الاستعداد الكبير للممرضين وسألهم فقالوا : إن هذه تعليماته التى تلقوها منى . . فأخرجهم من غرفة العمليات وأغلق الباب وهو يقول : يا أخى فضحتنى وفضحت نفسك . . اتفضل اطلع على التربيزة واخلع الشراب . . وسوف أعطيك حقنة بنج . .

- بنج كامل . . فأنا لا أريد أن أشعر بأى شىء . .

- خلاص . .

ووجدتنى بعد فترة من الوقت جالساً أشرب قهوة سادة لكى أفيق من البنج . . وحاولت أن أستوضح الدكتور ماذا جرى بالضبط . . فقال : تعالى لكى نتعشى وسوف أجعل الضيوف يضحكون على الذى فعلت والذى قلته تحت البنج . .

وكرهت أن أزور الأصدقاء المرضى . . قرفاً من المرض . وكراهية لصور الضعف الإنسانى وللمستشفيات ولم أندم فى حياتى أننى لم أزر مريضاً ، ولكنى أننى زرته . .

ولا أنسى كيف ذهبت مع الأصدقاء والأقارب لرؤية زميل لنا فى المنصورة الثانوية . قالوا : مريض . ولم نسأل بأى شىء . . فلو عرفنا فما الذى يمكن أن نفعله . . وإنما أحسسنا بعذابه واحتمال فقده . . ذهبنا إلى المستشفى كأننا ذهبنا إلى قبره . . وقد رسم الموت صورة على كل وجوهنا . . الحزن والأسى . . واستقبلنا النبأ ودموع أمه وأخوته . . وبكينا . . وفى المستشفى اختلطت صرخات المرضى فى كورال واحد . . فهم يعبرون عن

معنى واحد . . وعندما ذهبنا التفتنا إلى الذين كانوا يبكون مثلنا وسرنا وراءهم . . ولكنهم دخلوا غرفة أخرى . . وكنا نظن أنهم أهل زميلنا المريض . . ونظرنا لبعضنا البعض ولم نستطع أن نضحك ففى الغرف المجاورة كثير من البكاء والعويل ولطم الخدود وشق الفساتين لقد مات شاب وكان عريساً أصابه طلق نارى فى ليلة زفافه . .

ولم أستطع أن أواجه طويلاً زميلنا الذى ظنناه قد مات . . أو بسبيل أن يموت . . ففوجئنا بما أضحكنا . . أنه حى يلعب الكوتشينة ويسخر من حزننا عليه !

□ □ □

ويوم مرض خالى . . وكان شاباً وسيماً جميل الصوت والصورة . لا أعرف بالضبط ما الذى أصابه . ولكن وجدت الهمس فى البيت كله . إنه نائم . . وقد تلقيت صفعة على وجهى لأننى أتكلم بصوت مرتفع أمام غرفة خالى . .

وفى صباح اليوم التالى تأكد لى أن الكلام ممنوع والهمس ممنوع طبعاً والضحك واللعب واستحال أن أتكلم مع أمى وأن تلتفت إلى . . لقد مات خالى . .

أما السواد فكان على الوجوه والملابس حزناً عليه . . وكانت دهشتى هائلة حين كنت أتصور أن أمى قوية جامدة لا يهزها شىء . وقد صمدت لمصائب كثيرة فى حياتها . . إلا فى هذا اليوم حاولت أن أقترب منها . . أن أكلمها أن أسألها . . أن أجعلها ترى أننى أبكى مثلها . . وإن لم تكن عندى نفس مشاعرها . . ولكنها

لم تكن ترانى ولا تتكلم ولا تأكل ولا تشرب . . ولا أعرف كيف انتظمت خالاتى والقريبات فى حلقة واحدة يقفزن ويلطمن خدودهن . . وأمى أيضا تلطم خديها . . ويبدو أنها وضعت لوناً أسود أو أزرق على وجهها . . أهذه أمى ؟ إنها هى ! كيف ؟ لا أمل فى أن تجيب . . وكل الذى يجب أن أعمله . . هو أن أبعد . . فلا أحد يسمعنى . . ولا أحد عنده أى استعداد لأن ينظر أو يتكلم . . وإنما بكاء وعويل بالصوت والذراعين والساقين . . كيف؟ ولم أجرؤ أن أسأل أمى بعد ذلك ما هذا الذى كانت تفعله؟

ولم أدر أين ذهبوا بخالى بعد ذلك . . ولم أحاول . إنه مات . . والحزن عليه طويل والبكاء والعويل ولا أعرف متى غيرت أمى ملابسها السوداء . . وإن كنت أراها دائماً إذا خرجت فملابسها سوداء . . ولم أرها ترتدى ملابس ملونة عند خروجها وإنما فى البيت فقط . . ولم أشأ أن أسأل عن المنديل الذى أطرافه سوداء حتى بعد سنوات من وفاة خالى وخالتى وجدتى وجدى . . وأختى غير الشقيقة والتى أحببتها كثيرا ولم أفهم لماذا كانت أمى تمنعنى من الارتماء على صدرها كلما رأيتها وأبكى وأشكو لها أمى . . ولم أسأل بعد ذلك لماذا هذا الموقف من أختى . . وما المعنى ؟

لم أفهم . ولم أجد أحدا أسأله .

وقد اعتدت فى ذلك الوقت أن أتساءل . . أتكلم بصوت مرتفع وأجيب أنا عن نفسى بنفسى . . لماذا يمنعونى من أن أحتضن أختى وأقبلها . . ويقولون : يا ولد يا قليل الأدب !

وإذا تساءلت قائلاً : أنا رأيت البقرة تلد . . فمن أين يجىء ابنها الصغير . . وهل الحمير والماعز والفئران والإنسان كلها تلد بنفس الطريقة . . وأنا عندما كنت فى بطن أمى ماذا كنت أفعل . . وكيف نزلت من بطن أمى . .

وهذا السؤال الأخير قد أصابنى بضربات متنوعة من أمى .

وكانت من عاداتهم فى الريف أن تجلس السيدة الحامل على كرسى مثقوب . . والثقب واسع وهى تجلس فوق هذا الثقب وتجىء واحدة يسمونها (الداية) وتمد يدها تسحب الطفل . . كيف . . لم أعرف بوضوح لأنى شاهدت هذا المنظر وأنا تحت السرير . . فلما رأيت الجنين قطعة من اللحم الأحمر صرخت من تحت السرير . . وعرفوا مكانى . . وضربتنى أمى وحبستنى . . فقد رأت فى ذلك قلة أدب وفضولاً مبكراً . وحاولت أن تعرف منى كيف جاءت هذه الفكرة ومن الذى قال ومن الذى شجعنى . . ولم أعرف كيف أجيب عن كل هذه الأسئلة . فلا أحد قال . وإنما أنا وجدتنى مدفوعاً إلى أن أعرف . . ما الذى أعرفه . . ليس ذلك واضحاً فى رأسى . ولكن فى حاجة إلى أحد يوضح لى ذلك . . لا أحد . . ولما علمت بعد أيام أن هذا الجنين قد مات . . دارت بى الأرض . . ولسبب غريب تصورت أننى عندما صرخت تحت السرير فقد أدت هذه الصرخة إلى فزع الطفل فمات . .

فقد حدث قبل ذلك أن رأيت إحدى قريباتى تضرب ابنها الكبير لأنه أخذ يقول : توت فى أذن طفل صغير . . فقالت له :

إنك تصيب الولد بالطرش . فلا تصرخ فى أذنه . . هل تريد أن تقتله ؟

ولكن لم أعرف إلا فيما بعد أن وفاة الطفل ليست بسبب صرخاتى تحت السرير . . فالصرخات لا تقتل . وإنما جاءت الوفاة لأسباب أخرى . ولما اقتربت من أمى إحدى المرات وشجعتنى ابتسامتها الحلوة سألتها : يا ماما . . ولماذا مات إبراهيم ؟!

قالت : ربنا عاوز كده .

- عاوز كده ليه ؟!!

- حكمته .

- يعنى إيه ؟!!

- يعنى كل واحد له عمر . . وربنا يجعل عمرك طويل يا ابنى . . واحد عمره قصير وواحد عمره طويل . . واحد غنى وواحد فقير . . وربنا يجعلك غنيا ويسعدك يا ابنى .

- وليه مش كل الناس عمرهم طويل ؟!!

- ربنا عاوز كده .

- وعاوز كده ليه ؟!!

- يوه . . يا ابنى وجعت دماغى . . عاوز كده وخلاص . . اسكت بقى . .

وسكت . ومن الأسئلة حية تروح وتجىء فى دماغى . . ولكن أمى معظم الوقت مرهقه . . مريضة . . وبقيت الأسئلة بلا جواب

. . وحتى إذا أجابت أمى فهما كلمتان أو ثلاث . . وبعدها ينبغى أن أسكت لكى أدعها تقول : آه . .

وتوجعنى (آه) أمى . . وتتحول فى الليل إلى دمل فى عينى . . إلى أشواك فى فراشى وإلى اختناق فى صدرى وأسأل ولا أحد يجيب : ولماذا أمى وحدها المريضة . . لماذا كل الأمهات فى صحة وعافية . . فلم أسمع من أى واحد من زملائى فى المدرسة أن أمه طريحة الفراش دائماً . . وإذا قامت تساندت على الجدران . . وإذا نادتنى أثناء مذاكرتى . . كان على مضض منها . . فهى لا تريد أن تصرفنى عن المذاكرة وفى نفس الوقت لا تقوى على أن تعمل أشياء أخرى كثيرة . .

وكثيرا ما سألت زملائى هكذا : أين تنام . . وحدك . . هل إذا نادتك أمك بالليل تسمعها ؟!!

- ولماذا تنادينى ؟!!
- نفرض أنها نادتك هل تسمعها ؟
- لا .
- ولم يحدث أن نادتك لأى سبب ؟
- لا . . ولكن لماذا تنادينى ؟
- كأن تكون مريضة . .
- . . بابا معها . .
- آه بابا ينام معكم فى البيت .

- طبيعى كل أب موجود فى البيت وهو الأقرب إلى ماما . .

- وانت بابا فى البيت ؟

- لا . .

- وإذا نادت أمك فمن الذى يرد عليها ؟!!

- أنا .

- ومتى نادتك ؟!!

- أى وقت . .

- يعنى أنت تسمعها فى أى وقت ؟!!

- نعم .

- وماذا تفعل ؟!!

- أقفز من السرير .

- وتعمل إيه ؟!!

- أعمل ما تريده .

- وماذا تريد ؟!!

- الأدوية فى علب أو فى زجاجة بالقرب من السرير أو فى مكان آخر . .

- وهى لا تستطيع أن تمد يدها ؟!!

- لا . .

- ولماذا كل الأدوية بعيدة عنها . . لماذا لا تضعها بالقرب منها

حتى لا تنادى عليك . .

- أحيانا تريد أن تذهب إلى دورة المياه .

- وماذا تفعل أنت ؟

- أجرى بسرعة لكى تتساند على كتفى . .

- كل يوم ؟

- نعم . .

- وفى كل ساعات الليل والنهار ؟

- نعم . .

- إذن كيف تذاكر ويكون ترتيبك الأول علينا ؟

- أذاكر بشكل متقطع . .

- تعرف إن ماما قالت لى كده وأنا مصدقتهاش . .

- ماذا قالت لك ؟

- قالت إنك طول الليل سهران وتنام على الأرض أمام سرير أمك .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- أمك هى اللى قالت لها . .

- هذا صحيح . . ولكن ليس فى كل ليلة . .

- إذن أنت غلبان .

- لا مش غلبان . . أنا أساعد أمى وهذا واجب على كل واحد .

- أقصد أنك لا تنام على راحتك . . ولا تذاكر بما فيه الكفاية . .

- . . .

وضايقنى هذا الحوار . ولا أعرف لماذا قالت أمى لأمه أننى أنام أمام سريرها ولا أذاكر إلا بصورة متقطعة . وكان فى نيتى أن أعاتب أمى . ولكن لم أستطع .

وتمنيت أن أرى أمه . وأن أجلس إليها . وجاءت أم زميلى هذا إلى بيتنا . ولا أذكر إن كنت أنا الذى ذهبت إليها أو أننى طلبت منها ذلك لأنى أريد أن أراها .

وجلست أمامها كأننى أمام كائن عجيب . وكانت دهشتى واضحة . لدرجة أن أمى كانت تكلفنى بأن أعمل أى شىء حتى لا أبحلق فيها بهذه الصورة . . انظر إلى وجهها . . إنه فى غاية النضارة . . وإلى حركات يديها وساقيها . . وإلى ضحكاتها العالية دائماً . . وإذا طلبت منها دواء فإنها تقوم وتقعد فى غاية الصحة . . وهى من أصل لبنانى . . لونها أبيض أحمر وشعرها ذهبى . وعيناها عسليتان فاتحتان . . أمى بيضاء وشعرها أسود فاحم طويل جداً وعيناها عسليتان فاتحتان . . وأحيانا أراهما سوداوين . . وعاشت أمى وماتت وأنا لست على يقين من لون عينيها . . ويدهشنى كيف أننى لم أتأكد من ذلك . . فأنا لم أكن أنظر إلى وجه أمى قطعة قطعة . . عيناً وأنفاً وشفة وأذناً وشعراً . . وإنما كنت أرى وجهها وأتمنى لها الصحة . . فأنا لا أراها . . وإنما أدعو لها طول الوقت . . فعينى تنتقل من وجهها إلى السقف إلى السماء إلى الله . . والاتجاه إلى السماء كان بمناسبة مرضها . .

مرة واحدة سألتها : يا ماما اشمعنى إنت اللى عيانه .
- يعنى إيه يا ابنى ؟
- إنت بس ؟
- فيه ناس كثير يا ابنى عيانه ..
- أنا لم أر أحداً .. كل أمهات زملائى فى صحة جيدة .. اشمعنى إنت ؟
- ربنا عاوز كده !
- ربنا عاوز إنك انت بس تبقى عيانه ..
- له حكمة يا ابنى .
- حكمته ايه فى أن كل الأمهات فى صحة وانت وحدك المريضة .. كل زملائى ينامون من المغرب حتى الصباح ..
- انت زهقت منى يا ابنى .
- لا .. لا .. لا ياماما .. ربنا يشفيك ويعطيك الصحة والعافية .. لا .. لا .. أنت فوق دماغى .. جزمتك فوق دماغى .. وعلى عينى يا ماما .. أنا مش عارف أسأل مين يفهمنى ..
- يا ابنى متسألش حد .. وإن شاء الله ربنا يشفينى وأنت تنام على راحتك يا ابنى .. مفيش حاجة بعيدة على الله ..
- ...

هل ظللت أبكى يومها إلى الصباح هل رحت أخفى رأسى تحت اللحاف حتى لا تسمعنى أمى .. هل كان ذلك هو سبب احمرار عينى وورم جفنى .. وعدم ذهابى إلى المدرسة أياماً ..

وكانت هذه آخر مرة أسأل أمى بصورة مباشرة . . ووجدتنى بعد ذلك لا أقول إلا كلمة واحدة : حاضر . . حاضر . .

وحتى عندما كانت عندها رغبة فى الكلام كنت أسرح . . لأ ننى لا أريد أن أجيب . . ولا أرى تأثرها الشديد لهذا الذى قلت . . ولم أعرف كيف أقوم بتسليتها أو إضحاكها . . فليس فى حياتى تسلية ولا مرح ولا ضحك . . ويدهشنى جداً أن أجدنى أسمع الضحكات والصرخات من الشقق المجاورة . .

وفى ذلك الوقت كنت حائراً أمام أشياء كثيرة : لماذا أمى مريضة دون الأمهات . . وما الذى يضحك كل هؤلاء الناس . . وأصعب من كل ذلك : ما هذه الرائحة الغريبة التى تملأ أنفى عندما ينفتح باب أية شقة . . لماذا لا توجد عندنا إلا رائحة العقاقير . . بل إننى لاحظت أن كل البيوت لها رائحة غريبة . . رائحة الطعام وأشياء أخرى لا أعرفها . . ولا أجد هذه الرائحة عندنا . . لماذا ؟ ومن أين تجىء ؟ لماذا لا توجد فى كل هذه البيوت رائحة السبرتو وصبغة اليود والحديد والزرنيخ والينسون . . مش فاهم !

❑ ❑ ❑

بعد صلاة الجمعة أخذنى أحد أصدقاء والدى من يدى وذهب بى إلى الشيخ عبد اللطيف إمام المسجد وقال : ده ابن محمد أفندى منصور . . عارفه . .

- أيوه .

- ما شاء الله عنده ١٤ سنة . وقد حفظ القرآن الكريم وهو فى السابعة من عمره . . وحفظ الكثير من الشعر انت عارف أبوه

شاعر . . وهو ما شاء الله يريد أن يستوضح ما جاء فى خطبتك العظيمة . .

وكان إمام المسجد جالساً مشرق الوجه مشجعاً . فمد يده ووضعها على كتفى قائلا : الله يفتح عليك يا ابنى . . أبوك من أفاضل الناس . . ماذا تريد أن تعرف يا ولدى . .

قلت : وبالوالدين إحسانا . . يعنى إيه ؟

- يعنى أن تكون مطيعاً لهما . . أن تحبهما . . أن تساعدهما . ألا تضايقهما . . أن تذاكر وتنجح فيكون ذلك مصدر سعادة لهما . .

- وكيف أساعدهما ؟

- إذا طلب منك شيئاً فأسرع إلى تلبية ما يطلبون . .

- ولكن زملائى فى المدرسة لا يفعلون ذلك . أنا سألتهم . .

- يعنى إيه يا ابنى . .

- يعنى ليس منهم واحد أمه مريضة . . وهم ينامون طول الليل دون أن يوقظهم أحد . .

- يعنى إيه يا ابنى . . مش فاهم يا حبيبى . .

- ليس منهم واحد أمه مريضة . . تظل طول الليل تتأوه وتنادى من يساعدها . .

- والدتك مريضة .

- نعم .

- أنت سوف تدخل الجنة يا ابنى . فالجنة تحت أقدام الأمهات . . بارك الله فيك . .

- وزملائى لن يدخلوا الجنة ؟ لأنهم لا يساعدون أمهاتهم ؟

فضحك وقال لكى ينهى هذا الحوار الذى لم يرحنى : انت إن شاء الله سوف تسبقنا جميعاً إلى دخول الجنة .. يا بختك ..

- ......

وفى طريقى إلى البيت وجدت أحد زملائى . والتفت إليه قائلاً سعيداً : أنت لن تدخل الجنة ؟

- من قال ؟!!

- شيخ الجامع .

- هوه قال لك كده ؟!!

- كلكم لن تدخلوا الجنة ..

- وأنت حتدخل الجنة ؟!!

- طبعاً .

- ليه ؟

- **هوه قال كده .**

- طيب أنا رايح أسأل بابا وماما .

- .....

يدى على أنفى

١

كان مولد النبى . وعندنا حصان حلاوة وحمص وعدد كبير من أولاد الخالات والعمات والأعمام . . البيت هيصة . . مولد . وكنت أنسحب وأجلس إلى جوار أمى . . والذى يرانى أستمع باهتمام شديد إلى ما تقوله خالاتى يخيل إليه أننى مهتم جداً بكل صغيرة وكبيرة . .

وبعد انصراف الضيوف سألتنى أمى عن حكاية سمعتها : فيه وكنت موجوداً متابعاً لكل ما يقال . فلم أذكر منها شيئا . وكانت هذه أول مرة أعرف أننى كثير (السرحان) رغم متابعتى بالعين والتعليق على كل ما يدور حولى . .

وبعد ذلك كنت أهرب من الجلوس مع والدتى عندما يزورنا أحد ، خوفاً من أن تسألنى عن تفاصيل ما حدث أو ما قيل . .

ثم أنها عاتبتنى بشدة كيف أعرف أن أحد أصدقائى مريض ثم



لا أذهب إليه . وأقسمت ـ صادقاً ـ أننى لم أعرف ذلك ، وتؤكد أمى : أننى سمعت ذلك وأننى سألت عن الذى جرى له وأين هو الآن !

لقد تأكد لى ولأمى أننى شديد السرحان . .

وفى ذلك الوقت كنت قد سمعت أو قرأت أن الأمراض معدية . . كلها . . وأنه يكفى أن تصافح أحداً لتصير مريضاً . . وأنه يكفى أن تجلس إلى جواره . . أن تتنفس هواء الغرفة . . أن تشرب من نفس الكوب . . أو تقابل أحداً من أقاربه الذين زاروه . . وكان لنا صديق يهودى اسمه ليفى وكان يقول : أن الموت نفسه يعدى . . وأن الموت إذا دخل بيتاً ، فلا يخرج بميت واحد وإنما يخرج باثنين وثلاثة . .

وحكى ليفى كيف يحتاطون حتى لايخطف الموت واحداً آخر . . لا أذكر الآن ماذا قال . . وإن كنت أعرف بعض عادات اليهود . .

طبعا فى مثل سنى لم أناقش هذه المعانى . فلأنها جديدة فهى قادرة على أن تدفع جذورها إلى أعماق النفس . . وكان عندى استعداد قوى لمثل هذه المخاوف أو القلق فقد استقرت تماماً فى أعماقى . .

ووقفت أمام بيت صديقى هذا المريض ولم أعرف ما الذى يمكن عمله حتى لا أمرض مثله . مع أننى لاأعرف ما هو مرضه . ولكن عرفت معانى العدوى . فلم أجد إلا حلاً واحداً وهو أن اتظاهر

بالمرض وألقى بنفسى أمام الباب . . ورأونى وبسرعة نقلونى إلى داخل البيت وأفسحوا لى مكاناً إلى جوار صديقى المريض . . انتظاراً للطبيب!

وجاءت أمى بسرعة وهى تحاول رفع معنوياتى وقالت لى : أمال عاوز تطلع دكتور إزاى . . يا دكتور!

ولم أقل أننى أريد أن أكون دكتوراً . ولا أعرف كيف يكون ذلك . وذكرتنى أمى أننى قلت لها . وكان أملى أن أكون دكتوراً لكى أعالج أبى وأمى . ومعنى ذلك أن يظل أبى وأمى مريضين خمسة عشر عاماً أخرى حتى أتخرج فى الجامعة . . وأتولى علاجهما . . ولكن لا أجد فى نفسى أى استعداد ولا رغبة فى أن أكون طبيباً . فأنا لا أعرف كيف أمارس أى عمل يدوى . . فلم أجدنى يوماً أدق مسماراً أو أحاول إصلاح مصباح أو وابور جاز أو بسكلت . . كأننى بلا يدين ولا ذراعين وكل الذى أعرفه أو أستطيعه هو أن أقرأ . . أبحث عن شىء أعرفه . . أفهمه . . وكل معلوماتى نظرية . . وكلها من القليل الذى أقرؤه . وأتباهى به . ويضاف إلى ذلك قدرتى الهائلة على الحفظ فقد حفظت القرآن الكريم من السابعة إلى التاسعة وحفظت شعراً كثيراً سمعته من أبى . ولازال أردده وإن كانت المعانى قد غابت عنى فى ذلك الوقت . . ولكننى مفتون بالموسيقى الشعرية . وليس من هذه الصفات صفة واحدة تؤهلنى لأن أكون طبيباً كما تريد أمى أو كما ادعيت أنا أننى أريد . .

وبقى الخوف من المرض . . ورغم أن هذا الخوف عميق ، فلم أفعل شيئا من أجل القضاء عليه . . وبسرعة وبعيداً عن قدرتى على تغيير ذلك ، تحول الخوف إلى وسوسة . . وتركزت هذه الوسوسة فى الخوف من البرد . . أو الإصابة بالزكام أو بذات الرئة مثل أمى وخالتى وخالى وعمتى . .

ووجدت أن الوقاية التى هى خير من العلاج فى أن أتغطى باللحاف فى عز الصيف وباثنين وثلاثة فى الشتاء . . ولا أزال أفعل . هل أنا قلدت والدتى كما قلدتها فى كثير من عاداتها ؟

لقد حاولت فى سنوات كثيرة تالية أن أجد لذلك تفسيراً . ووجدت أن السبب الحقيقى ليس برودة الصيف . . وإنما هو عدم الشعور بالأمان . . فأنا مثل كل الأطفال إذا خافوا غطوا وجوههم . . أو كالنعامة حين تخفى رأسها فى الرمل تظن أنها قد أخفت كل جسمها . . أو إذا هى أغمضت عينها عن الخطر فقد زال الخطر . . ورغم أننى لم أعد أعانى من القلق وافتقاد الأمان ، فقد أصبح الغطاء الثقيل عادة تمكنت منى لدرجة أننى إذا أخرجت قدمى من تحت اللحاف صيفاً فأننى أعطس . . كأن عاصفة باردة قد هبت على قدمى!

ولما وجدت أن حكاية اللحاف هذه مضحكة ، لم أعد أذكرها لأحد . . ولكننى حكيت فى التليفزيون بعد ذلك ما حدث لى فى استراليا . . وما حكيت أيضاً فى كتابى (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) فقد كنت فى مدينة سيدنى سنة ١٩٥٩ والجو شديد البرودة والفندق لم يكن أكثر من (دوار العمدة) . ووجدت السرير ملتصقا

بالحائط . . والحائط بارد والأغطية قليلة خفيفة . فارتديت ملابسى كلها الداخلية والخارجية وحاولت النوم تحت البطانية الخفيفة فلم أستطع . . فسحبت السرير إلى منتصف الغرفة . ولم أجد إلا حلا واحداً . لقد نمت حتى الصباح بين المراتب !

وضحك الناس . ولكنى لم أكن أقصد ذلك . .

ولما عرفت الموسيقار محمد عبد الوهاب اكتشفت أن مخاوفى متواضعة جداً . فهو أكثر خوفاً من البرد . وهو معذور لأنه يعيش على حباله الصوتية . ولكنى أنا خائف والسلام . وعند محمد عبد الوهاب كل أدوية البرد والزكام والعطس والانفلونزا وهو يتعاطاها قبل حلول فصل الشتاء . .

وكنت أقول لعبد الوهاب : أنا أول واحد يعطس فى قارة أفريقيا . . ويكون العطس مثل صياح الديك قبل طلوع الشمس . . وأنا أعطس قبل حلول فصلى الخريف والشتاء . .

وكان عبد الوهاب يقول لى : أنا ولدت خائفاً . . وأنا لا أستبعد أن أمى كانت تعطس وأنا فى بطنها . . ومن يومها وأنا خائف من كل الناس!

وكان هذا هو الباب الملكى لدخول صداقة محمد عبد الوهاب . أما الباب الخلفى فهو أننى أحب صوت عبد الوهاب . وقد حاولت الغناء فى الحفلات المدرسية وغنيت واكتشفت فيما بعد أننى لا أريد أن أكون مطرباً ، وإنما أن أكون سهل العبارة جميل الأداء مثل موسيقاه وغنائه . وأن أجعل الفلسفة الصعبة حكايات سهلة بسيطة يفهمها أقل الناس ثقافة . ولذلك فقد جاءت عباراتى

الأدبية سهلة . ومفرداتى قليلة . لقد حاولت ذلك ولا أزال .

ولنا حكايات فى الوسوسة يتندر بها الوسط الفنى والندوات الأدبية . وقد سئلت عنها كثيراً أمام الميكرفون وعلى الشاشات العربية . وهى صحيحة . مثلاً : كنا نتناول عشاءنا عند السيدة فاتن حمامة . وكان عبد الوهاب قد طلب منى أن أوصله بسيارتى . فسائق سيارته مريض ـ غالباً مزكوم . فأعطاه عبد الوهاب إجازة عشرة أيام . وذهبت بعبد الوهاب إلى فاتن حمامة . وفى الثانية صباحاً نزل كل الضيوف إلا عبد الوهاب وأنا . وبقيت فى انتظاره . وسألت فاتن حمامة : أين هو ؟

ـ فى أوضة النوم . (وضحكت) .

ـ فيه إيه؟

ـ عبد الوهاب يبحث عن واحد ثانى يوصله للبيت !

ـ ليه؟

ـ بيقول إنك مزكوم !

ـ أنا؟ ولو كنت مزكوماً ما نزلت من البيت . . مين اللى قال له؟

ـ عبد الحليم حافظ . . وأنا متأكدة أنه مقلب . . هاها . . هاها . .

ولم يجد عبد الوهاب أحداً يوصله . وخرج من غرفة النوم ويده على أنفه . وقال لى من وراء يده : اسمع يا حبيبى أنت مزكوم؟ طبعاً .

ـ لا طبعاً !

ـ عبد الحليم قال لى . .

ـ مقلب . .

ـ على كل حال . . أنت تسبقنى تفتح أبواب السيارة وأنا سوف أنام فى الكرسى الخلفى . .

ـ وهوه كذلك . .

ـ لا . . أنت تنزل من أسانسير . . وأنا أنزل من أسانسير تانى . . ونتقابل تحت . .

وتقابلنا . . ووقفت بعيداً . ثم طلب منى أن أقف وراءه . . ظهراً لظهر وأردد هذه العبارة قال لى قول :

ـ إيه؟

ـ قول :

من منكم محمد محمود .

فقلت : من منكم محمد محمود .

ـ لا . . الميم مضبوطة ياالله بينا !

٢

عندما ذهبت لمقابلة كبير رهبان التبت أو الأبٍ الروحى المعبود هناك ، كان فوق الهملايا . . الطريق صعب جداً . . معظمه على ظهر بغل . . درجة الحرارة تنخفض وترتفع حسب الارتفاع والانحناء والهبوط والصعود يمينا وشمالا . . ولكن لم أعطس ولا تلمست جانبى الأيمن . . لا ألم . . وجانبى الأيسر . . لا وجع . . ووضعت يدى على معدت . . لا مغص . . إذن ما أزال قادراً على الاستمرار . . ووجدت حيلة لكى أقابل الدلاى لاما . . وقابلته ووجدته ضئيلاً شاحباً . . أو لونه أصفر . . ولكن أنفه أحمر . . وعيناه وراء المنظار حمراوان . . وشممت بعض الروائح . . لعله فى حالة تأمل لعذاب البشرية أو عذاب قومه . . أو لعله أرادنى أن أنقل إلى العالم أنه رغمٍ الضيافة الهندية السخية فإنه حزين لفراق أهل التبت وأكثر حزناً على الذين ساروا وراءه وناموا أمام الفيلا

التى يسكنها . وقد رأيتهم ورأيت فيهم كل ملامح القارة الأسيوية . . مكدسون متزاحمون متراصون . . وعيونهم سوداء صغيرة قليلة الانحراف . . ولما رأونى وأذهلهم أن رأونى داخلاً على الدلاى لاما الذى لايرونه إلا من البلكونة ولمدة لحظات . . وإذا رأوه خروا سجداً عند قدميه ويطلبون وساطته عند ربهم أن يعيدهم إلى بلادهم أو يعيد بلادهم إليهم . . إنه على كل شيء قدير ـ أى الدلاى لاما . . فلا بد أن أبكى .

وجاء رئيس الوزراء يترجم كلامى من الفرنسية إلى لغة التبت . فكان الدلاى لاما بعد كل كلمة أو كل حكمة يعطس ـ يا نهار أسود الرجل مزكوم . قداسته عنده زكام . ومادام زكامه مقدساً فسوف ينتقل إلى أنفى حالاً ويبقى حتى الموت!

وخرجت من عند الدلاى لاما وأنا مزكوم . وظللت كذلك شهوراً حتى تخلصت من ذلك بعد رحلتى إلى سيلان وأوندونيسيا وأستراليا والفلبين وهونج كونج واليابان . . ووجدت العلاج فى أعشاب جزيرة هاواى . .

ومن العجيب أنها أعشاب يقال أنها أتوا بها من التبت !

٣

وفى يوم ذهبت إلى لقاء الرئيس السادات فى بيته بالجيزة . ومن عادة الرئيس أن يجلس فى الصالون . . ولكن هذه المرة قالوا لى : سيادة الرئيس فى انتظارك فوق . . فى غرفة نومه .

وصعدت الدرج . . ووجدت الرئيس بالبيجاما وفى السرير :

ـ أهلا يا أنيس .

ـ أهلا ياريس .

ـ والله يا أنيس . . اقفل الباب وراك . . الانفلونزا كسرت عظامى ولا أنا قادر أتحرك . .

فقلت بسرعة : سلامتك يا ريس أجى لك بكره أو بعده . . أو أى وقت . .

ـ اقعد يا أنيس . . ادينى بتعالج . . عصير ليمون . . على اسبرين . . الدكاترة دول أمرهم غريب قوى . . دول بيقولوا لى

حاول ما تتكلمش . . طيب أعمل إزاى . . يعنى أفكر وأعمل ازاى . . أتكلم بصوابعى . . وهوه أنا عاوز أغنى . . أنا عاوز أتكلم بس . .

وفى نفسى أقول : آه يا ريس لو تعرف الخوف والرعب والفزع الذى أصابنى . . ورغبتى فى أن أقفز من النافذة . . لا فائدة من الكلام والخوف . . كلها لحظات وسوف يجد الرئيس أنه من المناسب أن أعود أنا إلى البيت لأننى صرت مزكوماً مثله تماماً . أى أننى أيضا كنت مزكوما وأخفيت عنه ذلك . . أو مادمنا نحن الاثنين مزكومين ، فليكن لقاؤنا بعد يوم أو يومين . .

وقاطع الرئيس أفكارى وقال لى : إيه . . أخبارك . . قرأت إيه . . وقابلت مين . . وعملت إيه فى الحكاية اللى سألتك عنها . . هات لى رد عليها . .

وطال الحديث ساعتين ونصفا . . وكلما دخل أحد وقدم شاياً أو قهوة طلب منه الرئيس السادات أن يغلق الباب . .

ونزلت من بيت الرئيس السادات واتجهت إلى الأجزاخانة القريبة وطلبت حقنة رودكسون ونوفالجين معاً . . ثم عدت إلى البيت ودخلت تحت اللحاف ولبست الجورب الصوف والطاقية الصوف . . وانتظرت الزكام أو السعال أو الرشح . . ساعة . . ساعتين . . شىء عجيب لا سعال . . ولا زكام . . ولا رشح . . أخرجت رأسى من تحت اللحاف . . لا عطس . . خلعت الطاقية . . جلست فى السرير . . خلعت الجورب الصوف . . أخرجت يدى من تحت اللحاف . . قفزت من السرير إلى

مكتبى . . لا شىء . . أمسكت القلم . . حاولت أن أحرك الورق ليدفع الهواء ناحية وجهى وأنفى . . لا عطس . . شىء غريب . . بدأت اكتب . . كتبت . . راجعت الذى كتبته واتصلت بالرئيس السادات أستوضحه . . كان الزكام قد انفرد بالرئيس ولم يعد صوته مسموعاً . . فقال لى : والله باين الدكاترة على حق . . أن صوتى مش طالع . . مش حاطول معاك يا أنيس . . أنت تقول كذا ولا تقول كذا . . ليه . . لأن المطلوب هو كذا . . قابلت فلان؟ . . إذا قابلته قل له الرئيس سوف يلقاك بعد زوال الانفلونزا . . ورد على . . طيب شكراً يا أنيس . .

- سلامتك يا ريس .

- الله يسلمك . .

ووضعت سماعة التليفون وهجم العطس والرشح والزكام . . فدخلت فى الطاقية تحت اللحاف . . وظللت على هذه الحال أسبوعاً !

٤

وفى زيارة إلى الخـــرطوم . . نزلنا من طائرة الرئيس الســـادات وبدأت الأحـضـان والقـبـلات . . وهمس فى أذنى أحـد رجـال البـروتوكـول فى الخـرطوم وقـال لى : خـد بالك الرئيس نميـرى مزكـوم . . وانسحبت وتواريت ولم أصافح الرئيس نميرى . . وفى الطريق إلى الفندق طلبت من الســائق أن يقف عند إحــدى الصيدليات . . ودخلت وعرفونى : أهلاً وسهلاً وحمد الله على السلامة نورت . . إلى آخر المجاملات السودانية الصادقة . .

وأخذت حقنة نوفالجين وقرصين أسبرين . . وطلبت الكثير من الليمون فوراً . . وأغلقت جهاز التكييف ودخلت تحت الغطاء وفى الليل جاء تليفون بأن موعد العشاء مع الرئيس تأخر ساعتين وسألونى إن كنت سأحضره فقلت : أنا مريض .

ـ عندك إيه .



ـ زكام . .

ـ مش حاجة . . الرئيس يريدك بالذات . .

ـ الحـقـيـقـة أنا مش مـريض . . أنا أرسلت كل مـلابسى للمكوجى . . وليس عندى إلا بيجاما . . ما رأيك ؟

ـ أجيب لك جلباباً سودانياً . .

ـ أرجوك تعتذر عن عدم حضورى . . بأننى مريض عندى . . صداع . مغص . . أى حاجة . .

ـ أنا جاى لك . .

ولم ينتظر حتى أخترع له قصة كأن أقول أننى بالملابس الداخلية . . أو أننى تحت الدش . .

ووجدت دقاً على الباب . . وفتحت له . . وقال لى : إية الحكاية . .

ـ . . . .

ـ بالذمة إيه الموضوع ؟

ـ بمنتهى الصراحة قالوا لى أن الرئيس نميرى مزكوم . .

ـ مش مزكوم . .إننى لا أفارقه لا ليلاً ولا نهاراً . .

ـ بشرفك؟

ـ والله ما مزكوم . . مين قال لك ؟

ـ فلان . .

ـ يا أخى . . أنت عارف فلان بتاع مقالب . . والله الرئيس ما مزكوم . .

ونزلت معه . ولكن حدث أثناء العشاء أن استدعانى الرئيس السادات فذهبت إليه . . ووقفت بينه وبين الرئيس نميرى . . وفجأة وجدت الرئيس نميرى يعطس . . ولم يكد يفعل ويرى الفزع على وجهى حتى ضحك الرئيسان . . إنه مقلب . . وكان زكامى وأوهامى حديث السهرة للوزراء والكبراء والصحفيين!

٥

اضطررت فى إحدى المرات أن أقابل أم كلثوم ـ والاضطرار لأنها كانت مزكومة . مع أننى سمعتها تقول : أنها أقل الناس إصابة بالزكام لأنها تأكل كذا وتشرب كذا . . وتستحم بالطريقة الفلانية وملابسها فى الشتاء وملابسها فى الصيف . . أى أنها تحتاط لذلك . . ومعها حق فحنجرتها يجب أن تبقى ذهبا لا يصدأ ولا يتآكل . .

وأما سبب استعجال لقائى بها فلأننى أريد أن أصالحها أو أعتذر لها عن خبر سخيف نشرته مجلة (آخر ساعة) وكنت رئيس تحريرها فى ذلك الوقت . .

وهى على يقين من أن الخبر قد أفلت من رقابتى لأنها تعلم مدى حبى لها . ومع ذلك فهى فرصة أن ألتقى بها وأتحدث إليها وأسمع . وأنشر بعد ذلك . فحكاياتها لاتنتهى ونكتها وقفشاتها .

ولم أكد أرى أم كلثوم وإلى جوارها كمية كبيرة من المناديل . . وأنفها أحمر . . وصوتها مبحوح جداً . . وقد حاولت هى فى التليفون أن تقلل من أثر الزكام على حنجرتها . . طبعا ليس شيئاً صعباً أن تجعل صوتها عالياً ومختنقاً ورفيعاً وغليظاً هذه قدرتها وفنها . . ولكن أنفها يقول شيئا آخر . . إنه أحمر جداً وشفتاها أيضاً . . مزكومة لاشك فى ذلك . . أو فى نهاية الزكام . . ولكن لاتزال مزكومة . .

فوقفت عند الباب وحاولت أن أجلس بالقرب منه فضحكت أم كلثوم وقالت لى : أنا كنت عاملة حساب اللحظة دى . .

ـ عامله إيه .

ـ أنا قلت لهم يحطوا لك كرسى قدام الفيلا وأنت تزعق لى من بعيد وأنا لا أرد عليك . . هاها . . هاها . . النهارده آخر يوم فى الزكام وأول يوم عندك . . مش ده اللى بيسموه سباق التتابع واحد ياخد الزكام من واحد ويعطيه للى بعده . . أنا حملتك أمانة يا شيخ تنقل الزكام للواد اللى كتب الخبر البايخ اللى عندك فى المجلة . . وبالمناسبة . . لماذا لا تجعل اسم مجلة (آخر ساعة) . . (آخر سقعه) . . هاها . .

وأنا خارج أعطتنى أم كلثوم أحد مناديلها وهى تقول : ده تصبيره لحد ما تروح البيت المنديل ده يمنع الزكام وينقله برضه . . منديل أم كلثوم بقى . . وينقله للملايين من المحيط إلى الخليج . .

وبالفعل انتقل الزكام إلى أنفى واستقر فى حنجرتى . . وسألت عنى أم كلثوم . وقلت لها : وصل . .

- اللى هوه إيه .

- الزكام . .

- يا شيخ أنت تطول تأخذ زكام أم كلثوم . . بكره حتغنى . . هاها . . هاها . . بس مش حتلاقى حد يسمعك . . هاها . .

٦

وفى يوم وأنا أتمشى مع الرئيس السادات فى القناطر الخيرية . توقف فجأة وقال لى :

الساعة كام معاك ؟

قلت : العاشرة .

ـ كويس قوى . . يا أنيس .

ـ نعم يا ريس .

ـ تأخذ الطيارة وتسافر حالاً وتقابل مناحم بيجن وتقول له . . . . فإذا قال لك : قل له . . . . وإذا قال لك : قل له . . وتعود اليوم . . وبمجرد وصولك اتصل بى تليفونياً . .

ونادى الرئيس السادات أحد السكرتيرين وأعطاه التعليمات خاصة بسفرى إلى إسرائيل بعد ساعة . .

وتحدد موعدى مع بيجن الساعة الواحدة والنصف . .

وقبل أن أدخل مكتبه اقترب منى أحد مساعديه وقال لى : الله يكون فى عونك يا أنيس . .

ـ مش فاهم . .

ـ عنده انفلونزا حادة . . ولكن سوف تقابله رغم أنفك !

ـ طبعا . .

وبالفعل وجدت بيجن أحمر الأنف والعينين ولما وجدنى قد وضعت منديلا على أنفى قال بسرعة : أهو ده التطبيع . . انفلونزا للجميع . . هاها . . هاها . .

ثم قال لى : لكن أمام عدسات التليفزيون يجب أن تكون المصافحة عادية جداً فلن أقبلك ولن أحاول . .

والتقطت الصور . . وجلست فى أول الغرفة ومنديلى على أنفى وجلس هو بعيداً . .

وبادرنى بالقول : ولكن ليس هذا هو التطبيع . . فالانفلونزا التى عندى أسيوية والتى عندك أوروبية والتطبيع أن تكون الانفلونزا من نفس النوع .

ـ التطبيع ليس معناه التطابق التام . . وإنما أن نتفق على أشياء كثيرة ونبقى مختلفين أيضاً . .

ـ أنت دخلت فى الموضوع مباشرة . . فهل بعث بك الرئيس السادات لتقول لى ذلك . . أو أن هناك رسالة أخرى . .

ـ هناك رسالة أخرى . .

وقلت له وقال لى . . وصافحته وخرجت ومنديلى على أنفى . . وأدركنى أحد مساعدى بيجن فقال لى : ما شاء الله أنت أخذت الانفلونزا بهذه السرعة . فقلت : نعم . .

فضحك قائلا : هو ليس مزكوماً . . وإنما قيل له أنك أنت المزكوم . . وقيل له أنك موسوس . .

ولما عدت اتصلت بالرئيس السادات وكان بيجن قد اتصل به أيضا . ولم يكد الرئيس يسمع صوتى حتى وجدته مقاطعاً رسالتى : وعملت إيه فى الانفلونزا يا أنيس . .

ـ الله . . بسرعة انتقل إليك الخبر يا ريس . .

ـ بيجن هوه اللى قال لى وموتنى من الضحك . . ضحكوا عليك وقالوا لك أنه مزكوم وهو لم يعترض على ذلك . . ففوجئ بأنك أنت قد ادعيت الزكام . . قال لك إيه . . وقلت له إيه . .

وقلت للرئيس . . وعطس الرئيس . . فتوقفت عن الكلام تماماً . . فضحك وضحك وهو يقول : الله يضحكك يا أنيس . . أنت متصور أنى أنا انزكمت من بيجن وأننى سوف أنقل لك الزكام بالتليفون . . والله أنت ومحمد عبد الوهاب مجانين!

٧

وفى يوم سألتنى الصحف السعودية عن الزكام الذى أصابنى فقلت لقد انتقل إلى من الأمير سلمان أمير الرياض . .

وفى صباح اليوم التالى فوجئت بالأمير سلمان ومعه د . عبد المنعم حسب الله . وقال لى ضاحكا : إذا كنت أنا سبب الداء فقد جئت إليك بالدواء .

ثم قال : أنا لست مزكوماً .

ـ همه قالوا لى يا سمو الأمير .

قال : والله أنا ما مزكوم . . ولكن تتوهم أن الناس كلهم فى حالة زكام ولذلك فأنت من خوفك من الزكام فى حالة زكام دائم . وحتى إذا لم تنتقل العدوى منى ، فسوف تصيبك من ألوف الحجاج الذين سوف تلتحم بهم حول الكعبة وبين الصفا والمروة فنحن فى عز الشتاء . .

وأعطانى د . عبد المنعم حسب الله عقاقير ضد الزكام . . جعلتنى أعرق وأتعرض للهواء البارد حتى استقرت الأنفلونزا فى عظامى وحلقى ومعدتى . . ولزمت الفراش . .

وعلقت ورقة على باب غرفتى أقول فيها : يعتذر أنيس منصور المصاب بالانفلونزا عن مقابلة أى صديق . وقد أعذر من أنذر . .

فكانت هذه الورقة سبباً فى أن يصر الأصدقاء والقراء على التأكد من أننى صحيح الجسم والعقل معاً . . ولم أفلح فى أن أمنع أحداً . .

وجاءنى الأمير الشاعر عبد الله الفيصل . . وجلس يتحدث كأننى لست مزكوماً وكأننى لم أكتب ورقة على الباب . . وسألته : هل قرأت الـ . .

فبادرنى بقوله : إن منظارى انكسر ولذلك فأنا لا أقرأ الصحف . . فيه إيه .

ـ فى الصحف لا . .

ـ أمال فين . .

ـ على الباب . .

ـ أى باب . .

ـ باب غرفتى . .

فضحك وقال : تقول لى هذا بعد أن جلست معك ساعتين أشم نوعين من الهواء الفاسد . هواء السيجارة وهواء الانفلونزا . .

ـ آسف يا طويل العمر . .

ولم يكمل ضحكته فبدأ يعطس . .

ولما حاولت أن أسأل عنه في المساء كان الرد : والله سمو الأمير تعبان . . وممنوع الاتصال به بتاتاً . .

ـ خير إن شاء الله .

ـ مين بيتكلم !

ـ أنا أنيس منصور .

ـ يا أنيس أنت السبب . . والله الأمير كان كويس قبل أن يزورك وأنت لم تخطره بأنك مريض . . أنت تعرف أن سمو الأمير عنده السكر . . وأن الأطباء منعوه بعدم تعاطى المضادات الحيوية . . وأن . . وأن . .

ـ وأنت حضرتك مين ؟

ـ أنا الأمير عبد الله الفيصل .

ـ لم أعرف صوتك يا سمو الأمير . .

ـ وكيف تعرفه والزكام قد تمكن من حبالى الصوتية .

ـ أنا آسف يا طويل العمر . .

ـ مادمت قد اعتذرت فسوف أستدعيهم حالاً . .

ـ من هم ؟

ـ جماعة قد بعثت بهم لكى يدعوا عليك فى الكعبة . . هاها . .

ـ . . .

سجن فى سجن

١

كـمـا هى العـادة اقـتـربت من البـاب على أطراف أصـابعى . . ولمست الباب ووضعت المفتاح برفق . . وبعد انفتاح الباب فأننى انظر مباشرة إلى غرفة والدتى . . إلى الأدوية إلى جوار السرير . . فإن كانت بنفس الترتيب الذى رأيته قبل خروجى فمعنى ذلك أن أمى لم تنهض من الفراش . . وإذا كـانت زجاجه قـد اختـفت فـمـعنى ذلك أنهـا وقـعت على الأرض وأن أمى لم تسـتطع أن تأخذها وأن الزجاجة لا تزال إلى جوارها . . أما إذا كانت زجاجة جديدة قد ظهرت فمعنى ذلك أنها تعبت وأن واحدًا قد زارها وأنها كلفته بأن يأتى لها بدواء جديد أو أن طبيبًا قد جاء . .

كل ذلك اعرفه قبل أن افتح الباب . .



ولكن فى ذلك اليوم وأنا متجه إلى الباب لم الاحظ أن أحد أقاربى كان قد توارى فى ظلام مدخل البيت .. ولم يكد يرانى حتى ضحك قائلاً : أنت بتتسحب كأنك قد جئت لتسرق البيت .. هاها .. هذا بيتك .. هاها!

وتمنيت لو أن أحدًا سرق البيت .. سرقنا من البيت والقى بنا فى أى مكان آخر .. سرق البيت وتركنا فى الشارع .. فما الذى فى البيت .. كل شىء مسروق .. الألوان سرقت فلم يبق إلا الشحوب .. الأصوات سرقت فلم يبق إلا التنفس المخنوق والسعال .. الحروف سرقت فلم يبق إلا حرفان : آه .. النوم سرقوه .. الراحة .. الأمل .. الروائح سرقت كلها فلم يبق إلا رائحة العقاقير وروائح أخرى اختنقت حتى ماتت ..

حتى لو تغير المكان وتغير الزمان فسوف يبقى كل شىء على ما هو عليه : المرض والوجع والدواء واليأس من الشفاء .. فى هذا الذى يسمى البيت .. أنا أسرق بيتًا؟ يا ليت .. آه لو استطعت لسرقت مرض أمى وارقها وخوفى عليها ..

آه لو استطعت لثقبت الجدران الخانقة لنا والسقف فوقنا ليتسرب إلينا شىء من البهجة والصحة والعافية والروائح الغريبة التى تهب علينا قبل الغداء وقبل العشاء وأحيانًا عند منتصف الليل ..

إننى لا أعرف بالضبط ما فائدة المرآة فى الحمام .. أحياناً أنظر فيها ولا أرى أحدًا وأحيانًا لا أراها .. مع أنها هناك دائماً .. فما

الذى حدث؟ إن شيئاً ما قد سرق رغبتى فى النظر إليها .. أحياناً أنظر إليها فأجدها وأحيانًا أنظر فلا أجدها ..

هناك شىء غائب ..

هناك أشياء كثيرة غائبة .. هناك غياب أقوى من الحضور .. عندنا كلمة (لا) وهى أقوى حضورًا من كلمة (نعم) .. فلا شىء هناك .. فالعدم أقوى وأعمق من الوجود .. فما الذى يمكن أن يسرقه أحد لو أراد .. لا شىء يمكن سرقته .. والذى يتبقى بعد ذلك نتمنى أن يسرقه أحد .. ولكن من يكون هذا الأحد ؟!

إننى لا أجدنى ..

إننى أيضًا مأخوذ ..

مسلوب ..

مسروق ..

٢

سجن؟ نعم جدرانه من الرطوبة والظلام والصمت . فلا أعرف متى يجئ الليل أو متى يذهب .. ولا أعرف متى تشرق الشمس بحرارتها ومتى تغرب .. فهى تشرق هناك وتغرب هناك ولا يصلنا من أشعتها إلا القليل .. فإذا وضعت يدى على الجدران تساقط منها الجير الأبيض كأنه قطع من الجليد .. هل الجدران باردة هكذا .. أو أن البرودة فى أعماقى .. فلا يوجد بيت من بيوت زملائى إلا لمست جدرانه .. إنها دافئة .. والمكاتب والأرض والمقاعد كلها دافئة .. فمن أين يجئ إليها الدفء .. إلى أين يذهب الدفء من بيتنا .. كيف أن بيوتهم ربيع دائم ، وبيتنا شتاء دائم .. لماذا إذا صافحونى كانت أيديهم دافئة .. وأنا طول الوقت اخفى يدى فى جيوبى ..

لماذا يجلس الواحد منهم منفرج الساقين والذراعين . . وأنا مكرمش مكتوم فى مقعدى . . لماذا . . ما الفرق بينى وبين الناس . . لا أفهم . . لماذا اليأس عندى والبهجة عندهم . . لقد سألت الكثيرين فلم أجد أن أمهاتهم مريضة . . وبعضهن يرقد وينهضن بسرعة . . ولم يتسع وقتى لكى أعرف الفرق بين هذه الأمراض والأدوية والأطباء . . لقد عرفت أن أكثر زملائى لا ينامون أمام سرير أمهاتهم مثلى . . فإذا قالت : آه . . نهضوا وامتدت أيديهم إلى زجاجات الدواء . .

لم أجد واحداً مثلى . . وليس عندى جواب لكل هذه التساؤلات !

فى هذا الظلام والرطوبة والصمت تعمقت عندى مشاعر العزلة . . الوحدة . . الغربة . . فأنا وحدى طول الوقت . . لا أقول ولا يقال لى شىء . . وإذا قلت فكلمة : حاضر . . وإذا سمعت فكلمة : آه . . لا أجد ما أقوله ولو وجدت ، فلا أحد يسمعنى . . لا كلام ولا حوار . . حتى الكلمات تموت بمجرد نطقها . . فكل شىء قصير الأجل إلا المرض . . وكل شىء يروح ويجئ إلا الألم . .

ولم أجد أحدًا اتحدث إليه إلا نفسى . . فأنا اكتب وأقول واكتب وأناقش نفسى وأغضب منها وافرح بها . . ولا أجد أحدًا يقرأ ما كتبت . . ولم أفكر إن كان الذى اكتبه له قيمة . وإذا كانت له قيمة ، فأنا الذى اقول ذلك . . ولم أجد أحدًا يهمه أن اكتب أو ما كتبت . . ولم أجد أحدًا يطلب منى أن اقرأ له ما كتبت . . ولكنى ماض في الحديث إلى نفسى . .

حتى زملائى تعمدت أن ألقى لهم بخطابات تحت الباب . بدلاً من أن أدق الباب واتحدث إليهم . فلم يكن هدفى أن أكلم أحدًا . وإنما أن يكون هناك أحدًا يقرأ أو يفكر فى الرد فيكون حوار بيننا . . وقد ضايقتنى دهشة أصدقائى . قالوا لى : يا أخى دق الباب . . بدلاً من أن تكتب خطابًا طويلاً عريضاً . . ولم أفهم ماذا تريد . . أو بعضهم كان يقول ردًا على خطابى : غدًا نتكلم فى المدرسة . .

بعض هذه الخطابات لم أمزقها . ولما قرأتها بعد عشرات السنين لم أجد لها سببًا . فأنا لا أتحدث عن شىء . . وإنما أتحدث وأصدقائى معذورون إذا لم يفهموا السبب . . ومعهم حق . فقد أردت أن يسمعنى أحد . . وإذا سمعنى أن يقول شيئاً تعليقاً على ذلك : أى تعليق . .

وفى هذا الكهف المظلم الرهيب الساكت كالقبر تولدت رغبتى فى الكتابة . . تفتحت موهبتى . . ففى البدء كان الظلام والرطوبة والصمت والغربة .

وأنا أحاول أن أتخلص من كل هذه الجدران الواحد بعد الآخر : جدار الظلام . . جدار الصمت . . جدار الرطوبة . . جدار العزلة كأننى جنين يريد أن يخرج من البيضة . . وبعض الأجنة تفرز مادة تذيب جدران البيضة . . كأنها دموع . . فإذا ذاب الجدار قام الجنين يحطمه بمنقاره . .

بعض الأجنة تفرز هواء تضغط به على جدران البيضة من الداخل فينكسر . . فإذا انكسرت القشرة دخل الأوكسجين فيساعد الجنين على الخروج من البيضة . . لقد كانت دنياى بيضة . . شرنقة . . محارة . . زنزانه . .

بل هناك شىء أبشع من ذلك . . فقد تذكرت عندما كنت طالبًا ادرس الفلسفة وعلم النفس اخترت دراسة حالة شاب أرمنى يسكن فى نفس شارع الأستاذ العقاد بمصر الجديدة . . هذا المريض اسمه ارتين . . وارتين ولد فى غرفة صغيرة فوق السطوح . ولم تفلح أمه المسكينة أن تخرجه من هذه الغرفة عشرين عاماً . . إنه متشبث بالغرفة . وإذا حاولت إخراجه بالقوة فإنه يصرخ . . وقد أخرجته أنا بمساعدة البواب فكاد يموت من الخوف . .

وطاوعته ثم جلست إليه وكلمته وحاولت أن أفهم . ولم أعرف لماذا يعتقد ارتين أنه ما يزال جنينًا فى بطن أمه . وإنه لم يولد بعد . . ولا يعرف متى!

ياه يا أرتين . . شىء من ذلك أحسست به أنا . . فكل شىء يربطنى بأمى . وكل شىء يشدنى إليها . . وكل شىء يتوقف على صحتها ومرضها وخوفها وخوفى . . وصحتها وصحتى . . كأننى مثلك يا أرتين مازال فى بطن أمى . . لم أخرج إلى النور والدفء والحياة كأننى جنين لا أمل عنده فى أن يخرج من البيت . . فدموعى لا تذيب الجدران ومنقارى أضعف من أن يكسرها . . ثم إننى مثل ارتين لم أعرف إلا بطن أمى . . أتقلب فى داخله ولا أجد سببًا يجعلنى اهجره . . أحطمه . . أفلت منه . . وكان بطن أمى له جدران سميكة مثل جدران غرفة ارتين . . صحيح أن الغرفة فوق السطوح . . وفى مكان مرتفع ونظيف . . ولكنها سجن . . وسواء كان السجن فوق السطوح أو تحت الأرض فهو

سجن . . ولم أفلح إلا بعد سنوات طويلة فى أن اخرج منه . . أن أفلت . . أن اقفز . . كأننى ولدت نفسى . . أو كأننى خرجت من بذرة . . وكبرت . . وصرت مختلفاً كثيراً عن البذرة التى خرجت منها . . عن البيضة التى فقست منها . .

وكلما كبرت زاد الاختلاف بيننا . . فأمى لم تتعلم القراءة . ولم أكن ألاحظ ذلك . ولم يكن هناك أى داع لأن اكتشف ذلك . فالذى تقوله أمى هو قانون . والنصيحة حكمة . والوصفة علاج . والخوف هواء نشمه . وأملها هو هدف حياتى أن أنجح وأن أكون الأول . لكى أفعل بعد ذلك ماذا ؟ . كلام أمى ليس واضحاً . ولا ترى أن البنت أو المرأة ضرورة فى حياتى . . أنا أولاً ونجاحى ثانياً . أما بنات الجيران أو بنات العائلة فيجب أن أبعد عنهن إلى آخر الدنيا . . فهن يشغلن أى أحد عن نجاحه وتفوقه . . وهناك حكايات كثيرة كانت تذكرها عن البنت (المفعوصة) التى شغلت فلانًا عن المذاكرة والتى علمته التدخين . والتى جعلته يسرق فلوس أبيه ومجوهرات أمه . .

وإذا جاءت السيدات والبنات إلى زيارة أمى اشارت بأن اذهب إلى غرفتى . فلا أرى ولا أسمع . . وإذا حاولت البنات ، بمنتهى البراءة والصدق أن يجلسن معى فإن أمى تعترض وتغضب وترى فى ذلك محاولة لافسادى لابد من مقاومتها فورًا . ولم يتسع الوقت بينى وبين أمى لكى أسألها عن معنى هذا . . ولا عن الأسباب . ولا عن المآسى التى جعلتها تتخذ هذا الموقف العدائى

من المرأة . . أو الموقف الدفاعى الصارم عنى ضد المرأة . . أيا كانت . .

امرأة واحدة لم تكن لها سلطان عليها . ولا حاولت . ولا أنا حاولت . إنها خالتى . . أجمل من رأيت فى حياتى ، صورة وصوتاً وقلبًا كبيرًا وحنانًا متدفقًا . . وقبل خالتى هذه لم أعرف أن الكلمات أحضان وأن ابتساماتها أحضان واحضانها : حياة آمنة مطمئنة . . وإن كل لمسة : أمان . . وكل همسة : سعادة . . وأن الحياة والدنيا والسعادة والأمان : خالتى . . فلما ماتت . . ماتت دنياى . . مات مستقبلى . . كل شىء مات . . ولم يبق إلا الحزن على خالتى والخوف على أمى . . وحيرتى وعذابى الذى لا ينتهى . . وكانت خالتى تقول لى : عاوز تبقى إيه ؟ أقول لها : مش عارف . .

- دكتور؟

- مش عارف .

- مهندس؟

- مش عارف .

- محامى؟

- . . . . . .

- يمكن إنت لسه صغير . . لما تكبر حتعرف . .

- عاوز أفضل معاك .

- أنت معايا يا حبيبى . .

- وإذا ذهبت إلى الجامعة فى مصر عاوزك تبقى معايا . .

- إن شاء الله .

بينى وبينها حوار . سؤال وجواب . . كلام كثير لا أول له ولا آخر . . بل له أول بمجرد أن أراها فأنها تبتسم . . تضحك تقول . . وأجدنى فى حضنها . . بل إننى فى حضنها فى أى وقت . . وأحيانًا كنت أتخيل أنها هى التى تضع الغطاء الذى يسقط من فوق السرير . . فتضعه على قدمى وعلى رأسى . . ثم أنها تقبلنى وتقول : تصبح على خير . .

وعرفت فيما بعد أنها لم تفعل ذلك ولكنى تخيلت . . وتخيلت حوارًا قبل النوم . .هى تدعونى أن أنام وأنا لا أريد . . وأتخيل أن أمى تعترض على ذلك . . فهى تريدنى أن أنام لكى أصحو مبكرًا أذاكر وأذهب إلى المدرسة فى موعدها . .

ولا أذكر أننى استغرقت فى النوم ولا أذكر أنه راحت على نومه لا أيام الطفولة ولا بعدها . .

□ □ □

ما هذا الذى كان فى طفولتى . . كانت هناك سحابة سوداء فوق أو كانت تلف حياتنا . . سحابة . . ضباب . . وكان هناك كلام مستمر ألا أكمل تعليمى . . إلا أصل إلى الجامعة . . لماذا؟ لا أعرف . ولذلك فأنا مستسلم فى عجزى عن التفكير أو عن النظر إلي الأمام أو إلى الخلف . . بل كنت إذا نظرت فمثل الذى

يتحسس الجدران . . فأنا اتحسس الدنيا بنظر ضعيف وأمل قليل وخوف كثير ويأس عميق . . وعندى شعور بأن شيئاً ما سوف يقع أمامى أو فوقى . . وما هذا الشىء . . لا أعرف . . فإذا جاء الليل استرحت أن النهار قد ذهب . . وإذا طلع النهار استرحت أن الليل قد مضى . . وإذا دق الباب فالطبيب . . وإذا سمعت بابا قد انغلق فأسرع إلى بابنا خوفًا من أن أكون قد نسيت أن أغلقه . . أو أن كلبًا قد وجده مفتوحًا فدخل ثم خرج وأغلقه الهواء . ولكن لا هواء ولا كلب ولا هو باب بيتنا . .

حتى بائع الخبز له دقة مميزة على الباب . ويكون الخبز ساخنًا عجينًا . . لا هو أبيض ولا هو أسود . . ولا هو مستدير ولا هو مربع . . كأنه كلام بلا معنى . . له شكل الخبز وله طعم الكلام . . ولكن لا طعم ولا معنى . .

أما الذى لا أفهمه كل يوم فهو أن الناس جميعًا يدعون لأمى بالشفاء . ويتطلعون إلى السماء وهم صادقون . ولكن لماذا لا يقبل الله دعاءهم . . ولا مرة . . كأن الناس لا يعرفون أن الدعاء له معنى ولكن ليست له نتيجة . . ولذلك كان الاصرار على الدعاء . فلماذا نشعر بالامتنان لهؤلاء الناس . . مع أنه لا فائدة من هذا الدعاء فى البيت وفى الشارع وأحيانًا فى المسجد . . فما الذى يشفى المريض؟

ولماذا تتعاطى أمى كل هذه الأدوية ثم لا شفاء لها بعد ذلك ؟

حتى أنا لم أعد ادعو لها . . فلا فائدة من الدعاء . . إنها مريضة وسوف تبقى كذلك . . تمامًا كما أن أناساً أصحاء لم يعرفوا المرض وسوف يبقون كذلك . .

ولما سألنى أمام المسجد وهو من أقاربى عن عنوان البيت . . فأعطيته عنوانًا آخر . . بيتاً أكبر وأجمل . . ولا أعرف لماذا سألنى . . وقد قابلته بعد ذلك كثيراً ولم يقل شيئاً . فهو سأل عن العنوان لماذا؟ وهو لم يذهب أو لم يأت لماذا؟ ولم أشأ أن اسأله . فهل أنا يئست ؟ يبدو ذلك . .

وفى المسجد اقترب منى الرجل الذى يقوم كل يوم جمعة باطلاق البخور فى المسجد وسألنى عن صحة والدتى . . وعن عنوان البيت فأعطيته العنوان . . ومضت شهور ولم يأت إلى البيت . ولا سألته ولا سألنى . هل يئست تماماً . يبدو ذلك . .

فجأة جاء أحد أولاده ومعه (حجاب) وطلب منى أن تضعه أمى تحت المخدة . .

٣

الجنة تحت أقدام الأمهات . هذه هى الحكمة التى تعيش فى رأسى . مع أننى لست على يقين من هذه النهاية . ولكن عندى شعور غريزى بأن أكون عند قدمى أمى . دون أن يكون لذلك أي تفسير أو أى هدف . حتى عندما تلقيت مكافأة من السماء على حبى الذليل لأمى : فقد كنا نسكن فى ٣٨ شارع الأمير حسين بالزمالك . أنه بيت السيدة نعمت هانم يكن أخت عدلى باشا يكن رئيس الوزراء . وكان أبى يعمل ناظرًا للزراعة عندها . واحتاجت أمى إلى دواء . وبسرعة ذهبت . وبسرعة عدت إليها فلم أجد صاحب الصيدلية . . والصبيان العاملون فيها لا يعرفون مكان الدواء . .

وكان لابد أن أذهب إلى الجامعة . ووقفت على سلم الترام . ونظرت إلى داخل الترام فوجدت الصيدلى واتجهت إليه أسأله عن

الدواء فوعدنى عندما اهتزت عربة الترام اهتزازًا عنيفًا . لقد ارتطمت إحدى سيارات النقل بسلم الترام فقتلت الثلاثة الواقفين عليه . ونجوت أنا عندما تحدثت إلى الصيدلى . وانكتب لى عمر ثان والسبب أمى !

وعندما كنت مسافرًا إلى الخارج تحدثت إلى أمى قبلها بيوم إننى مسافر إلى الإسكندرية لبضعة أيام . ولكن لسبب غامض وقبل سفرى بساعات تحدثت إلى أمى فى التليفون . فوجدت صوتها منهارًا تتساقط حروفه ونبراته . وسألتها : طبعًا مريضة؟ فحاولت بكل قوتها أن تخفى مرضها وتظاهرت بالقوة والمرح . ولأنها لا تريد أن تشغلنى تظاهرت بالصحة . . ثم ذهبت إليها ووجدتها تنزف دماً . والغيت سفرى . وكانت الفنانة كاميليا تريد أن تسافر ولم تجد تذكرة . فتركت لها مكانى . واحترقت بها الطائرة . وانكتب لى عمر ثان!

ويوم افتتحت شركة الطيران الباكستانية الخط الجديد بين باكستان وبريطانيا طلب منى المرحوم على أمين أن أسافر . فوافقت فورًا . ولكن رأيت أن استودع أمى واسأل إن كانت تريد أى شىء فدعت لى بالسلامة . ولكن صوتها فى التليفون يؤكد أنها تحاول أن تخفى شيئًا عنى . وذهبت إليها . ووجدتها فى حاجة إلى طبيب . والغيت سفرى . ولم تكد الطائرة تصل باكستان حتى احترقت فى أول رحلة لها . . وانكتب لى عمر جديد . .

ويوم صدر قرار الرئيس عبد الناصر بتعيينى رئيسًا لتحرير (آخر ساعة) نشرت (أخبار اليوم) فى صفحتها الأولى هذا الخبر مع

صورتى فى صفحة الوفيات فقد نشرت : شيعت أمس جنازة والدة الأستاذ أنيس منصور رئيس تحرير (آخر ساعة) . . . . أى فى اللحظة التى أحمل همى على كتفى إلى المستشفى وأجلس أمام أمى حتى الصباح صدر هذا القرار . وكنت قد اتفقت مع الأطباء أن يعطوها منوماً . . حتى تروح عليها نومه . . فلا تعرف أنها ماتت - يرحمها الله . .

إنها سحابة سوداء كانت فوق . . أو كانت تحت . . أو كانت تلف حياتى . . فالأيام كالليالى ، والليالى كالموت . .

وهذا الحب الحزين الكئيب قد اعتدت عليه . . ولم تعد تضايقنى أو تفزعنى كلمات : المرض والموت والخوف والظلام . . فأنا اعتدت عليه تماما كالأطباء . . فلا الحانوطى يضايقه الموت بل يسعده . . ولا الجزار يحزن على الذبائح . . ولا الطبيب على المرضى . . ولا الميكانيكى على السيارات يفكها ويربطها . . إنها العادة التى جعلت المشاعر تبرد وتتبلد ولكن ليس أسرع من يقظتها واشتعالها . .

إلا أنا . . فأنا (سفينة نوح) وقد حملت كل الأوجاع حية تتوالد فلا شىء يموت . . ولا شىء ينقص . .

٤

فلماذا لا أحاول هذه التجربة المختلفة . . فنحن إذا مات لنا أحد بكيناه ووصفناه بأحسن ما فيه . . فلماذا لا نعكس الوضع ونمتدح الأحياء قبل أن يموتوا . لماذا لا نجعلهم يسمعون الكلمات الحلوة التى نقولها بعد وفاتهم . . أليست حفلات التكريم أو التأبين لهم وهم أحياء أفضل من الشعر والورد على قبورهم .

كان هذا رأيى وفشلت فى هذه التجربة مرات كثيرة . . عندما حاولت صادقًا أن أقول لصديق ما يزال حياً : وداعاً . . ألف رحمه تنزل عليك!

لقد نسوا تمنياتى ، ولم يتذكروا إلى أننى أسبق الأحداث وانعاهم وهم على قيد الحياة . .

وكان إصرارى على ذلك رغم ضيق الذين أحيتهم بما كتبت ، فأنا غلطان لأننى أوجعت قلوب الأحياء على أنفسهم . ورغم أنها

بالفعل النهاية . فإنهم اتهمونى بأننى أتعجلها . . وقد شتمتنى إحدى الأمهات وإحدى صديقات الشاعر صالح جودت . فقد كان مريضًا فى لندن . وكتبت اتحدث عن رقته ولطفه وجلساته البديعة وكيف أنه اسعدنا وكيف أنه زينة الليالى وساحرها وأنه . . وأنه . .

فتلقيت خطابًا يلعن الأيام والليالى التى أسعدنى فيها صالح جودت . . وقالوا : ليته أطلق عليك الرصاص . .

ومن لندن ارسل صالح جودت خطاباً إلى الناقد الأدبى مأمون غريب يقول له : هل قرأت ما كتب فلان . . هل قرأت أنه يتحدث عنى كما لو كنت مت . . ولماذا يتعجل نهايتى ولا يتمنى لى الشفاء وأنا الذى وأنا الذى . .

وقرأت خطاب صالح جودت إلى مأمون غريب . إنه لم يفهم معنى ما كتبت . ولا يريد ! .

ومرض الأديب صلاح ذهنى . وكان أيامها سكرتيرًا لتحرير (آخر ساعة) وسكرتيرًا لدار الأوبرا . . وهو رجل ظريف . فقد عرفنى به الصديق الشاعر عبد الرحمن صدقى .

وفى ذلك الوقت كنت قد عثرت على مذكرات الحسناء المصرية نعمات علوى التى أحبها الشاعر الألمانى ريلكه . . ومات على صدرها فى سويسرا . ورأيت صورتها . وصورته . وقرأت الخطابات التى تبادلها الشاعر الفيلسوف والحسناء المصرية التركية . الكتاب وجدته على سور الأزبكية . . وعدت إلى السور كثيرًا ابحث عن كتب أخرى فوجدت نصف كتاب . النصف الأول من كتاب

باللغة الألمانية عنوانه (رسائل نعمات علوى) . . ومعظم الرسائل إلى الشاعر فى بداية حبها وفى الأيام الأخيرة السابقة على مرضه . .

وكان د . محمد عبد الهادى أبو ريده أستاذ الفلسفة الإسلامية قد ترجم (رسائل مالته بريجه) من تأليف الشاعر ريلكه ونشرها فى مجلة (الثقافة) . وكان استاذنا د .عبد الرحمن بدوى قد ترجم للشاعر ريلكه كتابه (كتاب الساعات) . وكتبت مقالاً طويلاً فى آخر ساعة عن الشاعر العاشق وعن المعشوقة الفاتنة . . ولما عرفت أن صلاح ذهنى قد أصيب بمرض الشاعر الألمانى ريلكه طلبت تأجيل نشر المقال إلى ما بعد سفر صلاح ذهنى إلى لندن . . فقد كنت حريصاً ألا يقرأ هذا المقال . .

وأجل صلاح ذهنى سفره وسافر يوم ظهر المقال . وقابلته صدفه . ولكنه ، والحزن والأسى والدموع فى عينيه قال لى : إنها نفس النهاية . . كأنك نشرت نعياً . . بل هو نعى!

٥

ولم أعرف ، وكثيرون غيرى ، شخصًا وشخصية وصديقاً وأباً وأخاً وسحرًا مثل كامل الشناوى . فهو الأب أو الأخ الأكبر الذى حبه لك جاهز . . فهو يحب دائماً . ويساعد دائماً . ويتطوع دائماً . . هو الذى دفعنى وكثيرين من جيلى إلى الأمام وإلى فوق . . فقد عملت معه فى (الجريدة المسائية) ونقلنى معه إلى (الأهرام) . . ومن (الأهرام) إلى (أخبار اليوم) . . وهو الذى يقدمنى وهو الذى يحدد مرتبى ويطلب لى العلاوة والمكافأة وهو المحامى الذى لا يمل الدفاع عنى وعن كل أبناء جيلى من الأدباء والفنانين . . وهو أروع ما فى ليالى القاهرة والإسكندرية . . هو روحها ونورها وبهجتها وهو النكتة وهو الضحكة وهو المقلب .

كتبت شيئاً من مثل ذلك عندما كان مريضاً . وعندما زرته ولم اتصور لحظة واحدة أنه قرأ ما كتبت فهو مريض جدًا . وتمنيت لو أن أحدًا حدثه عن الذى قلت وعن حزننا جميعاً على مرضه وليس

على فراقه . ولكنه قرأ وقال لى والدموع فى عينيه : معك حق . .
فالحياة مقلب . . هذا ما أشعر به . ولكن ما فائدة الذي قلت أنت
والذى احسست به أنا . . فعلاً مقلب!

وحاولت أن أخفف عن كامل الشناوى فكتبت نعياً لى أنا . .
وقلت أن فلاناً سوف يقول عنى كذا . . وفلان لن يقول كذا . .
ولكنى أنا كذا وكذا . . وقرأها كامل الشناوى وقال : ظلمت
نفسك . ولن تجد من ينصفك فأنت أحب وأجمل وابقى مما
تصورت . .

شكرًا لك . . لقد كان رقيقًا عطوفًا حتى آخر لحظة من حياته .

٦

وكنت قد اتفقت مع المرحوم موسى صبرى أن نرد نحن الاثنين على كتاب المرحوم أحمد بهاء الدين (السادات قال لى) . . فنحن نعلم أنه لم يقابل السادات إلا مرات قليلة جدًا . وأن الذى جاء فى الكتاب من خياله ثم أنه صدر بعد وفاة السادات . ولم أكن أعرف أن أحمد بهاء الدين يكرهنى ويحقد على إلى هذه الدرجة . . على الرغم من الرسائل الرقيقة التى بعث بها من الكويت يقول ويقول لى . . وقد رددت عليه بما هو أرق وأجمل وأكثر امتنانًا . وقلت لموسى صبرى : أنت ترد على كذا وأنا أرد على ما يخصنى وهو ليس صحيحاً . واتفقنا . وجلسنا . وبدأنا نكتب عندما مرض أحمد بهاء الدين . واشتد به المرض فعدلنا نهائياً عن تكذيب كل ما جاء فى كتاب أحمد بهاء الدين . . !

ومرض موسى صبرى . ولم أجد أحدًا على استعداد لأن يكتب عنه . فله خصوم سياسيون وخصوم من أبناء دينه . . ويقال

أنه اسلم وارتد واسلم ولم يرتد . . ويقال ويقال . . ولكنه صحفى ممتاز ونظيف اليد . فكتبت مقالاً أذكر فيه صفاته وعلاقاته وصداقاته وأخلاصه وتردده وحيرته وأنه كان فى استطاعته أن يكون أديباً . واشرت إلى بعض مقالاته فى أول حياته وحياتنا الصحفية . . كلها تؤكد أن لديه احساساً رقيقاً . ولكنه داس هذه المشاعر ومسح بها بلاط صاحبة الجلالة الصحافة - وهى مهلكة لمن يخلص لها ويتعبد فى لياليها ومصائبها وكوارثها وقهوتها وحبرها وورقها ومطابعها . .

والتقت به السيدة جيهان السادات فى واشنطون . وشكا لها من أننى كتبت نعيًا له قبل أن يموت .

٧

وعندما نظر قارئ الكف محمد جعفر فى يدى فى يونيو سنة ١٩٦١ قال لى : إن شاء الله سوف يفصلك من عملك جمال عبد الناصر يوم رأس السنة!

أعوذ بالله . وقد رافقته إلى مصطفى أمين . وقلت له : محمد جعفر يريد أن يقرأ كفك .

وبسرعة مد مصطفى أمين كفه . وقال له جعفر : الله يلطف بك يا مصطفى أنت وأخوك على . إننى أرى أنكما سوف تنفصلان حتى الموت!

وبسرعة مد مصطفى أمين يده إلى القلم وفتح الأجندة وقرأ وهو يكتب : جاءنى أنيس منصور ومعه محمد جعفر قارئ الكف وقال لى .....

ودخل مصطفى أمين السجن تسع سنوات . . وبقى على أمين يتنقل بين لندن وبيروت . ولما خرج مصطفى أمين من السجن دخل على أمين مستشفى الجمعية الخيرية فى الجيزة . وكنت أزوره كل يوم وأراه منبطحاً على الأرض وعلى السرير يرسم مشروعات لصحف ومجلات يريد أن يصدرها . . عقل؟ جنون؟ الاثنان معًا .

وكتبت مقالاً اتحدث فيه عن الفرق بين مصطفى أمين وعلى أمين . وعلى أمين هو صديقى .

وقلت أن على أمين يفضل أن يكون مثيرًا للشفقة . ومصطفى يفضل أن يكون مثيرًا للخوف . .

على أمين من أجل المبدأ يضحى بالشخص ومصطفى أمين من أجل الشخص يضحى بالمبدأ . .

على أمين يحب أن تحبه ، مصطفى أمين يفضل أن تعجب به . .

على أمين هو الإنسان مصطفى كان إنسانًا .

وكنا إذا رأينا عدداً من المعاقين فى المصعد فهم ذاهبون إلى على أمين ، وإذا رأيت عدداً من الجميلات فهن إلى مصطفى أمين . .

والذى يصافحك وهو لا يعرفك : مصطفى أمين . . والذى لا يصافحك رغم أنه يعرفك : على أمين . .

وقد أحببت على أمين دائماً ، ولم أحب مصطفى أمين فى أى وقت!

وحكايات أخرى ذكرتها . وذهبت إلى على أمين فى المستشفى فقال لى : أن مصطفى زعلان من المقال .

وذهبت إلى مصطفى أمين فقال : على أمين زعلان من المقال!

لقد اغضبت الاثنين معًا!

ولما توفى على أمين كنت فى باريس فى إحـــدى رحـــلات الرئيس الســادات . فلم أكـتب عنه . . ومـضى يوم وثلاثة والناس يتساءلون لماذا . والسبب : لمن أكتب . إن الشخص الذى يعنيه ما أقول قد ذهب . . وترددت ثم عدت فكتبت هذه المعانى!

٨

وتحيرت هل أكتب لإحسان عبد القدوس أو أكتب عنه . . إن إحسان عبد القدوس هو أول من قدمنى لعالم الأدب . . فقد قدمنى لقراء (روزاليوسف) وقدمنى لقراء مجلة (الاثنين) . . وهو الذى قال إننى كوكتيل من : العقاد وطه حسين والحكيم وجان بول سارتر . . انتظروا وترقبوا هذا الفيلسوف الجديد . .

وعندما فكر إحسان عبد القدوس فى اصدار مجلة (صباح الخير) وكنا فى بيروت قرر أن أكون نائباً لرئيس التحرير . فشكرته واعتذرت لأننى استرحت إلى العمل فى أخبار اليوم .

وكنت قد كتبت عن إحسان عبد القدوس كثيرًا . وعندما هاجمه العقاد دافعت عن إحسان . وغضب العقاد . ولكن إحسان عبد القدوس أكثر إنسانية من العقاد . . وهو صديق لطيف . وهو فنان . وهو الذى وضع أصابعنا العشرة على كل عيوب الطبقة

الوسطى الرأسماليين الفاسدين والموظفين الفاشلين والتجار الجشعين . . الجنس الذي يطل من كل بنطلون وبلوزة والذى هو الصوت الناعم وأحمر الشفاه وهو الحب والخيانة وهو الدموع والغدر وهو معظم الحروف الهجائية وكل ألوان الطيف والقوة التى تحرك التاريخ ذهاباً واياباً . .

وقلت : إن إحسان عبد القدوس مثل فتاه جميلة ولكن نظرها ضعيف فهى لا ترى فى مرآتها ما نراه نحن . يعنى إيه؟ يعنى أن إحسان لا يرى نفسه على أقلام النقاد . فالذين يعملون معه فى (روز اليوسف) إذا كتبوا عنه فهم مجاملون . وفى الصحف الأخرى إذا كتبوا عنه فحاقدون . . فهو لا يرى صورته فى مرآة النقاد . لا رآها حياً ، ولا أحد أنصفه ميتاً .

وقد أحزننى كثيرًا أننى لم أقل عنه كثيرًا . فقد مات بسرعة . وكنت أظن مرضه سوف يطول وتكون فرصتنا لنحدثه عن مكانه ومكانته ولو على شكل حكايات يتسلى بها فى فراش المرض . .

ويوم ذهبت أزوره فى المستشفى قابلت د . خيرى سمره عميد طب القاهرة . وجلسنا ووقفنا نضحك . وقلت أريد أن أرى زوجه إحسان عبد القدوس لأننى لا أستطيع أن أراه وهو مريض . .

ووقفنا معًا على باب . وأمام الباب إحدى الممرضات تأكل وتمضغ لبانا . . وفهمت أن هذه هى (غرفة الانعاش) وأشار بيده إلى أحد الأركان وقال لى : هناك . .

واتجهت إلى حيث اشار بيده . .

وسألته : إيه اللى هناك؟

قال : إحسان . .

ودارت بى الأرض . فلم أر أحدًا . وإنما رأيت شيئًا قد تكوم هناك . وأحمد الله أننى لم أر وجه إحسان . . ولا رأيت ملامح جسده . . أين الذكاء أين النور أين لباقة المحامى القدير وأين عالم النفس والفنان . . أين الرقة والجمال . . أين حديث المدينة . . حلم البنات معبود السيدات . . الفتى الأول فى السينما . . العقل الذى قامت عليه وبه صناعة السينما فى مصر . . أين؟ هناك . .

وغضبت من د . خيرى سمره . ولكن وجدت له عذرًا . فهو طبيب قد رأى عشرات . . مئات من المرضى . . وكلهم ليسوا إلا أجهزة آدمية قد انكسرت أو فسدت . . إنه ميكانيكى سيارات وموتوسيكلات . . والناس جميعاً آلات . . وليس طبيعياً أن ينفعل ولا أن يبكى على مريض أو جريح أو ذبيح . . اعتاد على ذلك . . واعتاد ألا يكون لديه شعور خاص . . أو حتى شعور!

٩

ويوم زرت توفيق الحكيم فى مستشفى (المقاولون العرب) . . كان شاحبًا ولكن لا يزال توفيق الحكيم الذكى الظريف الفيلسوف يطل من وراء غشاء أصفر . . وكان حديث الحكيم عن الذى كان من عمره وعن الذى تبقى منه . . وعن الذين سبقوه من الأدباء والشعراء . . وعن نهاية كل شىء فى الدنيا . . وإنه دخل الدنيا كما خرج لا يفهم بالضبط ما الذى حدث . . ولا حتى الحكمة من ذلك . . وما قيمة إنه عاش ومات . . وإنه فى حياته كلها حاول أن يجعل معنى لشىء لا معنى له . . حاول أن يجعل لوجوده معنى ، وهو فى الحقيقة بلا معنى . .

وكانت تجلس معنا ابنته فاطمة . . وكان معها خطيبها وزوجها بعد ذلك . . ثم مد الحكيم يده إلى ظرف تحت المخدة . وأعطانى

كتاباً صغيراً . وقال لى : هذا كتاب نادر أنت وحدك الذى تستطيع أن تدرك قيمته . .

أما الكتاب فهو الجزء الثالث لمسرحية (فاوست) للشاعر الألمانى جيته . . وقد أصدر الشاعر الألمانى جيته مسرحية فاوست فى جزأين . . الأول انفرد به هو والجزء الثانى الغامض اشترك فيه مع الشاعر فريد ريش شيلر . . أما هذا الجزء الثالث فباللغة الفرنسية . لشاعر مصرى عاش فى الفيوم ويقول أنه الحفيد غير الشرعى للشاعر الألمانى جيته . .

ومن الصعب نشر الجزء الثالث لما فيه من الحاد صارخ . .

وقلبت فى الكتاب بسرعة . وقال لى : توفيق الحكيم . . أن هناك نسختين آخريين . . أحداهما عند فاطمة ابنتى . .

وكتبت مقالاً عن لقائى بتوفيق الحكيم وجاءت هذه العبارة : وخرج توفيق الحكيم من دورة المياه تتقدمه عصاه . . ويبدو أن هذا التعبير قد ضايقه . . فكتب لى خطاباً عاتباً على هذه القسوة فى التعبير . . وقال كلاماً خشناً . مع أننى لم أقصد إلا أنه كان يعتمد على عصاه . .

وزرته بعد ذلك فلم اعتذر له عن الذى قلت . . ولا وجدت لديه استعداداً لسماع شىء . . ولكنه بقى يقول ويحكى ويروى ويمتعنا بحكايات ونوادر وتواريخ . . إنه توفيق الحكيم الذى يمتعك إذا استمعت إليه . . حتى فى هذه الأيام العسيرة عليه الحزينة لنا . .

ثم زرته فى أيامه الأخيرة فى مستشفى (الصفا) . . وكان معى الفنان صلاح طاهر . . وحاولنا أن نداعبه وأن ندخل المرح عليه . . ونستدرجه إلى لياقته الفنية . . ولكنه كان هذه المرة قد غاب . . غاب نصفه أو أكثر من النصف . . ولم يبق من حيويته إلا القليل . . فالوجه قد ازداد اصفرارًا . ورغبته فى الكلام أقل وكذلك قدرته على الحوار وعلى متابعة ما يقال حوله وله . .

ولكن بقى توفيق الحكيم خفيف الدم . . وإن لم يكن ذلك ظاهرًا على وجهه . . فعندما سألته عن حالته الصحية قال : كلما سألت الطبيب قال لى إنى (زى الفل) . . فل إيه اللى جاى يقول لى عليه . . فل إيه وأنا غير قادر على أن أذهب إلى دورة المياة . . إنهم يأتون بدورة المياه إلى السرير . .

وضحكنا . ولكنه لم يكن قادرًا على الضحك .

وعندما زاره عدد من الأطباء . وأحس توفيق الحكيم بضوضاء وهمس وكلام حوله ولم يكن قادرًا على رؤيتهم سألنى : إيه الدوشة دى يا أنيس؟

قلت : الأطباء .

فقال : آه الجماعة بتوع الفل ؟!

وخرج الأطباء والتفت توفيق الحكيم يقول لنا : أنا منتظركم فى جهنم مع طه حسين والعقاد . . أوعوا تغيبوا . . أنا مستنيكم . . يا أنيس . .

- حاضر يا توفيق بيه .

- ماتغبش على .

- حاضر يا توفيق بك .

- وإذا حاول صلاح طاهر يهرب منك سيبه . . وتعال لوحدك . . أنا حاجز لك حته كويسه فى جهنم جنبى . .

وضحكنا . ولم يضحك . وكأنه قد انتقل إلى جهنم فعلاً لأنه كان يشير بيديه إلى مكان جواره على السرير . .

فكانها كانت نبوءة حيث دخلت أنا أيضًا الانعاش بعد ذلك . . وجاءوا إلى بدورة المياه فى السرير وتزاحم حول سريرى كل الجماعة بتوع الفل!

ويغيب توفيق الحكيم عن الوعى ثم يعود يقول لنا : أنا إذا ربنا سألنى إيه اللى عملت يا توفيق . . فسوف أقول له . . . إلخ .

ويعود يقول : نار إيه اللى أنا حادخلها . . إننى سوف أدخل الجنة . . فالله أعطانى عقلاً صغيرًا وعمرًا قصيراً وكوناً هائلاً . فكيف أفهم كل هذا الكون بهذا العقل الصغير والعمر القصير . . لابد أن أغلط . . والغلط سببه عجزى عن الفهم . . واعتقد أن هذا سبب كاف لأن ادخل الجنة . .

ثم يعود يقول : تبقى تعال على مهلك يا أنيس أنت لسة عندك كلام حلو . . أما صلاح طاهر فهو الذى سوف يسارع إلى جهنم لأن له أصدقاء كثيرين سوف يكونون فى انتظاره رجالاً ونساء أكثر .

ولا يضحك . .

وفى يوم سألنى الرئيس حسنى مبارك عن هذا الحوار الذى دار بينى وبين توفيق الحكيم فى أيامه الأخيرة وكنت قد رويته للدكتور أسامة الباز . . فأكدت للرئيس أنه قال كذا وكذا . . وكان أسف الرئيس حسنى مبارك عظيماً على ما يصيب المفكرين فى ساعاتهم الأخيرة!

١٠

وفى صباح ذلك اليوم الحزين ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ سألنى الرئيس السادات إن كنت سأشهد العرض العسكرى . فقلت : سافرغ من العدد القادم من مجلة (أكتوبر) ثم أذهب إلى ميت أبو الكوم لأصحبك بعد ذلك إلى (وادى الراحة) فى سيناء . .

ويبدو أن الرئيس كان يريدنى أن أذهب إلى المنصة لرؤية العرض العسكرى .

وحدث ما نعرفه . .

وسمعت أحد الحراس فى عربات الرئيس يقول لى في التليفون : أن الرئيس أصيب فى كتفه ونقل إلى مستشفى القوات المسلحة . .

وبسرعة جمعت سكرتارية التحرير . . وطلبت تأجيل نشر كل المقالات واستبعاد الإعلانات . . وقلت : سوف أكتب المجلة من

أولها لآخرها ، فليس لدى أحد ما عندى من المعلومات . .

واتجهت مباشرة إلى المستشفى . . وفى المستشفى وجدت نائب رئيس الجمهورية حسنى مبارك وقد ربط يده . فسألته : خير ياسيادة النائب . .

قال : ربنا يستر . .

ووجدت وزير الداخلية النبوى إسماعيل وسألته فقال : ربنا كبير . .

وقابلت الطبيب الصديق مصطفى المنيلاوى فقال : أن الرئيس من الناحية الطبية يعتبر قد مات . .

ووجدت السيدة جيهان السادات وقد ظهر عليها الحزن العميق والتماسك الشديد . . ووجدت ممدوح سالم رئيس الوزراء الأسبق منهاراً . . وكذلك د . زينب السبكى . . وقابلت د . عفيفى زوج ابنة الرئيس السادات . . وطلبت منه أن أرى الرئيس . . وذهبت . . وياليتنى ما ذهبت ولا رأيت . .

وكنت أظن أن الإصابة فى كتف الرئيس أو أعمق قليلا بعيدة عن القلب أو الرئتين . ووسط الممرضات اللاتى يبكين ومن لا أعرف ولا أرى بوضوح من الرجال . . ووجدت الرئيس . . بقاياه غارقه فى الدم . .

أنها صورة شنيعة : نهاية العظمة والشجاعة وبعد النظر . . نهاية الكفاح الوطنى والصراع الدولى . . نهاية كل شىء باهر فى الدنيا . .

هكذا كانت ولادتى

ولدت وملعقة أقلب بها الدواء فى يدى . .

ولدت وأنا اسمع : آه . . وربنا الشافى . . وإذا مرضت فهو يشفينى . . والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . . فأغشيناهم فهم لايبصرون . . مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها . . والطبيب والحكيم والممرضة والأجزاخانة . . ومرة بعد الأكل ومرة قبل الأكل . .

وأينما تلفتت فهناك زجاجات الأدوية . . أمسكها أو تسقط من يدى . . أو اتطلع إليها بخوف من مرارتها ولسعتها . . وأن الصحة والعافية والعمر الطويل محبوس فى كل هذه الزجاجات وهذه الحقن . . ولا نستطيع أن نقترب منها . . واحد فقط هو الذى يفعل ذلك . . نبحث عنه وننتظره . . أنه الطبيب . . ويكون نحيفاً ويكون

بكرش . . ويكون خشناً ويكون رقيقاً . . وليس محبوباً . . وإنما ننظر إليه كأنه هو المرض . . أو الذى يستطيع أن يأخذ المرض وأن يعيده إلينا . . ولذلك فهو يطلب أدوية جديدة ويكتب أسماء كثيرة . . ونظل نجرى من أجزاخانة إلى أخرى . . حتى لايسبقنا الموت إلى مرضانا . . وتكون غلطتنا دائما وليست غلطة الطبيب . . فالطبيب لا يخطىء . .

ولدت فى خوف . . من أشياء كثيرة . . ليس المرض وحده وليس الموت وحده . . الخوف أن تمرض أمى وتموت . . الخوف ألا أكمل دراستى . . الخوف إلا أكون الأول دائماً . . والخوف أن تنتهى الدراسة ولا أعرف أين أذهب . . أو ما الذى يمكن أن أعمله بهذه الدراسة . . الخوف أن يتناقص أصدقائى أكثر فأكثر . . فكلما تفوقت نقص عدد الزملاء والأصدقاء . . ولا أعرف السبب . . ولا أعرف لماذا أبدو غريباً . . أبدو لزملائى غريباً . . لماذا لايصدقوننى إذا قلت : أننى لم أذاكر إلا ساعة أو ساعتين . .

وينظرون إلى عينى الحمراوين وهالات سوداء حولهما وشحوب فى الوجه وضعف عام . ويرون أننى أذاكر ليلاً ونهاراً . ولايعرفون ما الذى أفعله بالنهار ، ولا كيف يجىء الليل ولا أعرف أن كان قد جاء أو ذهب . . هم نائمون وأنا على حافة النوم على الأرض أمام سرير أمى . . أو على حافة سريرها حتى إذا توجعت صحوت اسألها : ماذا تريدين . . وهى لاتريد شيئا وإنما هى تقول : آه . . ولا تضع يدها على مكان الألم . . تقول وعيناها تصرخان وتكتم دموعها حتى لا أبكى أنا الآخر . . وكلانا يلتقى عند نقطة الحيرة

والقلق والأرق والخوف من الذى لانعرف أين هو . . ولماذا جاء ومتى يرحل . . ونحن نمطره بالأدوية ونرميه بالأقراص والبرشام ونشكه بالأبر ونحاصره بالأطباء والحكيمات . .

حتى أصبحت أنظر إلى الناس كأنهم زجاجات أدوية . . قصيرة وطويلة . . وبيضاء وخضراء وفارغة ومليانه . . وكثيرا ما رأيت الشارع من أوله لآخره قد امتلأ بزجاجات تسعى على قدمين من المستشفيات إلى المرضى . . من الأجزاخانات وكثيرا ما تعمدت أن أدخل بيوت زملائى وعينى على غرف النوم لأرى زجاجات الأدوية فلا أجدها . . وكثيراً ما سألت إن كانوا يخفونها تحت السرير . . وكان الضحك هو الجواب عن تساؤلاتى . . ولم أقل أبدا : ولماذا أنا وحدى . . لم أقلها . . ولكن أحسستها بعمق . . وكنت أرد عليها بسؤال آخر : ولماذا أنت متفوق عليهم ؟ فهل المرض شرط التفوق ؟

أى أن الذى يضاف إلى حسابى يخصمه القدر من حساب أمى . . ألا يمكن أن يكون الإنسان متفوقاً وأمه فى صحة وأبوه فى عافية . . كنت أحب الجلوس إلى أحد الزملاء وكان متفوقاً هو أيضاً . وكان أكثر منى مرحاً . . وكنت أنظر إلى عينيه . . لقد نام طويلاً وبعمق فلا يوجد أحمرار فى عينيه ولا هالات حولهما . . ووجهة أحمر وردى وإذا ضحك فمن قلبه وإذا تكلم فبأعلى صوته وإذا مشى يدك الأرض وإذا أراد العودة إلى البيت جاءته سيارة وفى الصباح يأكل سندوتشاً مليئاً بالفول وأحياناً اثنين . . ووجدته

فى احـدى المرات يدخن . . ووجـدته يضع الفلوس فى جـيب الجاكتـه وأحـيـاناً فى جيب البنطلون . . وأينمـا وضع يده أخـرج فلوساً . . كنت أرى ذلك أعجوبة . . ثم أنه متفوق . . واستدرجت نفسى حتى ذهبت أراه فى بيته الجميل . وفتحت الباب سيدة . . صـبيـة حلوة الوجـه والصـوت وتهللت وقـالـت : أهلاً يا ابنى . . اتفضل . .

وظللت بعض الوقت أظنها أختـه . . وفـوجـئت بأنهـا أمـة . . صحـة وعافـية وجمـال وشـباب وحـيوية . . فـقلت لها فى إحدى المرات بمنتهى حسن النية : حـمـداً لله على سلامتك يا طانط . . حضرتك كنت عيانه؟

فقالت منزعجه وضاحكة فى نفس الوقت : أبداً يا ابنى . . أنا زى البمب قدامك . . مين اللى قال لك أننى عيانة . .

فرددت : مش عارف مين . .

فـقـالت : وأنت الصـادق يا ابنى . . العـيـانه كـانت البنت زهره الخادمة . . والحمد لله كويسه قوى دلوقت!

إذن أمـه لـيـست مـريضـة . . وكـيـف تمرض إذا كـانت عندها خادمة . والخادمة عندما مرضت لم تشغل أحداً عن المذاكرة ولا أن يقف الليل والنهار يتساند على المقاعد والجدران لانقاذ مرض أعـز الناس . . ولم يكن عندى وقت للتـفكيـر . . ولا أعـرف حتى معنى أن يفكر الإنسان . . فـأنا فى حالة انتظار سلبى . . مـفـتوح

العينين ولا أرى ، والأذنين ولا أسمع . . مفتوح اليدين أرفعهما وأتوسل إلى الله ولا مجيب . . ولم ترد على لسانى كلمة القضاء ولا القدر فأنا لا أردد مثل هذه الكلمات . . ولا أعرف قدر من وقضاء من على من . . أننى فى حالة لا هى يقظة ولا هى نوم . . لا هو وعى ولا هى دوخة . . ولا حالة وجود ولا حالة عدم . . وإنما حالة حيوانية . . ليست فيها إنسانية من أى نوع . . مثل كلبى . . النائم تحت السرير والذى يبدو حزيناً مع أنه لايعرف ولا يفهم وليس مفروضاً أن يعرف فيحزن أو يفهم فيلقى بنفسه فى النيل ـ كما حاولت أنا أكثر من مرة !

ولدت مظلوماً . ولا أعرف لماذا !

ولا حتى معنى الظلم . ولا من الظالم . ولكنى هكذا أنا محصور . . محاصر . . مخنوق . . متجمد . . متصلب . . متحجر . لماذا؟ لا أعرف ولم يقل لى أحد معنى هذا الذى أحاول أن أفهمه . . مجرد محاولة . .

هل هذا هو العجز ؟ نعم . .

هل هذا هو اليأس ؟ نعم .

هل هذا هو الضياع ؟ نعم .

هل هذا هو أسوأ ما فى الحياة ؟ نعم .

هل هذه طفولة ؟ لا . . .

هل هذه هى الحضانة التى تولد فيها الموهبة وتنمو فيها قدرات الإنسان على أن يقول أو يفعل أو يفكر أو يكون شيئاً آخر؟ لا . .

هل هذه (بيئة التشاؤم) من كل شيء ومن كل أحد . ومن كل يوم ومن كل غد ومن كل حياة؟ هل هذه الحياة التى على شكل سوائل فى زجاجات هى الحياة ؟ هل دنيا الأطباء والممرضات والحكيمات والأجزاخانات والدموع والتضرعات والصلوات والخالات والعمات والجارات وكلب ينبح تحت السرير . . وأناس يرقصون ويصفقون ويغنون فى الأدوار العليا ليؤكدوا لنا أننا غيرهم ، وأنه يستحيل أن نكون مثلهم . . وأن هذه هى دنياهم وهذه هى دنيانا . . وأنه لا داعى لأن نقفل النوافذ والأبواب . . وإنما نترك سعادتهم تدخل من الباب والشباك دليلاً على أن الذى عندهم هو الذى ينقصنا ، والذى أسعدهم هو الذى أشقانا . . هم هكذا ونحن كذلك . . هل هذا عدل؟ لا . . هل هذا ظلم؟ نعم . . أنه الذى لا أعرف اسمه . . ولكن عرفت فيما بعد أنه القدر . . أنه النصيب . . أنه المكتوب . . لماذا ؟ لا أعرف . فقط أستطيع أن أكتب كلمة (لماذا) بحروف طويلة حتى آخر ذراعى . . وأستطيع أن أكتبها على الأرض وعلى الجدران وفى الهواء وفى السماء وليس الجواب عندى . . ولن أجده فى أى يوم!

ولدت مثل علامة استفهام . . تحولت إلى علامة تعجب . . إلى غابة من علامات الاستفهام والتعجب . . هل أنا محظوظ؟ لا . . هل أنا شقى لأننى سألت وتساءلت ولم أفز بجواب؟ ولكن من الذى فاز بجواب . . أى جواب عن أى شيء . ما الذى هو أقرب لى؟ ليس الشاطيء . . فأنا غريق إلا قليلاً . . قتيل إلا قليلاً . . عليل إلا قليلاً . . ميت؟ حى؟ . . لا ميت ولا حى . . فما هذا

الذى أنا فيه . . نحن فيه . . ظللنا فيه . .

ولدت والآه طويلة وقصيرة ذليلة وغاضبة وضارعةوباكية تدخل أذنى وتشعل النار فى رأسى وتمزق قلبى . . فلا تنزل من عينى دمعة واحدة . . صحيح . لماذا لا أبكى مثل أمى . . صحيح أين دموعى . . أننى أبكى ودموعى تنساب داخلى . . أو تتوارى لتخرج بعد ذلك من قلبى . . كم تمنيت أن أجارى أمى فى بكائها . . ولم أستطع . . كم تمنيت أن أبكى عليها مرة واحدة . . هى استراحت ولعلى أستريح . . كم تمنيت أن تموت أمى قبلى ، حتى لاتتعذب من بعدى . . مع أننى فى ذلك الوقت : ليس لى قبل ولا بعد . . واحمد الله أنها ماتت قبلى . . ولكن أمى لم تمت فهى ماتزال تعيش فى أعماقى . . أحملها فى جسدى وأرفض أن أدفنها . . وأرفض أن أهيل عليها تراب النسيان . . فكم تمنيت لو أننى أعطيتها كل ما عندى . . ولم يكن عندى إلا القليل . . كم تمنيت أن أرى دموعها وهى تضحك . . وقد رأيت ذلك مرة أو مرتين فى حياتنا . . كم تمنيت ذلك . .



قولى لى يا خالتى : لماذا أمى مريضة ؟

- والله يا ابنى حكمة ربنا .

- وأنت لماذا لست مريضة يا خالتى ؟

- حكمة ربنا يا أبنى !

- وجدى ليس مريضاً ؟

ـ حكمة ربنا .

ـ وجدى وخالى وخالاتى وعماتى وأولادهم ليسوا مرضى . لماذا يا خالتى؟

ـ يا أبنى ماذا أقول لك . . أنها حكمة ربنا !

ولم أفهم معنى حكمة ربنا . . ولا عرفت أين هى . . ولماذا تختصنا حكمة ربنا بالمرض وغيرنا بالصحة والسعادة والطبل والزمر والرقص والبهجة . .

□ □ □

ـ قل لى يا عمى لماذا أبى مريض ؟

ـ مشيئة الله يا ولدى . .

ـ وهل أنت مريض ؟

ـ كنت مريضا .

والآن ؟

ـ لقد أصبحت فى صحة جيدة بمشيئة الله .

ـ القرآن ماذا يقول يا عمى .

ـ يقول كل نفس ذائقة الموت ويقول : إنما يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . . ويقول : يعطى من يشاء بغير حساب . .

ـ فماذا أعطاك يا عمى ؟

ـ الصحة والستر . .

ـ فما هو الستر يا عمى ؟

ـ الستـر يا ابنى إذا مـرض الانسـان أن يجـد الدواء وإذا وجـد الدواء أن يجـد الطبـيب وإذا جاء الطبيب جاءت الصـحة بمشيئة الله .

ـ ما هى مشيئة الله ؟

ـ ما يريده الله .

ـ لماذا يريد لك الصحة ولأبى المرض ؟

ـ مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

فقلت له : يا عمى وكيف تتغيـر مشيئة الله . . فيشـاء لأبى وأمي الصحة بدلاً من المرض . . والنوم بدلاً من الأرق . . والبهجة بدلاً من الخوف فيكون فى بيتنا نور أكثر . . وروائح غير العقاقير . . وزوار غيـر المرضين والممرضات والدكاترة . . وصلوات أن يخـفف عنا بدلا من أن يقـصف أعـمارنا ونسـتـريح . . كـيف؟ أننا نصلى وندعــو وأبى يبـكى وأمى تتــوسل . . وأنا دائخ . . وأذهب إلى المدرسـة نائمـاً أو كـالنـائم وأعـود إلى البـيت مـسـرعـاً كـأننى منوم مغناطيسياً لا أرى أحداً فى الشارع ولا الشارع ولا أى بيت . . ولا كـيف عدت إلى البـيت . . وإذا عدت إلى البـيت فـإننى لا أعـرف كيف ولا متى تركته . .

ـ نحن لا نملك أن نغير مشيئة الله .

ـ فما الذى نملكه ؟

ـ أن ندعو الله .

ـ ونحن ندعوه كل يوم . .

ـ لابد أن يستجيب .

ـ ولكنه حتى الآن لم يستجب !

ـ سوف يستجيب .

ـ متى ؟

ـ أن شاء الله . .

❑ ❑ ❑

ـ قل لى يا دكتور ؟

ـ متى يتم الشفاء ؟

ـ قريباً . .

ـ متى يشفيها الله ؟

ـ إذا داومت على هذا الدواء ولزمت الفراش . .

ـ ولكنها لم تفعل غير ذلك .

ـ الشفاء يحتاج إلى وقت .

ـ كم يطول هذا الوقت . .

ـ شهوراً .

ـ ولكنها مريضة من سنوات .

ـ ولكنى لا أعرفها إلا من شهور . .

ـ لقد كان قبلك أطباء كثيرون .

ـ ربما لم يحسنوا التشخيص والعلاج . .

ـ وأنت عرفت الداء .

ـ نعم .

ـ إذن سوف يجىء الشفاء . متى ؟

ـ أن شاء الله .

ـ ومتى يشاء الله .

ـ هذا فى علم الغيب .

ـ إذا كان فى علم الغيب فكيف عرفت يا دكتور . .

ـ والله لا أعرف .

ـ . . . .

❑ ❑ ❑

ـ قولى لى يا خالتى أم إبراهيم .

ـ والله يا ولد عين وصابتكم .

ـ يعنى إيه .

ـ الحسد ؟

ـ يعنى إيه . .

ـ يعى الناس يحسدون أمك على أنك ابنها المتفوق الذى يطلع الأول فى المدرسة . .

ـ أن هناك كثيرين ترتيبهم الأول مثلى فى كل الفصول . . ولم

أجد واحداً منهم أمة مريضة . . فلماذا لم يحسدهم الناس فتمرض أمهاتهم وآباؤهم . . وكلابهم . . أن كلبى مريض تحت السرير يرفض الطعام . . وسوف يموت . .

ـ فيه ناس يا أبنى يتأثرون بالحسد . . وأناس لايصيبهم الحسد . .

ـ ولماذا يصيبنا الحسد يا خالتى أم إبراهيم . . ابنك إبراهيم يا خالتى أم إبراهيم ترتيبه الأول فلماذا لم يحسدك الناس ؟

ـ حيحسدونا على إيه يا أبنى . . أنا شغاله فى كل بيت شويه . . وبعد وفاة المرحوم أبو إبراهيم فأنا الأب والأم . . وإبراهيم ابنى قاعد يذاكر يا ولداه ليل نهار . . حيحسدونا على إيه يا ابنى .

ـ . . . .

□ □ □

قل لى يا فتحى ـ وهو ابن الطبيب الذى يعالج والدتى ـ هل سمعت من والدك أن ماما ستموت قريباً ؟

ـ لا !

ـ هل عرفت منه لماذا لا تنفع معاها كل هذه الأدوية ؟

ـ لا . . . .

ـ هل أبوك لا يحدثكم عن المرضى الذين يعالجهم فى العيادة وفى المستشفى . .

ـ لا يتكلم عن الذى يعمله . .

ـ ولا يقول لوالدتك . .

ـ يجوز ولكنى لاأعرف . .

ـ ولا يذكرنى . .

ـ مرة أو مرتين يقول أنك تسأله أسئلة فلسفية . .

ـ ولم يقل لك ما هى هذه الأسئلة .

ـ لا . . فما الذى كنت تسأل عنه ؟ عن أى شىء . .

ـ ليست أسئلة فلسفية . . وإنما أنا أسأله عن جدوى العلاج . . وهل هناك أمل . . وهل أمى ستظل مريضةً حتى الموت . . أو أنها سوف تموت وبذلك ينتهى المرض . . هذه كل تساؤلاتى . .

ـ عندى فكرة . لماذا لا تسأل ماما .

ـ يا ريت . .

وجاءت أمة السيدة أمانى . . حلوة أنيقة رشيقة ضاحكة واقتربت منى أكثر ووضعت يدها على كتفى . . وعلى خدى . . وقربتنى منها أكثر وأكثر حتى خيل إلى أنها سوف تحتضنى وتمنيت لو فعلت . . فما أحوج طفولتى إلى كثير من مثل ذلك . . قلت لها : يا طانط هل الدكتور قال أن ماما سوف تموت . .

ـ تموت ؟ لا يا ابنى من قال لك كده ؟

ـ سمعت . .

ـ من الذى قال لك . . غير صحيح يا ابنى بالمرة . وإنما هو متأثر جداً من كلامك معه . وهو يحكى لكل الناس أنك فى غاية

الذكـاء . . وأنك فيلسـوف صـغـيـر . . وأن أسـئلتك أكـبـر من سن واحد عنده ١٥ سنة . . وأنه شخصياً لم يعرف كيف يرد عليك . . هذا كل ما قاله . .

ـ يعنى أمى لن تموت ؟

ـ أن شاء الله لن تموت . .

ـ أن شاء الله لن تموت هذا العام . . فهل العام القادم . .

ـ الأعـمـار بيد الله يا ابنى . آمنت بالله . . الدكـتـور يقـول لى : أنها تحسنت كثيراً جداً . .

ـ كيف رآها تحسنت .

ـ هو الذى يقول يا ابنى .

ـ ولكـن يا طانط . . لم يظهـر عليـهـا أى تحـسن . . فـهى تمضى النهـار والليل فى الفـراش . . وتكتم الآهة إذا وجـدتنى أذاكـر . . ولكنى أسـمعها تحت اللحاف . . أسـمعـها حتى لو لم تقل آه . . أذكر فى أحدى المرات سمعتها تقول : آه . . فقفزت إلى السرير أرى ماذا تريد . . فلم أجدها . . لقد كانت فى دورة المياه . . ولكن أؤكد لك يا طانط أننى سـمـعت الآهة تخرج من تحت اللحاف . . ولم أكن نائما . . الآه فى أذنى دائماً . . لا أسمع غيرها . . تعرفى يا طانط والله العظيم حتى عندما يتكلم زملائى . . أو المدرس فى الفـصل . . فـالآه هى الصـوت الوحـيـد الأقـوى . . وكل الأصـوات شـوشـرة . . صـدى . . آه يا طانط لو كـانت هناك طريقـة لإخـراج الآهات المحبوسة فى أذنى المخنوقة فى صدرى . . ولكن لا أعـرف شـيـئـاً . . ولا أفـهم . . ولا أعـرف مـعنى أى شىء ولا نهـاية ولا

بداية . . ولا معنى لكل الدواء والمرض والأمل واليأس والطعام والشراب والتنفس . . قولى لى يا طانط . . إيه الفرق بين القبر وبين غرفة النوم . . ما الفرق بين الميت الذى يحاسبونه . . والحى الذى يتعذب بغير حساب . . وهل الموت يجىء بعد الحياة أو الموت أثناء الحياة . . والله يا طانط أننى فى حيرة . . وأنا حزين لأن مثل هذه الأفكار شغلتنى كثيراً عن الاهتمام بأمى . . وكم مرة سقط الدواء من يدى . . وكم مرة تركت وابور الجاز مشتعلا حتى نفد وقوده . . والله يا طانط أصبحت يدى ترتعش من شدة الخوف أن تسقط الأدوية والحقن . . وليست يدى ألا رد فعل لفكرى . . فكل شىء يرتعش أمامى وفى داخلى . . وكل شىء مر . . شديد المرارة . . أن اللوحة التى أشارك فى رسمها سوداء . . أن المسرحية التى أشارك فيها بالأداء مأساة . . أن مأساة حياتنا ممتدة ليلاً ونهاراً . . العرض مستمر . . ونحن الممثلون وليس لنا جمهور . . ولذلك نؤدى أدوارنا على المسرح ثم نقفز إلى مقاعد المتفرجين نشاهد خيبة أملنا فى أى شىء وأى أحد . . أننى لست فى حاجة إلى طبيب يا طانط . . أننا فى حاجة إلى حانوطى . . أى إلى واحد مخرج . . يخرجنا من هذه الدنيا إلى الآخرة . . فهمت يا طانط ما يسميه الدكتور فلسفة . . ليست فلسفة . . فالفلسفة تعبير رقيق رفيع المستوى . . أن حالنا ومآلنا أحط من ذلك كثيراً جداً . .

ـ يا ابنى (وقد ضمتنى إليها بشدة وحرارة ورفعت رأسى ألمح دموعا فى عينيها . وبكت وهى تقول لى) : أنت رحت لحد فين يا ابنى . . رحت لحد فين . . كيف لم يقل ابنى شيئاً عن كل ذلك . . كيف لم يقل الدكتور شيئاً فأذهب إلى أمك وأراها واسأل عنها . . يا ابنى سلامتك . والله يكون فى عونك . .

- . . . .

☐ ☐ ☐

جاءت خالتى وواحدة أخرى وثالثة رأيتها كثيراً لا أعرف من هى ودارت أحاديث كثيرة . لعل الغرض منها أن تتسلى أمى وأن يشغلنها فلا تقول : آه . .

وفجأة وجدت أمى اعتدلت بقوة فى فراشها ، وقفز الدم كله إلى وجهها الجميل ولا أعرف من أين جاء ولا كيف هذا الغضب فى عينيها ولا هذه القوة فى صوتها ، ولا كيف تحولت أصابعها إلى مخالب ولا كيف استردت شبابها وحيويتها فى لحظة عندما سمعت واحدة تقول : وإيه لازمة المدرسة . . كفاية كده . . لماذا لا يجلس إلى جوار أمه حتى يا خد ربنا بيدها وتقوم بالسلامة !

الله . . الله . . لو استمرت هذه اللحظة الرائعة . . الله لو بقيت أمى بكل ألوانها وحيويتها وحلاوتها . . ساعة واحدة يا رب . . بلاش يوماً أو سنة . . ساعة واحدة أراها وأموت بعدها سعيداً شاكراً لك فضلك ونعمتك . .

وفزعت السيدات من عصبية أمى . .

وأشارت أمى إلى أن أخرج من الغرفة . ولا أعرف ما الذى قالته فى ذلك اليوم . ولكن قد سمعت مثل ذلك كثيراً . فأمى تريدنى أن أكون شيئاً هاماً . . وأهم واحد فى حياتها وفى أسرتها . . مهما تعدد فيها القضاة والمهندسون والأطباء والوزراء . .



سألت الممرضة التى تعطى أمى الحقن : أريد أن أتعلم كيف أعطى الحقنة لأمى . . فهى تحتاجها فى ساعات الليل الصغيرة ولا نعرف كيف نعثر عليك . .

ـ صعب يا ابنى .

ـ علمينى يا خالتى أم متولى .

ـ وحياة متولى أخاف عليك . . فأمك عندها مشكلة يا ابنى . . من الصعب أن أجد عروقها . .

ـ يعنى إيه ؟

ـ الحقنة لابد أن ندخلها فى عرق . . حتى يدخل الدواء إلى الدم ويمشى فى الجسم كله . . ولذلك أنا أتعب فى العثور على عرق .

ـ مش فاهم . .

ـ هات يدك . . عروقك واضحة . .

ـ يعنى أنا الذى لا آخذ الحقن عروقى واضحة ، وأمى التى تأخذ الحقن ليست لها عروق . .

ـ بعد الشر عنك يا ابنى . . صعب أن تتعلم يا ابنى . . فأنا وجدت صعوبة حتى تعلمت . . وأنت إذا كنت خائفاً على أمك بهذا الشكل لا تستطيع أن تعطيها الحقنة . . حتى الدكاترة لايحبون أن يعطوا الحقن لأولادهم . . أنهم يخافون أن يغلطوا أو لايحبون أن يروا أولادهم يتألمون . .

ـ هل أنت تعطين الحقن لأمى فقط . .

ـ لا . . هناك كثيرون يا ابنى . .

ـ ولكن لا توجد أم أحد من زملائى مريضة .

ـ مين قال لك ذلك . . زميلك إسماعيل . . أمة عيانه . . زميلك عبد الفتاح أمة بعافية . . وشوقى . . وعزيز . . وأم نادية جارتكم مريضة . .

ـ ولكن إسماعيل أنكر أن تكون أمه مريضة !

ـ لا أمه عيانه جداً يا ابنى . . وربنا يشفيها ويرحمها ويرحمنا . .

ـ يرحمها ازاى ؟

ـ الأعمار بيد الله يا ابنى . . الدكتور بيقول أنها يمكن تموت اليوم أو غداً . .

ـ من هو الدكتور؟ هل هو الذى يعالج أمى ؟

ـ لا يا ابنى واحد آخر . . لأن مرض أمك مختلف عن مرض أم إسماعيل . .

ـ ما هو مرض أمى ؟

ـ الدكتور مرة يقول الكبد . . ومرة يقول المعدة . . ومرة يقول المصارين . .

ـ وأم إسماعيل عندها إيه ؟

ـ يا ابنى عندها سكر وحاجات ثانية . . وهى فى الأيام الأخيرة رفضت تأخذ الدواء . . ودى حال بتحصل للعيان قبل ما يموت . . كأنه عارف أنه سوف يموت فيمتنع عن الطعام والشراب والدواء . .

ـ الحمد لله ماما لا ترفض لا الطعام ولا الشراب ولا الدواء . . الحمد لله . .

ـ ربنا يخليها لك يا ابنى !

الذين رحلوا !

١

- . . . .

- . . . .

- . . . .

ووجدتنى فى بهو . . فى حديقة . . والجو بارد والناس فى ملابس بيضاء . . ثم أننى وجدتنى أقول بالفرنسية : لا بأس . . أحسن كثيراً جداً . .

ولكن من الغريب أن الناس كلهم بالجلاليب . . والسيدات بالجلاليب . . ماهذا . . ما الذى أرى . . أين أنا . .

وبمجهود عقلى أو عضلى أو عصبى كبير وجدتنى فى مستشفى (هوتل ديو) فى باريس . . وقد عادت كل صورالماضى الحزين أحاديث حية إلى ذاكرتى وخيالى . .

وكأنه لم تمض ستون عاماً على تلك الأحداث التى قفزت من ذاكرتى أو من خيالى . . ولا أعرف كيف ارتبط الماضى بالحاضر . .

ولا كيف أن مرض أمى كان أقوى من مرضى . . مرضها البعيد أقوى وأكثر الأليمة حيوية من مرضى أنا القريب . . فقد استطاعت ذكراها أن تفرض نفسها على واقعى وأن تكون أقوى . . فهى التى جعلتنى اتحدث إلى خالاتى وجاراتى . . مع أننى هنا فى باريس جالس وحدى . . وكلما حاولت أن أفهم الذى حولى أرتد إلى الوراء بعيداً يوم كنت واقفاً أمام سرير أمى . . مريض مثلها . . أو مريض لمرضها . . هى راضية بمرضها ولست راضياً ، هى مستسلمة للقضاء والقدر ، ولست مستسلما ولا فاهماً ولا قادراً على فهم شىء . . ولا أحد قادر أن يجعلنى أفهم أى شىء .

من قال أن الماضى مضى . . أن الماضى يعود . . الماضى ليس ماضياً . . أنه لايمضى ألا ليعود أقوى . لقد كان الماضى لغزاً . . فأصبح الماضى تساؤلا . . أن كل علامات التعجب تتراقص أمامى علامات استفهام كالأفاعى . . وكأننى ساحر هندى أزمر لها فترقص . . وأرضى برقصها بديلاً عن لدغها . . فهى حياة من ورق . . خيال الظل . . كأن أوهامى خرجت ليكون لها حكم ذاتى بعيدا عنى . . وأنا اتفرج عليها كما كانت فى الماضى وكما عادت فى الحاضر . .

شىء غـــريب أن يكون كل هذا الذى قلت والذى رويت لم يحدث اليوم . . كل ذلك قد عاد فيلماً قديماً أبيض وأسود بينما الحاضر كله بالألوان وبالفرنسية . .

شىء غريب أن أكون هكذا عاجزا عن عمل شىء . . شىء غريب أن أكون مسرحاً لصور وأحداث وأشباح وأشخاص وآراء . . كلها تظهر وتتراءى ولا دخل لى فيها . . إلى هذه الدرجة أنا مريض . . إلى هذه الدرجة أنا ورقة بيضاء تجرى عليها أقلام تروح وتجىء . . كأنها ليست أقلامى وليست أفكارى وليست همومى . . كيف ؟

كيف اتخذت الزجاجات أشكال البشر . . كيف اتخذ البشر شكل الضباب . . كيف السحاب فى السماء يتساقط على الأرض أشباحاً تروح وتجىء . . كم مضى من الوقت . . كم واحدا رآنى أحدث نفسى . . وكم سمعونى أقول . . مرة بلسانى ومرة بلسان قريباتى والممرضة والطبيب وزملاء الدراسة . . كأننى أحد الوسطاء فى جلسة تحضير الأرواح . . أنا وحدى الذى يقول والناس حولى فى ذهول . . فصوتى ليس صوتى . . ليس كلامى . . كيف اتحول وحدى إلى برج بابل . . زحام شديد وضوضاء أشد . . كيف ينحشر كل ذلك فى حنجرتى . . كيف يخرج كل ذلك من عينى وأذنى وإذا كان هذا مرض أمى . . وهذا مرضى . . فأين المريض . . أمى التى ماتت أو أنا الذى ما أزال حياً . . هل أنا أحياء لذكرى أمى بالصوت والصورة . . هل لا نهاية لما كان وهل لا بداية لما هو كائن . . وإذا كان الماضى حياً فأين هو الحاضر . . وإذا كان الحاضر قد توارى كأنه ماض . . فأين أنا ومن أنا . .

ـ هات يدك . . هات يدك (بالفرنسية) هات يدك (بالانجليزية) . . أنت ؟ أنت !

وانتشلت نفسى من كل هذا ورفعت رأس غريق . . لقد كان الطبيب الفرنسى هو الذى مد يده . . رأيته بوضوح . . ومن ورائه الأزهار والورود والطرقات الرخامية وبعض الطيور . . وعدد قليل من المرضى جالسين هناك بعيداً . . وكانت يده أكثر بياضاً من البالطو الذى يرتديه . . وكان السحاب وراءه أبيض . . ألوان من البياض . . درجات من الفل والياسمين . . ومددت يدى . . ورفعنى . . وسحبنى وتساندت عليه . . وأجلسنى على مقعد بعجلات . . ونظرت إليه . . ونظر . . ولم يقل شيئاً ولم أجد ما أقوله . . لقد استدرجنى إلى الحاضر .

. . إلى الممرات إلى غرف صغيرة . . إلى سريرى . . وفى يده كوب ماء وأقراص . . وبلعتها واستدرت . . ونمت . .

. . ورأيت فى نومى أننى أمشى عارى الصدر حافى القدمين وارتدى جلباباً واسعاً . وكلما رأيت الريح تهز الأشجار وضعت يدى على صدرى . . وحاولت أن أزرر الجلباب ، فلا أجد له زراير . . وفى دهشة كيف لا أخاف الهواء . . وادهشنى أكثر أننى لا أرتدى تحت الجلباب شيئا . . ثم أننى أمشى على الصخور المدببة . . ولاحظت أن شعرى يتدلى على كتفى . . وأمشى رافعا ًرأسى إلى فوق . . وأمشى وكان ورائى أناساً . . ولا أقف وسط الشارع وإنما على الناصية . . على النواصى دائماً . . وأشير إلى الناس أن يجلسوا وأظل أنا واقفا . ومن الغريب أن أحداً لا يقول شيئا . . ثم أننى أيضاً لا أتكلم . . وإنما فقط أشير إلى الناس أن تجلس وأن تقف . .

ومن الغريب أنهم يفعلون وبدلاً من أن اسألهم كما كان يفعل أستاذنا سقراط . . اسأل واسأل . . وأجيب وأجيب . . لقد كنت وحدى الذى اسأل وأنا وحدى الذى يجيب . هكذا :

- من أنا

وأرد : واحد .

- ومن هؤلاء الناس . .

- لا أعرف اسألهم أنت .

- من أنتم .

- من أنت أولا . .

- ما الذى أتى بكم هنا .

- وما الذى أتى بك أنت فى أثينا . .

- فى أثينا ؟ .

- نعم .

- هل أنا سقراط .

- أنت الذى تقول ذلك . وماذا تريد يا سقراط . .

- أريد أن أعرف ما هذا الذى يحدث ؟ .

- يحدث أين ؟

- هنا فى داخلى . .

- قل لنا أنت . .

- أنا العوبه الزمن . . فلا أنا ماضٍ لا يعود ولا أنا حاضر ولا أنا

مستقبل سوف يجىء . .

ـ يعنى ليس لك ماض ولا حاضر ولا مستقبل ؟

ـ نعم .

ـ إذن أنت الأبدية . .

ـ أنا ؟

ـ كلامك معناه ذلك .

ـ إنسان أبدى ؟!

ـ أنت الذى تقول .

ـ أنا لا أقصد أنا . . وإنما أقصد حالى . . فكرى . قلقى . . همومى . . أنها ممتدة من حيث لا أعرف أين وإلى حيث لا أعرف أين . .

ـ يعنى إيه ؟

ـ المعنى هو الذى أتى بى هنا .

ـ لعلك تجد سقراط لكى تسأله ؟

ـ ربما .

ـ هل من الضرورى أن يكون هناك سقراط فى كل زمان ومكان . . أليس لك رأى . . عقل .

ـ لى . .

ـ فلماذا لاتعتمد على عقلك ورأيك . . وتوافق أو تخالف سقراط . . فسقراط لايعرف حالك . . إنما هو يعرف أحوال كل الناس . . وليس أحوال واحد فقط مختلف عن كثير من الناس . .

- وهل أنا مختلف إلى هذه الدرجة .

- يبدو ذلك . .

- والحل ؟

- أنت المشكلة وأنت الحل ؟

- يعنى أسكت . . وأنطوى وأنزوى وأبحث لنفسى عن نفسٍ أخرى . . ولعقلى عن عقل آخر . . ولحوارى عن أناس آخرين . .

- ولكن أحدا لم يحاورك . . وإنما أنت تتخيل كل شىء حولك والسبب هو هذه العقاقير التى تأخذها . .

- يعنى هؤلاء الناسْ ليس لهم وجود . .

- نعم .

- وكيف أتصور ذلك ؟

- أنت تتصور أشياء كثيرة لا وجود لها .

- مثل ماذا ؟

- مثل أنك المريض الوحيد فى الدنيا . . وأن مرضك مشكلة كونية . . مع أن المستشفى به ألف واحد من كل لون ونوع . .

- وهل أنا فى مستشفى ؟

- نعم . .

- ولا أحد غيرى . . لا أحد حولى . . إذن أنا أهلوس ؟

- نعم .

- أهلوس ؟! هذيان ؟

- يبدو ذلك . .

- هذيان منطقى فلسفى !

- أنت الذى تقول أنه فلسفى .

- هو بالفعل . . .

- إذن كل حوار فلسفى هو هذيان ، وكل هذيان هو منطقى . . إذن فسقراط هو أعظم مخرف فى التاريخ . .

ولو كنت أيقنت لحظة واحدة أن الرئيس قد انتهى ما ذهبت . .

وعند نزولى من سلم المستشفى لكى أكتب العدد القادم من مجلة (أكتوبر) الذى كان عنوانه (اغتيال السلام) . . رأيت رجلاً يسبقنى وفى يده حذاء عسكرى . . حذاء الرئيس . . ما بقى منه!

ولا تزال أحذيتنا أطول عمراً منا ؟!

وعندما توقفت بسيارتى أمام مبنى (دار المعارف) أسرع ناحيتى أحد الشخصيات المعروفة التى اتخذت شفتاه شكل حذاء السادات من كثرة التقبيل والبكاء وسألنى : يعنى مات . .

- الله يرحمه .

- مات نهائيا .

- لايوجد موت نهائى وموت غير نهائى . . فالموت نهاية كل شىء . . نهايته ونهايتك . .

- كان لازم يموت يا أخى . .

ولم أسمع بقية الكلام السخيف الذى نصفه شماته والنصف الباقى قلق على شكل الجزمة الجديدة التى سوف يقبلها !

وفى جنازة الرئيس السادات كان يمشى وراءه مناحم بيجين . . والرؤساء الأمريكان : كارتر وفورد ونيكسون . . وكنت أمشى فى الصف الأول . . ولم استبعد أن يجىء أحد ويهمس فى أذنى : أن كان الرئيس قد مات نهائياً . .

ولم أجد أسخف من هذا المنافق الذى سألنى : تفتكر ما الذى يمكن أن يحدث لو رفع الرئيس السادات غطاء النعش وفاجأ الناس بأنه لم يقتل . . فهو رجل المعجزات . .

وأحسست بالقرف فى أذنى . . فقد لفظت أذناى كلماته أولا بأول . . وتحولت أذناى وعيناى إلى فم يبصق عليه . . وفعلت . .

وانزعج الرجل وقال : كأنك بصقت فى وجهى . .

فقلت : كأنى ؟!

- يعنى أنت بتبصق علىّ ؟

- أتمنى لو أستطيع !

٢

لا أذكر الآن كيف وجدتنى أصعد سلالم بيت الأستاذ العقاد . . تلك السلالم التى قال عنها العقاد وهو يتحدث كيف تقدمت به السن : صعدتها ثلاثاً ثلاثاً . . وصعدتها اثنتين اثنتين . . واليوم أصعدها واحدة واحدة . . صعدتها وبياض شعرى يتوارى فى سواده . . واليوم أصعدها وسواد شعرى يتوارى فى بياضه . .

أظننى صعدتها أربعا أربعا . . ووجدت الباب مفتوحاً . وفى غرفة الأستاذ وجدت المرحوم عامر العقاد ابن أخى الأستاذ . . ووجدت المرحوم جلال العشرى . . والمرحوم طاهر الجبلاوى أصدق أصدقاء الأستاذ . . ووجدت (بدرية) شابة فى السادسة عشرة من عمرها . . ويقال إنها ابنة الأستاذ . . وعندى أسطوانة صغيرة بصوتها وهى مع الأستاذ فى المعرض الزراعى وتقول له : يا بابا . .

وظللت سنوات لا أعرف كيف أصف ما رأيت . . ولا ما الذى حدث قبل أن يموت الأستاذ فى هدوء . . ولا ما الذى قال . . ولا ما الذى طلب قبل وفاته . . ولا إن كان قد اتسع وقته لكى يقول شيئاً . وهل مات وحوله أحد . . أو وجدوه ميتا . .

ونحن واقفون أمام سرير العقاد وقد تمدد . . ولا أظن أحدًا منا استطاع أن يرى وجهه أو ينظر فيه . . ونحن واقفون كنا نتخبط فى أحذية الأستاذ التى ملأت أرض الغرفة . .

وقفزنا من الحزن العميق على صرخات (بدرية) . . تتمرغ على الأرض وتضرب رأسها فى الحائط . . ثم تقبل أحذية الأستاذ وتمسح بها وجهها . . وتصرخ ولا نعرف ما الذى يمكن عمله . . ولا كيف يمكن تهدئتها أو مواساتها . . فالحزن على العقاد لا مواساة معه . . ولا أكف تمسح هذه الدموع على عظمته واستاذيته . . وانطلقت (بدرية) الى الباب . . إلى السلم . . إلى بيتها فى أول العباسية . . لتنتحر حزناً على والدها . .

واقترب منى المرحوم جلال العشرى يقول : هل رأيت ؟

قلت : ماذا ؟

قال : هذا الذى فى جبهة الأستاذ . .

فلم أرد ولا أريد أن أرى ولا أن أقول إلا أن الرجل قد مات . . وعلى الرغم من أننا كنا نعرف مرضه ، فإن أحداً منا لم يتوقع أن يكون موته هكذا سريعاً . . رأيت محتويات الغرفة . . ورأيت المقاعد التى كنت أتساند عليها واقفاً . . ورأيت الصالون الذى كنا نجلس فيه عشرين عاماً . . أين ذهب . . أين ذهبوا به . . لا أعتقد

أننى رأيت أى شىء فى البيت . . فقد ملأ وجه الأستاذ كل الدنيا . . فأينما أتلفت مفتوح العينين أو مطبق العينين ، فإننى أراه شامخاً هادئاً مضيئاً . . نائماً . . سكت لكى نقول نحن . . نقول ما لا يسمع وما لا يرى وما لانحب أن نقول . .

ولست على يقين من هو الذى قال لنا : إن الأستاذ كان يعلم أن نهايته قد دنت . . وقد حدد اليوم الساعة الثامنة نهاية حياته . .

ولا من الذى قال : إننى سوف أموت . . فاتركونى وحدى لأننى أريد أن أنفرد بالموت وينفرد بى . . ثم غبنا عنه ساعة لنجده قد مات هادئاً راضياً مرضياً !!

ولما قلت لعلى أمين فى التليفون : تعيش انت الأستاذ العقاد قد مات . .

سكت على أمين لحظات ثم قال : أنت طبعاً سوف تكتب مقالا عنه فى (أخبار اليوم) وفى (آخر ساعة) . .

وتضايقت من الذى قاله على أمين ، فقد أحسست أنه بسرعة قد أعادنى إلى عملى إلى مكتبى إلى حياتى العادية كأن شيئاً جليلاً مروعاً لم يقع . .

أمَّا كيف تحركت الحياة بشكل آخر فى بيت الأستاذ ، فلا أعرف كيف . . فقد جاء أناس كثيرون . . والتليفون لم يتوقف عن الرنين . . ولا أعرف كيف انتقل الأستاذ من بيته إلى الجنازة إلى القطار إلى أسوان ولا أعرف من الذى قال لى إن النعش لم يتحرك إلا بعد أن نقل جثمان (بدرية) فى نعش آخر . . فى نفس الوقت تحرك النعشان .

وبعد ذلك كنا نمر على شارع الأستاذ ولا ننظر إليه ولا نحاول . . فقد انعدم هذا الشارع بالنسبة لنا . . أصبح بلا معنى . .

لم يعد هدفاً ولا أملاً . . وكأنه هو الذى اغتال الأستاذ . . فلا نكاد نذكر الشارع حتى يتدفق فينا الضيق والقرف والحزن . . إن لدينا إحساساً غريباً بأن أحدًا قد خاننا . . قد حرمنا . . قد قهرنا دون رحمة . . كأنه هو الأستاذ نفسه . . فقد ظننا أنه كان يستطيع أن يفعل شيئاً لا يعجل بوفاته . . كأن يستسلم للأطباء . . كأن يتواضع ولا يقوم بدور الطبيب الذى يعالج الأديب . .

إنه إذن العقاد الطبيب هو الذى قضى على العقاد الأديب . .

وحاولنا أن نقنعه بأن يغير غرفة نومه . . هذا السرير القريب من الأرض . وهذه المراتب الهزيلة . . وهذا المكتب الصغير الذى يجلس إليه . . بجانبه . . لا يستطيع أن يدخل ساقيه تحته ويكتب مستريحا إنما كان يكتب بنصف جسمه . . فأوجعه ظهره وساقاه وتأزمت أمعاؤه . . ولا أفلحنا فى أن نقنعه بأن يكون له بيت آخر . . وأن يكون هناك من يخدمه غير هذا الرجل الذى اتخذه العقاد نكتة فى جهله وكسله وبلادته وسوء فهمه . . أنه ليس فى حاجة إلى كل ذلك . . ثم أن مواقف هذا الخادم نمطية فلم يعد يضحكنا . . وإن كان العقاد حريصاً على أن يجدد فى هذه الحكايات التى تقع لهذا الخادم ومنه . . ويعانى منها العقاد ويحاول أن يخفيها أو يخفف منها بأن يرويها على شكل مطبات أو مقالب . . ولم نفلح فى أن نغير أى شىء . . حتى ملابس العقاد . كأنها قد سبقته فماتت . . ماتت ألوان البيجامة فلا أحد يعرف لونها الأصلى . . ولا أحد يعرف لها نسيجاً . . هل هى قطن هل هى صوف . . هل هى من ورق . . والطاقية المصنوعة من لون

وقماش البيجاما . . هى الأخرى نكتة أو مأساة . . أما أحذية العقاد التى اصطدمت بها واقفاً حائراً أمام جثمانه . . فلا هى سوداء ولا هى حمراء ولا بيضاء وإنما كل الألوان تداخلت وذابت كأنها تقلد البيجاما والطاقية . .

وأرض الغرفة وجدرانها وسقفها . . كلها اتحدت فى لون واحد لا لون له . . كأن الدنيا قد نزعت معانيها وألوانها وصفاتها حتى عندما وقفنا حوله كان قد سحب منا المعانى والفلسفة . . فأصبحنا نحن أيضاً ككل شىء فى الغرفة : لا لون لا طول لا عرض لاعمق . . لا معنى . . ثم ذرات فى سماء الغرفة . .

ولا بد أن هذه السيدة التى ظهرت فجأة وقالت لى : خلاص؟ ! خلاص كده !!

- نعم خلاص كده . .

- بس كده ؟

- نعم بس كده . . هذا هو الموت . . موت الإنسان مثل الحيوان مثل الحشرات . . شىء ما يخرج منه أو يتلاشى فيه . . كانقطاع التيار الكهربى . . أو مثل نفاد الغاز أو البنزين . . ويصبح الجهاز كله كتلة من الحديد أو الصفيح أو اللحم والشحم . . نعم خلاص كده . .

- ازاى ؟ !

- هذا هو الذى لم يعرفه العقاد ولا أحد من قبله ولا أحد من بعده . .

- يعنى أصوت وألطم . .

- ممكن . . وإن لم يكن لذلك أية فائدة ؟ !

- كل العظمة . . كل الأبهة . . هذا الكون الذى يفكه ويربطه ويعدله ويقلبه . . كأنه أحد آلهة الإغريق . . كأنه منفوخ على الآخر . . وجاء دبوس ونفذ فى جلده . . فخرجت الحياة والأمل والعبقرية والتحدى . . ياه هوه ده الموت . . هيه دى النهاية . .

ورجعت السيدة وكانت بحذاء واحد فى قدمها اليسرى . . وبلوزه قد ارتدتها بالمقلوب . . لابد أنها قفزت بسرعة لا أعرف من أين . . ربما هى أحد سكان العمارة . . أو جارة أو قارئة أو صديقة . . لم أرها قبل ذلك ولا بعد ذلك . .

ولا أعرف إن كانت هى التى جاءت مرة أخرى بعد أن غيرت ملابسها ووضعت بعض الألوان على وجهها . واقتربت تقول لى بمودة كأننى أعرفها . . أو أنها مثلى على علاقة حميمة بالعقاد . .

وهمست فى أذنى كأنها تقول سراً : هل هؤلاء أهله . . فقط هؤلاء . .

- الأديب أهله الملايين من القراء الذين لا يعرفهم . . كلنا لم نعرف العقاد يوم أعجبنا به . . وحتى بعد أن عرفناه ، لم نعرفه بدرجة كافية . . ذهب مجهولاً منا ، وقبل ذلك عاش مجهولاً أيضاً . . وكما يقول خصمه وغريمه مصطفى صادق الرافعى : جاء من ظلام بطن الأم وذهب إلى ظلام بطن الأرض . . من الظلام إلى الظلام . . وما حياتنا إلا محاولة مستمرة لأن نشيع النور بين هذين الظلامين . . وبس!

ودفنوا العقاد فى أسوان كما أوصى . . وبقى العقاد فى عقولنا وقلوبنا . . لم يدفن ولن يدفن !

٣

صدمة عمرى كلها يوم كنت أجلس مع الرئيس السادات فى استراحة الهرم . . والسادات ينظر إلى الأهرامات الثلاثة كأنه الهرم الرابع أو عنده هذا اليقين . . وكان الحديث عن القضايا السياسية وماذا قرأت ومن قابلت وما سوف أكتب . . وبدأت أسأل والسادات يرد . . واندهش والسادات يتعجب . . وكانت للسادات هذه القدرة الفائقة على أن يكون هادئاً . . وإن كان القلق كله فى عينيه واللمعان فى أسنانه . . ولكنه يبدو دائما مسترخياً وحريصاً على أن يبقى كذلك . . ولا ينسى أن يقول إن عبد الناصر كان شديد القلق . والذين حوله كانوا حريصين على أن يجعلوه كذلك . . مهموماً عصبياً يبتلع الحبوب المنومة . . فإذا صحا من نومه الطويل راح يشرب الكثير جداً من القهوة . . ويمضى نهاره كله فى التليفون وتحت رحمة الإذاعات . . والإصرار على سماع كل

شيء . . وكل التفاصيل مهما كانت تافهة أو مروعة . . فكان مثل القط على صفيح ساخن . . أو مثل الدب الذى يتحرك على إيقاع موسيقى وهو واقف على أرض ساخنة فالأرض الساخنة تجعله يرفع أقدامه والموسيقى تنظم له هذه الخطوات . . هذا الإيقاع أو نمط الحياة التى لا يصح أن تكون لزعيم يحكم مصر والعالم العربى . . وكان السادات يتباهى بأنه ليس كذلك ولا يحب . ولا يسمح لأحد بأن يفسد عليه حياته وصفاءه . .

فى هذا الجو الذى اعتاد عليه الرئيس السادات انفتح الباب واندفعت السيدة همت مصطفى رئيسة التلفزيون باكية مخنوقة وتقول : على الجمال ياريس تعيش أنت .

ونكست رأسها . والرئيس فعل كذلك وتحيرت عيناى بين وجه الرئيس ووجه همت مصطفى .

فقد كان على حمدى الجمال رئيس تحرير الأهرام فى رحلة بواشنطن مع حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية . وفجأة سقط على حمدى الجمال بأزمة قلبية . . وكان شخصية لطيفة مرحة . . وكانت له ضحكة مجلجلة . . وكان أنيقاً متديناً . .

ولا يزال الرئيس ساكنا ولاتزال همت مصطفى . ولا أعرف إن كانت دموعها ماتزال تنحدر على خديها إلى فستانها . . أو أن حنجرتها فقط هى الباكية . . فقد كان الموقف صعباً . . ولما أحست همت مصطفى أنها قالت كل ما عندها وأنها تشفق على الرئيس أن تضاعف حزنه أو قلقه . . أو كأنه من غير المناسب أن تنقل إليه هذا الخبر بهذه الصورة . . أو هل كان من المناسب أن تحتفظ بالخبر

حتى أفرغ من اجتماعى بالرئيس . نهضت وخرجت . وأنا لا أزال صامتاً حزيناً . ولا أعرف ماهى أول كلمة سيقولها الرئيس أو أول عبارة فى تأبين على حمدى الجمال . .

وظل الرئيس ساكتاً . ثم رفع رأسه ثقيلاً واتجه ناحيتى ويقول : هه . . وحتكتب إيه يا أنيس !

❑ ❑ ❑

شىء فظيع ياريس !

٤

كنت فى مستشفى أم المصريين . . أهل الفقيد يبكون . . فقد مات الرجل وبعض أبنائه يشكون فى أن يكون الفلاحون قتلوه . . ولا بد أن تكون هناك أسباب لذلك . وفجأة خرج من المشرحة طبيب يحمل برطماناً من الزجاج . ولم أفهم . ولكن وجدت البشر على وجه الطبيب . ودون أن أسأله وجدته يقول لى سعيداً كأننى طبيب مثله : هذه حالة لم أعرفها إلا فى الكتب . . لم أرها فى حياتى إلا اليوم . . إننى فى غاية السعادة . . إنه البحث الذى سوف أتقدم به لنيل الدكتوراه . .

إنه طبيب يبحث . ووجد الذى يبحث عنه . وسوف يوالى البحث . وقد وجد كنزاً خفياً من المعلومات . وفجأة تنبه الطبيب إلى غلطة وقع فيها . . فهذا الذى فى البرطمان الزجاجى هو قطعة من أحشاء المريض . . مريضنا وقد وقفنا ننتظر كشف الطبيب الشرعى

لنعرف إن كان قد مات لسبب ما أو أن الفلاحين قتلوه . . وكان هذا الطبيب هو الذى سوف يقول لنا ذلك . . ولكن الاكتشاف العلمى قد شغله . . بهره . . أنساه أننا أقارب الفقيد . . فأدعى بسرعة أنه لم يقتطع شيئا من أحشاء الفقيد . . وإنما هو ميت آخر . وكنا على يقين من أنه الوحيد الملقى فى داخل المشرحة . .

مات الرجل الغنى القوى . . وتحول إلى كتلة من اللحم الذى سوف تخرج منه رائحة الموت إن لم يعجلوا بدفنه . . وهو مصدر سعادة للطبيب وتعاسة لكل أهله . .

ولم يكن أحد قادرا على أن يمسك البرطمان ويحطمه فوق رأس الطبيب . . أو يقتل الطبيب ويضعه إلى جوار الفقيد . . إن الفجيعة قد أوجعت الجميع . . وأصبح شيئاً واحداً عندهم : أن يدفنوا الفقيد سليماً أو ممزقاً . . ففى جميع الحالات هو طعام للديدان . . والديدان طعام للديدان وما تبقى طعام للأرض . . ليكون طعاماً للنبات الذى سوف يكون طعاماً للحيوان الذى هو طعام للإنسان . . والموت فى النار كالموت فى الماء . . فى الأرض . . فى الهواء فوق السرير . . تحت السرير . . تحت العجلات . . صور مختلفة لشىء واحد .

يمضى الميت ، ويمضى الحزن ويبقى الناس وهمومهم تشغلهم عن كل شىء آخر . .

٥

على الرغم من أن أهل الريف اعتادوا على صور الموت . ولكن كلمة (الموت) لها صورة مفزعة . . لأن الإنسان يتصور موته هو أو موت أعز الناس عليه . .

ففى أى مكان فى الريف نجد كلباً أو قطة أو حماراً أو جاموسة ميتة . . وتراها عائمة فى الترعة . . وترى (أم عرس) تخطف الكتاكيت وتعدو بها من بيت إلى بيت . . ونرى الثعالب والذئاب كلها تنقض وتخطف وتجرى . . نرى فى أنيابها طيوراً وحيوانات قد ماتت . .

ونرى كل يوم جنازات لأحد من الناس والنساء يلطمن ويبكين . .

ولا أنسى أحد الأطفال أمسك بصغار الكلاب . ولكى يسكتها عن النباح ألقى بها فى الترعة . . وأم الكلاب تبكى وتئن ولا

تعرف ماذا تفعل . . وقد قفزت إلى الترعة تحاول إنقاذ صغارها . . وفى كل مرة تنقذ واحداً تجده قد مات . . فتتركه وتبكى وتئن . . والطفل وأبوه والناس ينظرون . . كأن شيئاً لم يحدث . . كأنه لم يقتل أرواحاً بريئة . . كأنه لم يرتكب مذبحة . .

فقد اعتاد أهل الريف على القتل والموت . . موت الحيوان والإنسان . . ولكن لايزال موت الإنسان لغزاً . . ومن الغريب أن أهل الريف يفقدون الولد فيبكون ويفقدون الجاموسة فيبكون أكثر . . أما الولد فيمكن تعويضه ، ولكن الجاموسة كيف؟

ولم أعتد على هذه المشاهد فهى تفزعنى وتخيفنى . . وتخطف النوم من عينى وتجعل فراشى من الشوك . . فإن نمت فالكوابيس والشياطين والنيران والسكاكين والأنياب والمخالب تنهش أحلامى ونومى ويومى وليلى .

وكم بكيت على كلب لى مات . . بكيته صديقاً عزيزاً . وبكيت عجزاً عن فعل شىء . . وفى كل مرة يموت لى كلب فأقسم ألا آتى بكلب آخر ولكن فجأة أجدنى أتيت بواحد جديد . . لا حباً فى العذاب ولا محاولة لأن أعتاد على موت كائن عزيز ، ولكنى أحب هذا الحيوان . وأحرص ألا يلقى نفس نهاية الكلاب التى سبقته . . وتكون المفاجأة أن يموت على نحو ليس فى حسابى . . ولكنى أحب الكلاب . . أحب قربها أحب صدقها أحب الذى أفتقده فى الناس . .

تماماً كما يموت صديق ، فإنى أعتزل الناس حتى لا يموت أحد

فأحزن . . ولكن أعود فأجدنى أشد حرصاً على الناس . . وأشد بحثاً عن الذى يعوضنى عن العزيز الذى فقدته . .

وأتيت بالقطط ولم أجد بيننا حواراً . . فالقطط تتمسح فيك ولا تقول . . ولكن الكلب يقول ويحاول أن يقول أكثر . . وعندما يمرض فالحزن واليأس فى عينيه كأنه يقول . . أو يريد أن يقول . . وكم ذهبت بالكلاب المريضة إلى المستشفيات . وأحزننى ألمها . وأحزننى أكثر أننى لا أعرف ما هو هذا الألم وأين . . ولا الذى أستطيعه من أجل التخفيف عنها . . وفى المستشفيات وجدت من يبكون على الكلب الذى مات . . بل رأيت مقبرة فى مستشفى العباسية للكلاب . . وماذا نقش أصحابها فوق قبور هذه الكلاب . . وكيف يصفونها : بالحبيب الغالى . . وكيف يتمنون لهذه الكلاب السعادة فى الحياة الأخرى !!

وكيف أنهم فى أمريكا يتركون ثرواتهم لكلابهم ولا يتركونها للأقارب أو حتى للأولاد . . إنهم يتركونها للذين كانوا أقرب وأكثر إخلاصاً وصدقاً . .

وعندما يموت كلب فإننى أبكى عليه . . أو أبكيه هو . . ما الذى أبكى . . أبكى نظرته . . لمسته . . صداقته . . إخلاصه . . ارتباطه . . احتياجه لى . .

بالضبط أين أنا ؟

١

دخلت وخرجت أنا أيضاً من المستشفيات دون أن أدرى أنها مستشفى . .

فأول مستشفى كان فى (أبو حمص) بمحافظة البحيرة . . خيمة كبيرة . . ورافقت والدى يدى فى يده أو يده فى يدى وأنا أمسك وأتمسك بها ولابد أن ذلك كان شيئاً غريباً فأبى من حين إلى حين يقول : لا تخف . . سوف تكون عال العال .

فلابد أننى كنت مريضاً . . وعرفت أن الذى أصابنى هو ما يصيب معظم أطفال الريف : البلهارسيا والانكلستوما والدوسنتاريا . . وكلها بسبب الماء القذر والطعام أيضاً . . وأن علاجها سهل . . ولا أذكر بوضوح أننى كنت مريضاً . . ولكن كنت ضعيفاً وكنت أرى الناس يروننى ويقولون : ربنا يشفيك . .

يشفينى من ماذا؟ لا أعرف . . وإذا جاءوا إلى البيت وضع كل

واحد فلوساً فى (حصاله) - الحصالة هى علبة من الصفيح بها فتحه تسقط فيها الفلوس إلى الداخل . . وكل يوم يزيد وزنها . . وكل يوم أخرج هذه الفلوس الفضية وأجلوها بالماء . وبالليمون لتكون لامعة . . عشرة قروش وعشرون قرشاً . . حتى تجمع مبلغاً من المال وصل إلى عشرة جنيهات . . واشتروا لى جاموسة . . كنت أسحبها وأجعلها تستحم فى الترعة وتكون نظيفة ثم أعود بها إلى البيت . . وبعد ذلك اشتريت عشرين بطة وعشرين أوزة . . وكنت أدفعها أمامى إلى الترعة وأظل أحرسها ثم أدعوها إلى الخروج من الماء والعودة إلى البيت . . وأحياناً كنت أعيدها إلى الماء فقد اتسخت أقدامها . . ولم أجد حلا لقذارة أقدامها . . كنت أريدها أن تعود إلى البيت نظيفة القدمين ؟ !

□ □ □

إلا ذلك اليوم . . فقد وجدت كل شىء غريباً فى بيتنا . . كثيرون لهم نظرات لا ألمحها يتبعوننى من غير مناسبة . وبعضهم يقول كلاماً لم أسمعه من قبل : تعيش أنت . . خيرها فى غيرها . . أخذت الشر وراحت . .

ـ من هى ؟

أمى هى التى قالت لى : سنأتى لك بغيرها . .

كابوس . . صدمتها سيارة . . وتموتها . .

واختفى لحمها فى كل بيت . . فتة كوارع ولحوم مسلوقة وشبع وسعادة للجميع . .

ـ كيف تحلم به وتستدعيه ليحل لك مشكلتك مع نفسك ثم

ترتدى ملابسه وتمشى عارياً حافياً مثله وتتوهم أن وراءك تلامذة أكثر من الذى كان يمشون وراء سقراط وأرسطو وفيتاغورس .

ـ تلامذة لاينطقون . . وأنا أحدث نفسى على مسمع منهم . . أو لعلهم لايستمعون إلى ما أقول . . أو أننى توهمت وجودهم حتى لا أبدو مجنوناً وأنا أحدث نفسى . .

ـ هذا شأنك . . أحسم أنت هذه القضية . .

❑ ❑ ❑

وصحوت من نومى . .

أو من هذه الحالة التى تشبه النوم . . لأجد الطبيب وطبيباً آخر وثالثاً . . وعدداً من الممرضات يكملون حوارهم وكأننى لست موجوداً . . ويناقشون منذ الطعام وهذه الكميات الهائلة من الورود بعث بها الأصدقاء فى باريس ومن دول أوروبية أخرى . . ويضحكون ويستأذنون أن يوزعوها على غرف المستشفى وغرف الأساتذة مع تحياتى . . وإن كان من الممكن أن يوزعوا الحلويات أيضاً . . وأن يقسموا الأطعمة الجاهزة التى بعث بها أصدقاء آخرون . . وأتفقوا على كل ذلك فقال لى الطبيب : لا مانع عندك . .

فهززت رأسى وأنا لا أعرف ما الذى وافقت عليه . وأشار الطبيب إلى الممرضات أن يسرعن بتنفيذ أوامرى . مع أننى لم آمر بشىء . . ولكن يبدو أنهم يتناقشون منذ فترة طويلة . . ويروننى مفتوح العينين . . أهمس من حين إلى حين ، فيتأكدون أننى على وعى تام . . وأنه لا مانع عندى . . وأسعدهم ذلك . .

كيف جاءوا وكيف خرجوا . . كيف وجدتنى وحدى . . وكيف أن التليفزيون مفتوح . . وكذلك جانب من النافذة . . ولا كيف جاء آخرون واحتلوا نفس المقاعد . . واستدرت لأنام بينما الهمس مستمر والضحك الخافت . . الخافت حتى لم أعد أسمع أو أرى شيئاً . .

❑ ❑ ❑

وتقلبت فى فراشى . . ولا أشعر بالفراش بسبب المهدئات والمنومات . . وعندما رحت أتلمس وجهى لاحظت أننى أشعر بيدى وبأنفى وبعينى . . فأنا ما أزال حياً . . ومن لحظات كنت أظن أننى ميت . فلا صوت لشىء من أى مكان . . ولا إحساس بالفراش تحتى وفوقى . . حتى عندما مررت بيدى على عنقى لم أشعر بيدى ولا بعنقى . إذن لقد مت . . وجاء موتى هادئاً . . فأنا قد طلبت إلى الأطباء أن يجعلوا موت أمى هادئاً . . عندما عرفت أنه لا فائدة ولا أمل . . طلبت ورجوت وتوسلت أن يعطوها منوماً . . وأن تموت أثناء النوم فلا تعرف أنها ماتت . . راحت عليها نومة . . راحت عليها موتة . .

ولكن فزعى أن أكون قد مت هو الذى جعلنى انتفض جالساً فى فراشى . . وأضغط على الجرس لأرى الممرضة . . وقلت بالعربية : الحمد لله . .

وكانت جزائرية فرنسية فقالت : الحمد لله على سلامتك . . مالك ؟

ـ كنت ميتاً .

ـ تقصد ميتاً فى النوم . . أو كأنك ميت . .

ـ بل ميت بالفعل .
ـ كيف ؟
ـ حكاية طويلة . .
ـ كل حكاياتك طويلة . . أمس قلت للدكتور أن حكاياتك طويلة . . وأنا احتفظ بحقى فى معرفة هذه الحكاية يوما ما . .
ـ أنا قلت للدكتور أنها حكايات طويلة ؟ . .
ـ أمس .
ـ وما هى المناسبة ؟
ـ لقد دخل عليك الدكتور فوجدك تقول شعراً . . وتبكى . . وتقول كلاماً غير مفهوم وتنادى أمك وعدداً من الفلاسفة . . هو الذى قال أنها أسماء فلاسفة أما أنا فلاأعرف . .
ـ أنا ؟
ـ نعم .
ـ متى ؟
ـ أمس .
ـ متى ؟
ـ صباحا .
ـ حكايات فلسفية صباحاً . .
ـ وهل الحكايات الفلسفية لها موعد محدد .
ـ حكايات وأسماء فلاسفة صباحاً ؟! ألم يقل أن حالتى خطيرة . .

ـ لا .

ـ هل كانت درجة حرارتى مرتفعة ؟

ـ لا .

ـ ولماذا لم يقل لى الدكتور كل هذا الذى حدث . .

ـ لأنه ليس خطيرا .

ـ إذن ما هو . .

ـ يقول أنه (هوس فنى) . . وأن الكثيرين جداً من الفنانين يصابون بشىء كهذا . . وأنها ظاهرة مألوفة . . والدكتور قال أن معظم مدارس الفن التشكيلى قد ظهرت فى باريس بسبب أن الفنانين لم يصدقوا أنهم مرضى . . أو أنهم مرضى ولابد أن يعبروا عن حالتهم هذه . . وأن ينقلوها للناس على أنها من الممكن أن تحدث لأى واحد . . فليس الفن كله تعبيراً واعياً . . أو تعبيراً واعياً عن وعى وإنما من الممكن أن يكون تعبيراً واعياً عن حالة ليس فيها وعى . . كما يصر المخمور على أن يكتب تحت تأثير الخمر . أو تحت تأثير البنج أو الحبوب المنومة أو النوم الثقيل . . أن الفنان يقوم بتوظيف هذه الحالة ويعبرعنها ومن خلالها . .

ـ وأنت كيف تعرفين مثل هذه المعانى الدقيقة جداً . . هل أنت فنانة ؟

ـ نعم .

ـ درست الفن ؟

ـ درست الفنون الجميلة . . وجعلتها هواية . . ودرست التمريض واخترته حرفة . . وأنا سعيدة فى الحالتين . . فلابد أن يكون للإنسان

حرفه ، وأن تكون له هواية هى أجازة من هذه الحرفه . . كما أن الحرفة أجازة من الهواية . . حتى الدكتور هوايته الموسيقى . . وهناك طبيب آخر هوايته النحت . . ومنذ عامين أقمنا معرضاً فى المستشفى وكان أكثر جمهورنا من المرضى . . ومن الغريب أنه ليس فى كل اللوحات واحد مريض . . وإنما كلها صور ولوحات من العالم الجميل ، فكان المرضى يرونها على أنها لوحات من الجنة . . أو هى الجنة . . فألوانها ووجوهها وطيورها بهيجة . . بل أن أحد الرسامين قد رسم لوحة لبغبغان يضحك . . لعله يقول نكته أو قد سمع نكتة . . أنها الحياة فى الألوان والحركة . .

ـ شىء غريب يحدث وأنا نائم . . شىء أغرب يحدث عندما أفيق من النوم أو من حالة الهذيان أو السرحان . ولكن أنا عندى تفسير آخر : فأنا أكلت متأخراً ونمت بسبب المنومات . . إن الطعام الفاخر الذى يجىء قبل النوم مباشرة يصيبنى بالكوابيس والهلوسة . . فهذا يحدث لى أيضاً . . ولذلك لا آكل قبل النومٍ . . وأكره أن يدعونى أحد إلى العشاء أو أدعوه . . فأجدنى مضطراً إلى أن آكل وأنام . . ولكن الذى سمعته منك لم يحدث لى قبل ذلك . . وليس بهذه الصورة التى تتحدثين عنها . .

ـ استرحت . .

ـ استرحت إلى تفسيرى بقى أن أسمع من الطبيب . .

ـ لقد عرف الطبيب أنك سوف تسأل ولذلك فالذى قلته لك هو ترديد لما قاله الطبيب . . هو طلب منى أن أنقل لك هذا التفسير السريع إلى أن يلقاك ليلاً . .

ـ . . . .

٢

وجدتنى هكذا . .

هكذا يعنى إيه؟ . . لا أعرف كيف أنا وكيف كنت قبل ذلك . . أنا على سرير . . وفوقى وحولى وأمامى أمواج تروح وتجىء من الأضواء والأصوات والروائح الكريهة . . وليس واضحاً أمامى إلا زوجتى . . صورتها . . أو صوتها أو حركتها . . قربها أو بعدها . . هل أنا جالس على سرير . . أو طائر فوق السرير . . أو معلق من السقف . . ليس واضحاً وضعى أو مكانى . . أو إحساسى بنفسى أو بمن حولى . .

ولكن هناك ظلال تروح وتجىء . . أمواج تعلو وتهبط . . مش عارف . . هل أنا فى زورق غير مربوط إلى شىء . . مش عارف . .

والسرير بين حائطين صغيرين . . حائطين والغرفة- إن كانت غرفة - ليس لها باب ولا شباك . . وإنما هى (قاطوع) . . أو هى علبة أو هى درج فى مكتب أو فى دولاب . . والدولاب مقلوب . . وأنا

فوقه أو تحته . . أو خارج منه . . وأن الدرج الذى أنا فيه يدخل ويخرج وأمامى تروح وتجىء عربات لها عجلات . . وفى العربات أناس . . أشباح لهم أصوات . . عواء . . مواء . . حشرجة . . أو لهم روائح . . أو أنهم أفكار . . أفكارى وقد خرجت فى فوضى . . كأنها هلوسة . .

ثم تحرك السرير أو الدرج الذى أنا فيه وله عجلات . . ووجدتنى بعد ذلك فى غرفة كبيرة واسعة جداً . . لا أعرف أولها ولا آخرها . . ولا أعرف إن كنت فى أولها أو فى وسطها . . أو آخرها . . ولا أجد مرآة لكى أرى وجهى . . وهل أنا أنا أو أننى إنسان آخر . . أو أننى (بدل فاقد) . . بدل ضائع . . شبح لواحد كان هنا ولم يعد له وجود .

هل أنا جنين فى بطن . . هل أنا فى ولادة عسرة . . أنا الذى ألد نفسى . . أنا الذى أتوالد . . انقسم . . أتكاثر . .

ولكننى لا أدرى بأى شىء . . أنا لا أشعر بأى شىء عن جسمى . . ولا أن لى جسماً . . ولا أن لى وجوداً . . وكنا ندرس فى الفلسفة أن هناك وجوداً وأن هناك عدماً . . وكنا ندرس أن الوجود هو ما نحسه والعدم هو أن يتلاشى الوجود ضباباً وسحاباً . . فلا يكون . . ولكن لم أكن أتصور أننى سوف أنفرد بهذا المعنى للعدم . . فأنا لست موجوداً . . ولكنى عدم . . نوع من العدم . . فلا أنا شاعر بنفسى ولا بجسمى . . ولا بوجودى . . فأنا عقل فى جلد العدم . . أو أن عقلى هو هذا الجنين فى بطن العدم . .

هكذا وجدتنى . .

أما قبل ذلك فلا أعرف . . لا أتذكر وأنا أسمع ذلك من زوجتى ومن أقاربى ومن الأطباء . . يحدثوننى كيف كنت وماذا

أصابنى . . تماماً كما يتحدث الناس لطفل عن تحركه فى بطن أمه . . وكيف كان عندما ولد . . وكيف كان وهو ينمو ويكبر فى عيونهم . . ولكنه يسمع ولا يتذكر شيئاً مما كان قبل ذلك . .

وقد كنت - كما يقولون - أشكو فجأة من ورم فى ساقى اليسرى . . وارتفاع فى درجة الحرارة . . وأنهم نقلونى بسرعة إلى المستشفى كيف؟ . . وأنهم تهامسوا أمامى أو ورائى بضرورة الذهاب لخطورة حالتى وبسرعة شخصوها بأنها (جلطة) فى الساق . . والخوف أن تتحرك الجلطة إلى المخ إلى القلب . . إلى الرئتين . . وكان ما توقعه الأطباء . .

وعرفت أن زارنى الوزراء والأصدقاء . . وأننى تحدثت إليهم ، واطمأنوا على عقلى وقالوا : لم تخذله الذاكرة ولا روح المرح . . وأنه زى الفل !

وفى مكالمة للسيدة سوزان مبارك كل ما أذكره أنها قالت لى : قم بلاش دلع عندنا شغل كثير . .

أما الرئيس مبارك فقد تحدث إلى زوجتى وقال لها : يسافر إلى فرنسا فوراً . وإذا احتجت إلى شىء اطلبينى فى أى وقت .

وكان صوت الرئيس حازماً . وحاولت زوجتى أن تأخذ وتدى معه . ولكن عبارات الرئيس كانت قاطعة بضرورة سفرى فوراً .

وسمعت أن إلحاحاً متواصلاً من الأصدقاء بأن يرونى رغم تحذيرات الأطباء . وبعضهم بالقوة دخل وجلس . وتحدثنا- هم يقولون ذلك . وضحكنا . وخرجوا يضربون كفا بكف ويقولون ولا مريض ولا حاجة . . إنه زى الفل !

وكدت أقول أننى رأيت أمى الله يرحمها وأنها هى التى قالت لى : يا ابنى ارحم نفسك أنت تعمل كثيراً وتقرأ كثيراً . . يا ابنى ريح نفسك . . ربنا يشفيك ياحبيبى . . وسوف يشفيك ما تخافش ياضنايا !

ولا شىء يدل على أننى مازلت متماسكاً إلا أننى لم أقل هذه الحكاية لأحد . . أما لأننى أعتقد أن زيارة الموتى معناها أننى سوف أموت . . وإما لأننى لا أريد أن أوصف بأنى فقدت عقلى . . أو أن مثل هذه الهلوسة هى التى تسبق الموت . .

وجاء الدكاترة وذهبوا . . ولا أرى وجوههم بوضوح . . وإنما هى وجوه فوق ملابس بيضاء وكذلك الممرضات . . أو أن قوة خفية هى التى فصلت رءوسهم عن أجسادهم . . فهم رءوس طائرة . . كما أننى أيضا رأس بلا جسم . . أين ذهبت الأجسام . . وأكبر دليل على أننا بلا أجسام . . أننى لا أسمع أصوات من يتكلم أو من يقفل أو يفتح الباب . . أو من يطلب أن أمد ذراعى ليدخل حقنة . . أو أمد يدى لأشرب . . كل شىء يتم فى صمت رغم أن هناك حركة أقدام وأذرع وشفاه وعيون . . والدموع فى عينى زوجتى . .

والشىء الوحيد المؤكد هو أنه لا صوت ولا أجسام . . وحتى الترابيزات التى تقترب منى . . فلا أرجل لها ولا عجلات . . كأن كل شىء طائر . . كل شىء من الريش الأبيض . . أو كأن السحاب قد هبط الى ما فوق رأسى . . أو كأننى ارتفعت الى حيث يصطدم رأسى بالدخان والسحاب . . كيف . . ليس هذا هو السؤال . . ولكن هذه هى حالتى . . أسجلها الآن على أن أتأملها فيما بعد . .

كم يوما وليلة فى هذا المكان الفسيح . . لا أعرف بالضبط ولا حتى بالتقريب ولا فكرت . . فأنا مدفوع . . مدفوع إلى دورة المياة . . أنظر إلى ذراعى ولست على يقين إن كانت ذراعى . . وإلى الدم يدخل ويخرج ولا أعرف ما اسم هذا الشخص الذى أتفرج عليه . . ولا معنى العطش والجوع والنوم والأرق . . ولا لون اسم هذا الذى يضعونه فى فمى . . وينقلوننى إلى أماكن أكثر برودة وأتعرض للأشعة . . وأرتدى ملابسى . . أو يدخلوننى فى ملابس . . ويدفعوننى إلى غرف صغيرة ضيقة . .

أما هذه الجماهير الجالسة والواقفة والقريبة والبعيدة . . فلا أعرف ماهى . . ولا إن كنت أمر بها . . أو هى التى تمر بى كما يمر الناس على جثمان ميت . . ولا أعرف أن كنت أتمدد فى نعش أو أخرج برأسى من كفن . . وأن هذه جنازتى أو هى تجربة لجنازة أو (بروفة) وفاة . . هل أنا أخرجت أصابعى من تحت . . تحت ماذا . . أخرجت أصابعى . . ورأيت أمى فسحبت يدى وأصبعى لأقول فى وجهها الأبيض السعيد الصافى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . .

يمكن قلت . . يمكن تمنيت أن أقول . . يمكن أمى قالت نيابة عنى . . يمكن كل ذلك لم يحدث . . فلا شىء قد حدث أو فى نيته أن يحدث . . فالدنيا كلها حولى مفردات خرساء . . كلمات تنتظر المعنى . . تنتظر أن تنتظم فى كلام مفيد . . حتى أنا قد تفككت . . تساقطت هباء منهاراً بعضى فوق بعضى . . وكل الذى حولى هى محاولات لإعادة ترتيبى . . تنسيقى . . تبويبى . . وكل الألفاظ لا إرادة لها ، وكل المعانى لا قوة لها . . هل أنا مت . . وهل

هذا هو البعث . . ولكن ماله بطىء؟ فالموت سريع فهل الموت قد حدث فعلاً . . ولكن النهوض من الموت إلى الحياة الأخرى لا زمن له . . فقد انتهت الحياة الأولى وابتدأت الحياة الأخرى . . حياة بلا زمن . . بلا قلق . . بلا خوف . . فلا هدف بعد ذلك . . والحياة الآخرة هى رفض وانعدام لكل ما كان قبل ذلك . .

ووجدتنى فى الشارع . .

أول مرة أشعر بالفضيحة . . أول مرة أستنكر حالتى . . فأنا فى عربة نائماً على ظهرى . . فى الشارع أمام مستشفى الصفا بالقاهرة . . وأمامى عربة أسعاف . . هى الأخرى بيضاء زى الفل . . وحولى رءوس طائرة لأناس . . ورءوس أخرى صغيرة فوق . . فى البلكونات . . وكانت الشمس باهرة ساخنة . . كأننى لم أرها من قبل . . ولا أعرف لماذا اليوم . . ثم اختفت كل الرءوس . . وصدر قرار بإعدام كل الألوان والأصوات والروائح . . وكل إحساساتى . . وأغلقت نوافذ الحواس الخمس . . وصرت كأننى دودة بلا أطراف . . تزحف فوق هذا الشىء الذى كنت نائما فيه . . هل هو سرير . . هل هو كرسى بعجلات . . هل زحفت وحدى . . أو أنهم كومونى . . عجنونى . . اختاروا لى شكل الدودة حتى يسهل انزلاقى وانسحابى إلى داخل الـ . . الـ ماذا . . السيارة . . الصندوق . . الغرف الضيقة . . وربما استرحت إلى أننى اختفيت فيها بعيداً عن الرءوس العائمة حولى . .

ووجدتنى عند الطائرة . .

رفعونى إليها . . أدخلونى . . وإلى جوار النافذة أمدد ساقى . . وأتلفت حولى فلا أجد إلا زوجتى تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن

تخفى قلقها وموتها فى جلدها . . وإلا الطبيب البارع د . جعفر رجب . . والمضيفات اللاتى تحولن إلى ممرضات . . فى ملابس ضبابية كأنهن قطع من السحاب دخلت الطائرة وهى ماتزال على الأرض . .

ووجدتنى فى مطار باريس . . وتزحلقت من الطائرة إلى عربة . . إلى سيارة أسعاف . . أرى البلكونات وأعالى الشوارع لأول مرة . . فأنا على ظهرى . . وكانت السيارة تسبقها أجراس وصفافير الإنذار بما معناه أن هناك إنسانًا فى خطر والمرجو إفساح الطريق حتى لا يموت قبل أن يراه الأطباء . .

وجدتنى فيما لا أعرف تماما . .

لقد نسيت تماما أننى انتقلت من غرفة إلى غرفة . . ومن جهاز أشعة على المخ وعلى القلب وعلى الصدر وعلى الساقين . . وأن حقناً قد نفذت فى جلدى . . وأن دماء أخرى أخذت . . وأن . . وأن . . ولا أعرف ماذا حدث . .

ولا أن كان أول وجه أراه هو وجه فاروق حسنى . أو بطرس غالى . . أو اهود باراك زعيم حزب العمل الإسرائيلى . . ولا هو الأمير السعودى فواز أو هو أستاذى عبد الرحمن بدوى . . ثم ما الذى أتى بأمى من القاهرة إلى باريس . . وأين تبيت ومع من تعيش ومن يخدمها . . إننى لم أرها فى المستشفى ولا فى الطائرة . . فكيف سبقتنى إلى باريس . .

وكان وجه أمى أكثر ابتهاجاً وسعادة . . وأتلفت بحثاً عن زوجتى إنها أكثر تماسكاً . . وعرفت فيما بعد أنها لم تكن

وجاءت ممرضة فيتنامية رقيقة لطيفة متدفقة الحياء والحيوية وسألتنى إن كنت قد وافقت على أن يأخذ دورى . فأكدت لها ذلك . . إذن حالتى تسمح بأن أنتظر . . وتسمح بأن أجود على الآخرين . . وأن أشفق عليهم . . وأن أعطيهم مما أعطانى الله من صحة وعافية . . ولابد أننى كنت مبتهجاً بحالتى التى تتحسن يوماً بعد يوم . .

وغاب الرجل . . وتأخرت عن موعدى ساعة . . فأحدثت ارتباكاً حيث كان الأطباء ينتظروننى . واعتذرت وبالغت فى الاعتذار لأننى أستطيع أن أعبر وأن أناقش وأن يكون لى رأى وقرار . .

ولكن أحد الأطباء قال لى : كأنك كشفت عليه ولست طبيباً وقررت أن حالته تحتاج إلى كشف سريع ولست طبيباً . . وأخرت نفسك عن موعدك ، ولست طبيباً . . وأحدثت ارتباكاً فى جداول ست غرف . .

أى أننى ارتكبت غلطة كبيرة . .

وفى اليوم التالى كان لابد أن أذهب إلى إحدى غرف الأشعة . وانتظرت الشاب الجزائرى . . إنهم كثيرون . . ولكنه لم يأت . . وأخطرت إحدى الممرضات . . وبعد لحظات جاء الشاب يعتذر . . ثم وجدتنى فى الدور تحت الأرضى . . ولأننى تأخرت خمس دقائق فقد استدعوا الذى بعدى . . وبعد دقائق انفتح الباب وخرجت فتاة جميلة ومقعدها له عجلات . . وهى التى تحرك العجلات . وهزت رأسها قائلة بالإنجليزية : صباح الخير . .

وقالت لى إنها من أبطال رياضة التزحلق على الجليد . . وأنها وقعت وحدث لها كسر . . وجلطة صغيرة . . وأن الأطباء طلبوا منها أن تختار لعبة أخرى . . وهى مهمومة لذلك . . فهى لم تعرف إلا هذه الرياضة التى أحبتها وتفوقت فيها . . وسألتنى . . ؟

فقلت لها : لو طلب منى الأطباء أن أغير مهنتى فسوف أموت .

– ماذا تعمل ؟

– كاتب . . لابد أن أجلس لأقرأ وأن أجلس لأكتب . . فأكثر وقتى أقضيه جالساً ، وأقله نائماً ، وأقل من القليل ماشياً . . والمطلوب تغيير هذا الترتيب فأمشى أكثر وأجلس أقل وأنام أطول .

– يابختك !

– بختى ؟ لماذا ؟

– لانك لا تصاب بكسر إذا جلست وإذا نمت وإذا سرت . .

– ورغم ذلك فقد أصابتنى جلطة بسبب جلوسى الطويل ونومى القليل وحركتى الأقل! وقبل ذلك وقعت على ذراعى فانكسر وعلى ساقى فانكسرت أيضاً . .

– ولكنك تستطيع أن تقرأ وتكتب . .

– الحمد لله . وأنت تستطعين أن تدربى اللاعبات أو تدربى أحد الأندية أو تتحدثى فى التليفزيون فأنت جميلة .

– وهذا ما سوف أعمله . .

– . . . .

كذلك . . وإنها انهارت أكثر من مرة ولكن بعيداً عن عينى وعن أذنى . ولكنها أمامى أشد صلابة وقوة وأملاً وابتساماً كأن شيئاً لم يصبنى فى أى مكان من جسمى . .

ورأيت طبيبى الذى اختاره الرئيس حسنى مبارك لعلاجى فى مستشفى (أوتل ديو) فى باريس وهو البروفسور روشمور . . الآن أراه والدنيا كلها بوضوح أكثر . . إنه شلال أمل ونافورة علم . . ثم أنه لم يقل لى : إننى جئت إلى باريس وليس فى رئتى أوكسجين . . وأن حالتى كانت أقرب إلى الموت . . وأننى جئت فى الوقت المناسب للنجاة من الموت . .

لقد قال ذلك لزوجتى وللطبيب المرافق د . جعفر رجب ولمستشارنا الطبى . . د . هانى هندى . . الذى كان أكثر الناس تفاؤلا . . وإن كانت الحقيقة غير ذلك . . ورأيت وشعرت بالأمل عندما رأيت د . جعفر رجب الذى أغلق عيادته ليكون إلى جوارى شهرين فى باريس . أننى أصدقه لأ ننى أحترمه وأحبه . ودون أن أسأله قال لى : الحمد لله . . الخطر زال . .

وكان متفائلاً . أو أراد أن ينقل جزءاً من تفاؤله الاحتياطى إلى رصيدى لاقاوم وأمضى أسرع إلى الشفاء . .

أما غرفتى فى مستشفى (أوتل ديو) فهى صغيرة . . بها سرير صغير نظيف وبها دورة مياه وجهاز تلفزيونى على حسابى وبها تليفون على حسابى أيضا- فالتلفزيون يتبع شركة والتليفون يتبع شركة أخرى وبها مقاعد قليلة لم تعد تكفى لهذا العدد الكبير من

الزوار المصريين والأجانب . وكانت تعليمات الطبيب الصارمة بمنع الزيارة . . وإذا كان لابد فدقائق . . وإذا كان الزوار أكثر من اثنين فليدخلوا على دفعات . . أو يكتفوا بالنظر والابتسام وبطاقاتهم أو الورود . . أو علب الشيكولاتة . .

أما الورد فقد كان فى مصر بالألوف . . وكان فى باريس بمئات الألوف من الفرنكات . . هكذا قالت الصحف المصرية . .

كل هذا العدد من الناس . . كل هذه البرقيات . كل هذه المكالمات . . كل هذه الباقات وعلب الشيكولاتة . . والمستشفى لم ير شيئاً من ذلك من عشرات السنين . . وإدارة المستشفى استأذنت زوجتى فى أن يوزعوا الورود على غرف المرضى ومكاتب الأطباء والممرضات . . أو يلتقطوا صورا إلى جانب باقات الورد الفخمة التى لم ير أحد لها مثيلا فى هذا المستشفى .

أما الورود فمنعها الطبيب من غرفتى وأما الشيكولاتة فحرمها تماماً - فلا هو يريد رائحة كثيفة خوفاً على رئتى ، ولا يريد هذه الشيكولاتة خوفاً على دمى مما فيها من مواد دهنية . .

قل لى يادكتور : بالضبط ما الذى يجرى الآن . . ما الذى كان عندى ؟

- أما الذى كان عندك فحكاية طويلة . . أما الذى عندك الآن فهو أن (الجلطة) التى كانت فى ساقك فقد تفتت وذهب بعضها إلى الرئتين . . وهى موجودة هناك . . ولكن والحمد لله- لم يتسلل منها شىء إلى المخ . . والمطلوب ؟

- أرجوك يادكتور تقول لى ما هو المطلوب ؟

- المطلوب منا أن نحاصر الجلطة . . وفى نفس الوقت أن نفتتها ونحاصرها . . تماما كما تمسك فى كفك شيئاً تمنعه من السقوط وفى نفس الوقت تحطمه ثم تذيبه فى يدك . . فالمطلوب هو محاصرة الجلطة وإذابتها فى مكانها . . حتى تكون دماً عادياً . ولا تذهب إلى أى مكان آخر وتصبح نواة لجلطة أخرى . . والأشعة تؤكد أن هذا ما حدث وأننا نجحنا فى كل ذلك . والحمد لله .

- الحمد لله . .

- يعنى مش الحمد لله قوى . .

- استغفر الله يادكتور . . فالحمد لله على كل شىء . .

- ولم يفهم الدكتور رشمور ما الذى أزعجنى فى عبارته هذه .

ومضى يقول : لابد من الحذر الشديد . . لابد من نقص الوزن . . لابد من الحركة ساعة على الأقل مشياً يومياً . . لابد أن يشرب لترين من الماء . . لابد أن تقلل السكريات . . فأنت تسرف فى أكل عسل النحل . . ولابد أن أراك هنا كل ستة أشهر ولمدة سنتين على الأقل . . ولابد عند عودتك إلى مصر أن تخطرنى بصور للدم وأنت معك طبيب ممتاز جداً هو د . جعفر رجب . . فمن حظك أنك على مرأى ومسمع منه . .



وفى يوم . . نعم فى يوم فأنا الآن أعرف الليالى والأيام . . ومواعيد الإفطار والغداء والنوم . . فى يوم انفتح الباب الذى هو بلا أقفال ولا مفاتيح حتى يمكن إنقاذ المريض بسرعة ، جاء ثلاث

ممرضات معاً . . وهن يجئن ثلاثاً ثلاثاً . . واعتدت أن أمد ذراعى الاثنين على الآخر . . فواحدة تقيس الضغط والثانية تأخذ عينات من الدم والثالثة تقرأ سجل حالتى الصحية . .

فالتفت إلى التى تأخذ الدم وقلت لها : لم يعد عندى دم !

- لا يزال عندك .

- نشف دمى وريقى !

- طظ !

- يعنى إيه ؟

- إذا لم يبق عندك دم فسوف نأتى لك بدم فى المساء ونسحبه فى الصباح . .

- ما بقاش عندى دم .

(وقالت كلمة فرنسية معناها أكثر من كلمة طظ . . ولكن معناها انفلق نصفين . . نصف على السرير والنصف الثانى يضرب دماغه فى الحائط) .

وكنت أداعبها . . فأنا الآن قد تجاوزت حالة عدم الشعور إلى الشعور والنظر بدقة إلى جسمى ووجهى وكل ما حولى . . وحاولت أن أرتفع فوق مستوى المرض بالدعابة أو بمحاولة ذلك . . كنت أداعبها ولكنها لم تفهم . .

وفى مرة أخرى حاولت أن أنقل لها المعنى المألوف عندنا من أن ما عنديش دم . . وفهمت ثم قالت لى : أنت الآن تضحك . . ولكن اسأل زوجتك وطبيبك كيف جئت من مصر إلى هنا . . وكيف كانت حالتك . . إن مجرد أنك تضحك دليل على أن

الطبيب المعالج هو أحد صناع المعجزات فى زماننا . . إنه عندما يسمع اسمك يتراجع فى مقعده سعيداً بأنه وهبك الحياة . . ونحن عندما نحكى له ماذا تقول لنا يندهش جداً . .

- وهل تحكون له مايدور بيننا هنا . .

- طبعا . . فأنت فى مستشفى وكل ما يطرأ عليك يجب أن ننقله إلى الأستاذ المعالج أولا بأول . . فهو يعرف تطور حالتك من هذا الذى تقوله لنا ومن الذى تقوله للأطباء الآخرين . . وحتى إذا لم تقل شيئاً ، فلابد أن تقول له ذلك . . فكل شىء له معنى . .

كل يوم يجىء طبيب شاب يحدثنى عن برنامجى اليوم . . اليوم الساعة كذا أذهب إلى غرفة الأشعة . . وبعدها إلى غرفة أشعة أخرى . . وبعدها إلى غرفة التصوير بالرنين المغناطيسى . . ولا أذهب على قدمى . . وإنما جالساً على مقعد على عجلات الساعة كذا والدقيقة كذا إلى الغرفة رقم كذا وهناك الحكيمة فلانة . .

وفى الوقت المحدد يجىء من يضعنى على مقعد . . إنه غالباً شاب جزائرى . . يدفعنى أمامه فى ممرات طويلة باردة . . وفى مصاعد من الحديد الأكثر برودة . . والهواء منعش . . والأصحاء هم الممرضات والأطباء والزوار . . أما نحن - المرضى- فأشكال وألوان وأعمار ومصائب . . وأكثر الألوان شعبية هى الأبيض فى الملابس والأصفر فى الوجوه والرمادى فى الجدران والأسود فى الزنوج الذين يساعدون الأطباء . .

وجاء الشاب الجزائرى ودفع الكرسى الذى أجلس عليه بسرعة من فوق لتحت . . ومن تحت لفوق . . ويدفع أمامه أبواباً من

البلاستيك . ثم يتوقف فجأة ويلصق مقعدى بالحائط . . ويختفى . فقد انتهى دوره . وعندما أفرغ من البرنامج يجىء شخص جزائرى آخر يعيدنى إلى غرفتى . . وعند الانتظار يكون العذاب الحقيقى اليومى . . فالأشعة لا توجع . . ثم أننى أنزع ملابسى وأتعرى فى غرف مكيفة البرودة - وليست مكيفة الحرارة - ولا أشكو . . فلا معنى للشكوى . . وإلى جوار مقعدى يوجد آخرون أتعس حالاً وأكثر مرضاً . . هذا يصرخ ، لا يزال . ولا أحد يمد يده إليه . . فهو لا يعرف مرضه . . ثم إنه ليس من شأنه أن يسأل مريضاً أو يساعده . . وواحد يسعل . . ويسعل دماً . . ولا أحد يدنو منه . . وهذه سيدة لا أعرف إن كانت حية أو أنها فى النفق الضيق إلى خارج هذه الدنيا . . إنها نائمة وكأنها ماتت . . وإن كانت أحياناً تحرك يداً أو تهز ساقاً . . أو تفتح عيناً . ملقاه ومتروكة . . وتجىء مقاعد بعجلات وتختفى . . ويظهر غيرها . . وهذه السيدة ملقاة . . هل نسوها . . هل يئسوا منها . . سألت فقيل لى إنها جاءت قبل موعدها . . ولابد أن تنتظر . . وسألت إن كانت تموت . . فاهتزت الأكتاف بما معناه : ليس هذا شأننا . .

وارتطم مقعد بمقعدى ونظرت وجدت رجلاً من نار . . كله أحمر . . وجهه وعنقه وصدره ويداه وعيناه وقال بالإيطالية : هل من الممكن أن آخذ دورك لأننى مرهق جداً .

فقلت : تفضل . .

وصرخ بأعلى صوته : ياناس . . يامتوحشون يا أولاد الـ . . إن السنيور قد وافق على أخذ دوره ما شأنكم أنتم ؟

٣

من غير مقعد يمكننى الآن أن أتحرك من أول الممر إلى آخره . . مرة واثنين وثلاثاً فى اليوم . .

ويمكننى أيضاً أن أذهب إلى الشرفة وأتمشى وأرى النهار والشمس والزهور وأشم هواء نقياً . .

والمسافة بين غرفتى والشرفة هذه لا تزيد عن دقيقتين وقد قطعت هذه المسافة فى أسبوعين . .

ومشيت وكأننى أمشى لأول مرة . . فقد كنت لا أحبو . . ولا أزحف على بطنى ولا أتساند على الجدران . . وإنما كنت مكوماً على سرير . . وكأننى كتكوت مكتف فى البيضة . . ثم فقست . . ورحت أمدد ذراعى وساقى وأحرك رأسى وأفتح عينى وأطبقها . . وأبعد عن البيضة جرياً وراء الأم . . وأتساقط فى مشيتى على ساقى . . والمطلوب أن أمشى حتى لا ترتخى عضلاتى أكثر . . مطلوب شد العضلات وتوسيع الصدر واستقرار الرأس فوق الكتفين . .

لقد اتسعت الدنيا أمامى . . وأصبح كل شىء قريباً . . ليس كل شىء . . ولكن بعض الأشياء قريبة . . أستطيع أن أذهب إليها . . وقبل ذلك كانت يدى لا تمتد لشىء . . دون أن تمتد الأيدى الأخرى ناحيتى . . وكنت لا أستطيع أن أهبط من السرير دون أن تساعدنى أذرع وأكتاف كثيرة . . وكنت أرى الأشياء ولا أقوى على تقريب البعيد . . أما الآن فالدنيا قد ظهرت أطرافها وأصواتها أكثر وضوحاً . . ولا أجد أحدًا ينظر ناحيتى فلست عبارة ضالة . . ولا مريضاً يصرخ . . ولا عندى مغص . . ولا عندى صداع . . ولا أتلفت إلى أحد أطلب مساعدته . . فأنا مثل أى واحد . . أمشى دون مساعدة وأتجه إلى أى مكان دون أن أسأل . . وأطرق الأبواب البلاستيك وأمرق منها إلى الشرفة الواسعة التى تتوسط المستشفى . . وفيها زهور ونافورة ومرضى يجلسون على المقاعد فى الشمس يقرءون الصحف والكتب . . إنهم بيض مثل البجع حول إحدى البحيرات . . أو مثل الطيور المهاجرة من البرد إلى الدفء . . ومن الأقفاص إلى الحدائق . . هنا (جو) . . هواء طلق برودة نقية . . مسافات بين الناس . . وبين الحديقة وبين الممرات . . ولا يحق لأحد أن يجلس هنا إلا إذا كان قد تجاوز مرحلة المرض الذى يربطه بالسلاسل إلى السرير . . إنهم الآن على عتبة الصحة والعافية . . إنهم الآن فى المرحلة الانتقالية من المرض إلى النقاهة إلى الحياة من جديد وفى جيوبهم توصيات الأطباء باتباع تعليمات شديدة عن الدواء والرياضة والعمل والطعام . .

نظرت إلى جارى بعد أن عرفت تمامًا ما الذى يقرؤه . . إنه يقرأ كتاباً للمؤرخ الأمريكى ول ديورانت . . إنه من أروع المؤرخين . . وأكثرهم علماً وأجملهم عبارة وأخفهم دماً وأكثرهم شمولاً .

قلت له : إننى أحب هذا المؤلف الأمريكى .

- قرأت له ماذا؟

- كل ما كتب .

- كل ما كتب؟

- نعم . . أنا مفتون بكتابة (قصة الفلسفة) وكتابة (مباهج الفلسفة) و (قصة الحضارة) ودراسته فى التاريخ . .

- هل قرأت قصة حياته هو وزوجته . .

- بعضها . .

- كأنك أعجبت بما كتب عن الدنيا ، ولم تعجبك ما كتبه عن نفسه . . مع أن كتابته عن نفسه تستحق الإعجاب أيضًا . . فالكتابة عن النفس صنعة . . فهو يتفادى أشياء كثيرة من أجل أن يصل إلى أشياء أكثر . . يتفادى أن يقول (أنا) وأن يقول (هى) - أى زوجته - وفى نفس الوقت أنه يدلك على غرفة العمليات أو المعمل الذى قام فيه بتخليق فكر الحضارة العالمية . . صحيح أن قصة حياته هو وزوجته ليس فيها المرح ولا التنويع الذى تجده فى كل كتبه الأخرى . . لأنه فى الكتب الأخرى يتناول ألوف الأفكار والنظريات . . ولكن فى كتابه عن نفسه وعن زوجته نوع من الاعتراف العميق الرقيق . . أنا شخصياً كنت أتمنى أن أبدأ بمعرفته . . بمؤلفاته قبل أن أعرف شخصه . .

- بل إن المؤلفات هى أكبر دليل على المؤلف . . كيف يخوض المعارك كيف يخرج منها . . كيف يحتضن القضايا . . كيف

يحللها . . كيف يجد المنافذ والمخارج . . وكيف يضحك أحيانًا . . ويكون الضحك نوعاً من مقاومة التعب أو الملل . . إننى أستطيع أن أقول لك من هو من خلال الذى كتب والذى عرض . . ورأيه فى البداية والنهاية . وإن كانت قصة حياته من البداية إلى النهاية تستحق القراءة . . لا شك . . ثم كيف أنهى حياته بأن اتخذ قرارًا هو وزوجته بالفسحة والدوران حول الأرض - وأنا قد سبقته وفعلت ذلك عندما كنت فى بداية حياتى الأدبية . وأنت جئت هنا لماذا ومن أين ؟

- جئت مع أمى . . ماتت هى وسقطت أنا من أعلى السلم فى حالة إغماء فانكسرت ساقى ووجدت كل الناس حولى . . إلا هى . . وكنت متزوجاً وانفصلت عن زوجتى وأولادها وأولادى منها . . ولو كنت أعرف أن انكسار ساقى سوف يعيد كل الذين أحببتهم لتطوعت بكسرها من وقت طويل . . هاها هاها .

- هاها . .

ونظر فى ساعته وقال : حانت الساعة السعيدة . .

- . . . . .

- سوف ترى أسرتى كلها الآن .

والتفت أرى الزوجة والأولاد بنين وبنات . . صحة وعافية وحيوية وشباب . . وتوالت القبلات على خديه . . والورود فى يديه . . وبعد أن انتهت هذه الوجبة العاطفية أشار ناحيتى قائلاً : الزميل من مصر كاتب . . فى دور النقاهة . .

وصافحني الجميع . . وشكرتهم . . ونهضت ولكنهم منعونى . . وقرروا أن يقفوا حولنا يلتقطون صورة تذكارية . .

واقترحت زوجته أن نمضى فى الذى كنا نتناقش فيه قبل مجيئهم . فهى تريد أن تسمع ما الذى يقوله المرضى من المثقفين . .

وقال لى : أنا أيضاً كاتب . . ولا أظن أنك سمعت بى فأنا مهاجر إلى أمريكا . . هاجرت أسرتى من المانيا فرارًا من النازية . . وأنا أعيش فى ولاية مينسوتا . . وأكتب فى الصحف . وزوجتى تعمل فى إحدى العيادات النفسية . . فهى قد تخصصت فى علم النفس . . وأولادى . .

وقدم أولاده وأولاد زوجته . .

وبسرعة انصرف الأبناء . . وأتت زوجته بمقعد وجلست إلى جواره وهو يقول . . هو يعرض وأنا أشرح . . وتطلب الزوجة أن تجد معنى لهذا النوع من النظريات المتعارضة فى العالم القديم والعالم الجديد . .

وقالت الزوجة : أنا أحب أن أقرأ وأن أكتب أيضاً . . ولكن معدتى لا تهضم الفلسفة والنظريات الخاصة . . إن زوجى شهيته مفتوحة لمثل هذه النظريات وعنده صبر طويل على التوضيح . . فقد كان فى بداية حياته مدرساً لمادة علم الاجتماع . .

- وكنت مدرساً للفلسفة .

- إذن فأنتما طائران من فصيلة واحدة سقطا فى قفص المرض . . هاها . .

ورأيت البروفسور رو شمور من بعيد . . وأشرت إليه أن يقترب . . واقترب . . ضاحكًا : شىء غريب . . لا أعرف لماذا أنا

تصورت أنكما سوف تلتقيان حتما . وأنا أحب قراءة الفلسفة ولكن فى الإجازة . . ولو كان عندى وقت لجلست إليكما ساعة وساعتين . ولكن . .

ولم يكملها حين ظهرت مساعدته تستعجله . وذهب . . تلاشى فى النور الذي يتدفق من وجهه ومن كل مكان . . فنحن نجلس تحت السماء . . لا سقف ولا جدران . .

وجاءت العصافير تعلو وتهبط . . كأنها نقط حائرة فوق وتحت حروف هذه الكلمات الجديدة : النزهه . . الاسترخاء . . الامتنان . . الشفاء . .

كأنها تذكرنى بأننى كنت فى البيضة . . بيضة المرض . . ثم فقست . . وظهرت لى بعد ذلك أطراف . . أقدام . . أجنحة . . عيون وذاكرة . . فكأننى تاريخ التطور الإنسانى من بيضة إلى طائر ومن طائر إلى زواحف . . إلى إنسان . .

وألقيت لهذه العصافير بفتافيت البسكوت على الأرض . ولكنها لم تهبط لتلتقط هذا الطعام . . وكان لابد أن أجمع هذه الفتات وألقى بها فى صندوق الزبالة . . فالعصافير ليست فى حاجة إلى مثل هذا الطعام . . ولم أعرف لماذا؟ لعلها ليست جائعة . . أو لعلها أحست أننى أريد أن أمسك واحداً منها . . أو لعلها لم تكن عصافير وإنما أوهاماً طائرة من صنع خيالى . . فكيف يعيش الوهم على فتافيت البسكويت ؟!

وصار من عادتى أن أتهم كل مشاعرى . . أشكك فيها . . فلم أكن على يقين إلا من أوهامى وهلوساتى . . وكانت أفكارى . . مثل

دخان أو تراب . . أو هباء . . يعلو وينتشر دون أن أفلح فى احتوائه أو اعتقاله فى معنى . . فى جملة . . وعدت إلى المريض الجالس إلى جوارى . وسألنى : أين كنت . . أين ذهب بك خيالك . .

- قل أوهامى . . مخاوفى .

- أين كنت؟

- أنا فى حاجة إلى من يركزنى . . إلى من يكشفنى . . يحشرنى فى شىء جامد . . فى جسمى . . فى عقلى . .

- فى قبر مثلاً . .

- لا . . فقد ابتعدنا عن ذلك مؤقتاً . . إننا نستأنف الحياة بشكل جديد . . فهل نظن أننا سوف نتعلم . . لا . . فأنا دخلت وخرجت من منطقة الموت . . فلا شعرت بخوف عندما دخلت فيه ولا شعرت بالأمان عندما خرجت منه . . عندى مناعة ضد الموت وضد الحياة . . فأنا أرجوحة . . أو فى أرجوحة تهزها أيد خفية فوق جسور الموت ودروب الحياة . لماذا لا أعرف . . ولا أظن أحدًا يعرف لماذا نحن أحياء . . فأنا عندى شعور لا أعرف أوله . . وإن كنت حديث العهد بآخره . . فسوف أسأل كثيرًا حتى أعرف كيف حدث ما حدث . . من الذى قرر نقلى من البيت إلى الإنعاش . . ومن الذى قرر نقلى من إنعاش القاهرة إلى إنعاش باريس . . وكيف كانت حالتى - ولماذا كان عندهم - ولا أعرف من هم - يقين بأننى لن أموت . . على أى أساس قرروا أننى تعثرت فسقطت . . فهم يساعدونى على النهوض وعندهم أمل كبير فى أن هذه عثرة فقط . . وليس سقوطاً سحيقاً . كيف حدث ذلك؟

كيف جاءهم هذا اليقين؟ هل هناك أية فائدة من هذه المعرفة . . هل هى درس . . هل هى عبرة . . هل إذا عدت إلى الحياة سوف أكون مختلفاً أتفادى كل الذى أصابنى . . هل نحن تعلمنا من تجاربنا . . هل هناك غلطة واحدة فى كل الحياة لا تتكرر . . هل لو عادت بنا الحياة إلى ما كانت عليه هل نصبح حكماء أو أننا سوف ننسى . . لنقع فى نفس الغلطة . . هل هذا هو الطبيعى أو أن خوفى هو الطبيعى . . هل أعود إلى كل ما هو غلط في العمل وفى النوم وفى الأكل . . إن الذين يدخلون السجون يخرجون منها أكثر حقدًا وقد يعودون إلى نفس الجريمة . . أى أنه سوف يعتاد الإجرام . . هل نحن سوف نعتاد على المرض . . أو على الاقتراب من الموت . . هل الموت هو الأقوى؟ وما الذى بقى من الموت فينا . . أليس الموت موجودًا فى أعماقنا . . ونحن نقترب منه كلما أوغلنا فى الحياة . . هل الانتحار هو الذى نواجهه الآن . . فنحن عرفنا الطريق إلى الموت . . أليس تجاهل هذا الطريق ومحاولة نسيانه ثم نسيانه نوعًا من الانتحار . . نوعًا من رفض الحياة والاتجاه شعوريًا إلى الموت . . إننى اليوم قد خالفت تعليمات الطبيب وأكلت طعامًا ممنوعًا . . مع أنه طعام لاقيمة له . . ونسيت أن أبتلع الأقراص فى موعدها . . وعندما جاءنى الطبيب فى الصباح يسألنى عن حالى لم أقل له أننى لم أنم الليلة الماضية . . أليس ذلك تضليلاً للطبيب . . أليس ذلك نوعاً من الاستهانة بالمرض . . أو الاستخفاف بالأطباء الجادين فى علاجى؟ أليس كلامى تزويرًا فى أوراقى الرسمية . . أليس ذلك نوعًا من المقاومة والعمل ضد نفسى لصالح الموت . . هم يريدوننى أن أعيش وأنا لا أريد ذلك . .

فأنا - إذن - قد بدأت العصيان . . التمرد على قيود الصحة . . والاستسلام للقوى المضادة للحياة . . أو هل هى المبالغة فى تقدير الأمان لأننى فى المستشفى وعلى مسافة قريبة جدًا من الأطباء والدواء . . هل لو كنت وحدى فى البيت بعيدًا عن أيدى الأطباء وعيون الممرضات هل أفعل هذا الذى فعلت؟ أنت أكثر تجربة فماذا تقول؟ وماذا ولماذا اعتدت المستشفيات؟ وماذا تريد بعد ذلك؟

فألقى الصحيفة على الأرض واستدار ناحيتى ليقول : إنها لعبة حافة الهاوية دون السقوط فيها . . إنها لعبة أن يعيش الإنسان فى خطر . . أليست هذه عبارة الفيلسوف نيتشه . . أن يعيش الإنسان فى خطر . . عند قمم البراكين . . أن يكون فوق . . فإذا مات فليكن فوق وباختياره . . إن استشعار الخطر لذة . . وأن الهرب منه لذة أخرى . .

- تقصد أن يكون الإنسان قريباً من الموت . . أو فى حالة بين الموت والحياة . . أن يكون مواطنًا فى أحد المستشفيات . . أن يسمع عن الدنيا ولا يشارك فيها . . أن يكون فى حالة انتظار للأطباء دون أن يستمع إلى نصائحهم . . أن يمارس ما كان يفعله زمان . . أن يكون ولا يكون . . هل هذا ما تريد؟ ولكن معنى ذلك ألا تكون هناك إرادة ولا عزيمة . وإلا يكون لك هدف . . وأن تنتهى حياتك بلا سبب . . بلا ثمن . . بلا قضية . . لمجرد التلاعب . . والحقيقة أنك لا تلعب وإنما أنت تجعل من نفسك (ألعوبة) . .

- إننى مختلف معك يا سيدى . . أنا قررت أن أكون هنا . . وألا أكون هناك . . تعبت من هناك ولا أريد أعود إلى هناك . . فأنا دخلت السجن وخرجت . . فلا أحد شعر بدخولى ولا احتفل

بخروجى . . وكذلك فى المستشفى . . والمستشفى ألطف من السجن . . وفى السجن لا تجد إلا وفرة من الاحتقار ، وهنا وفرة من العطف . . ففى السجن تبدو دائماً أنك المعتدى . . المجرم . . الآثم . . هنا تبدو دائماً أنك الضحية . . وأن الجهل بالطب هو الذى أتى بك إلى المستشفى . . ولكن احتقار القانون والناس هو الذى أودى بك إلى السجن . .

- دخلت السجن لماذا؟

- قصة تحتاج إلى وقت طويل . . فإذا عدت أنت إلى المستشفى مرة أخرى فسوف يكون عندنا وقت . .

- أعوذ بالله . . لا أريد أن أجىء هنا مرة أخرى . .

- ولكن هذا الذى تقول ضد الطبيعة . . فأنت لم تشف تماماً . . وأنت لن تستطيع أن تنفذ أوامر الأطباء حرفياً . . ثم أن أوامر الأطباء ليست هى القرار النهائى . . فالطب علم ليس دقيقاً . ومعلومات الأطباء تقريبية . . ولذلك فالعلاج تقريبى . . والشفاء ليس مؤكدًا . . وأنا حاولت فى المرات السابقة أن أنفذ تعاليم الأطباء ونجحت فى ذلك ولكن المرض له منطق آخر لم يعرفه الأطباء . . والأطباء أكثر دهشة منا إذا شفى أحد مرضاهم . . لأنهم لا يعرفون بالضبط ما الذى أصاب المريض . . فإذا رجعت فسوف يكون لنا كلام طويل . . أو إذا التقينا فى الجنة ، إن كانت هناك جنة . .

- إن كل الأديان تؤكد ذلك!

- أنا ليس لى دين . . أمى شيوعية ملحدة . . وأبى صار ملحدًا بفضل جهود أمى العظيمة . . واختلف أبى وأمى فى الدين الذى

يجب أن نعتنقه نحن أولادهم الخمسة . . واستقر رأى الأبوين على أن نختار نحن الدين والجنسية عندما نكبر . . فأنا فرنسى . . وأخى الأكبر ألمانى وأخى المتوسط إيطالى والأختان قد تزوجتا من رجلين من أسبانيا وتعيشان الآن فى الأرجنتين . . وأخى الأكبر كاثوليكى وأخى المتوسط بروتستانتى . . والمتحدث إليك ملحد . .

– أسألك سؤالاً ساذجاً . . هل وأنت مريض كنت تنظر إلى سقف الغرفة وتقول يارب!

– وأنت؟

– أريد أن أعرف ماذا كنت أقول وأنا مريض . . لا أعرف إن كنت قد طلبت من الله شفائي . . لأننى كنت فى غيبوبة ولكن الذى حولى لم يكفوا عن الصلاة والدعاء والبكاء . .

– وأنت تصدقهم . .

– نعم أصدق مشاعرهم وإيمانهم . .

– وهل أنت تتوجه إلى الله؟

– نعم .

– وتطلب منه أن يتم شفاءك؟

– نعم

– إذن أنت مؤمن؟

– نعم .

– وترى أن الله هو الذى شفاك؟

– نعم .

- لماذا؟
- لا أعلم .
- فهل هو الذى جعلك مريضاً ؟
- أنا الذى جعلت نفسى مريضاً . . والله يعلم كل ما كان ويكون وسوف يكون فى حياتى . . أنها أخطائى . . وجهلى . . وقدرى . .
- يعنى إيه؟
- من أخطائى أننى جلست طويلاً وكثيرًا إلى مكتبى طوال عمرى . . دون حركة . . ودون أن تعاطى السوائل . . وفعلت ذلك لجهلى بالطب . . وانشغلت فلم أسأل أحدًا من الأطباء . إن كانت حياتى هكذا صحية . . وإن كانت أوجاع ساقى وركبتى سببها الجلوس الطويل . . ثم إنه قدرى فقد عرفت أخيرًا أن دمى بالوراثة سريع التجلط . . بالوراثة من أمى . . أو من أمى وأبى . . ولا حيلة لى فى ذلك . . وعرفت أنه بسبب أننى أتغطى باللحاف صيفاً وشتاءً . . وأن العرق الكثير الذى أفرزه لا أعوضه بكثير من الماء والسوائل . . فهذا قدرى . . ومن الآن سوف يبدأ دور إرادتى وعزيمتى وحرصى على الحياة . . ومن الآن سوف أراعى كل ذلك حتى لا أقع مرة أخرى فى هوة الغياب والغيبوبة والمرض فلا أدرى إن كنت حياً أو ميتاً . .
- يعنى تريد أن تقول إنك سوف تكون الطبيب الحكيم . . وإنك لن تجىء إلى هنا مرة أخرى . .
- لا أقطع بذلك ولكن أتمنى ألا أجىء . .
- طبعًا أنت تعرف نظريات عالم النفس فرويد الذى يقول : إن

الموت غريزة كالحياة تماماً . . وإن المرض أيضاً كالصحة . . فنحن حريصون على الحياة حرصنا على الموت . . وعلى الصحة حرصنا على المرض . .

- إذن سأحاول . . ولا أظن أن كل الذين جاءوا إلى هنا هم من الذين اعتادوا المرض . .

- أكثرهم مات .

- وأقلهم عاش . . وأرجو أن أكون من هذه الأقلية .

ومن بعيد لمحت البروفسور رو شمور ومعه مستشارنا الطبى د . هانى هندى . . وبادرنى رو شمور بقوله : إنه يوم جميل . . السماء صافية . . والشمس ساطعة ووجهك أحسن من الأمس . . أنا سعيد جدًا . . عن أى شىء تتحدثان . .

- عن الجنة والنار . .

- عن الحياة بعد الحياة؟

- نعم .

- لا تنشغل بما بعد الحياة ، انشغل فقط بهذه الحياة والتمسك بها بعيدًا عن هذا المكان . . وأن هذه هى أحاديث الجالسين على عتبة الصحة . . ولكن الذين فى غرف الإنعاش لا يتحدثون مثلكم . . إنهم تحت الأرض فى ظلمة كالقبر . . أنتم محظوظون فلم تعودوا من سكان القبور . . وإنما أنتم من أهل الدنيا . . وقد ابتعدوا عنها ليعودوا إليها أكثر حرصًا عليها . .

وهز رأسه وازداد وجهه إشراقًا وصوته أكثر همسًا . . وابتعد كأنه سحابة بيضاء ذابت فيما لا نهاية له من السحب . .

٤

ارتديت ملابس نظيفة أنيقة . . أول مرة ألبس البنطلون والجاكتة والقميص . . وقبل ذلك كنت أتحرك بالروب فوق البجاما . . لأننى مريض . . أما اليوم فهو يوم جديد . . مثل يوم الإفراج عن السجناء . . يوم صدور الحكم بالبراءة . . يوم الخروج . . يوم العودة إلى حيث كنت ولكن أكثر عافية وأملاً . . وسعادة للذين حولى . . أما سعادتى أنا فلست قادرًا على الإحساس بها . . ولا بأشياء كثيرة . . فمشاعرى مؤجلة . . ومخاوفى مؤجلة . . وكل شىء قد وضعته على الرف . . فى الدرج . . أخفيته لكى أعود إليه فيما بعد . . فالمهم الآن هو أن أعرف رأى الطبيب . . فى الذى حدث . . وحتى لا يحدث مرة أخرى فما الذى يجب أن أفعله . . كيف أعمل . . أكل . . أنام . . أمشى . . وأية أدوية . . وأية تحاليل للدم . . وأية أشعة . . ما هى خريطة الحياة والصحة . . ما هى الطريقة التى تجعلنى أتحرك فيها بعيدًا عن المستشفى . .

وقبل الموعد جاءت الممرضة الشقراء فى ملابسها البيضاء وابتسامتها اللامعة تقول لى : البروفسور رو شمور فى انتظارك فى مكتبه بعد عشر دقائق . .

وجاءت زوجتى ود . جعفر رجب ود . هانى هندى ومساعدته السيدة منيرة واتجهنا جميعاً إلى مكتب د . رو شمور . . على أقدامنا . . على قدمى . . هذا هو الجديد . . فلا مقعد بعجلات يدفعه شاب لا أعرف اسمه ولا رسمه وليس من الضرورى . . فأنا بالنسبة له واجب يؤديه ولا يعرف من أنا . . ولا ما مرضى . . وإنما أنا مهمة يؤديها وبعدها يتجه إلى مهمة ثانية وثالثة ورابعة . . وفى الوقت المحدد كان يعيدنى إلى حيث كنت . . لا أعرف اسمه ولا ملامحه . . وليس من الضرورى . . فأنا بالنسبة له أنا حمولة . . شيلة . . لا أحد . . لا شىء . . وإنما واحد قد جلس على مقعد وواجبه هو أن يتخلص منى عند أقرب باب ويمضى إلى مقعد آخر . . وفى كثير من الأحيان أستعد بالجلوس على المقعد . . وأجد المقعد يتحرك فلا أنتظر لأعرف من الذى يدفعنى . . فلا هو مهم عندى ولا أنا عنده . .

وفى هذا اليوم لم أجد المقعد ولا جاء الشاب الجزائرى . . وجلست طول الوقت معتمدًا على ساقى . . وتحركت وحدى . . أتلقى التهنئة بالصحة والعافية وكل واحد يقول : عادت الدماء إلى وجهك والابتسامة أيضًا . .

وعلى الرغم من وجود مرآة فى غرفتى فإننى أمر بها ذهابًا وإيابًا دون أن أتوقف لحظة لأرى . . والذين يقولون لى : أنت الآن

أحسن . . طبعًا أنت عارف كيف كان لونك . .

والحقيقة أننى لم أعرف . . وإنما أنا أعلم حالتى من النظر إلى وجوه الذين حولى . . وإن كانوا يبالغون فى الذى كان وفى الذى هو الآن .

حتى هذه العبارة لا أعرف إن كانت صحيحة . . لأننى لم أر وجهى قبل اليوم ولا اليوم . .

ولكن مادمت أمشى على قدمى معتمدًا على نفسى ولا أتساند على الآخرين أو على الجدران ، إذن فأنا أحسن حالاً . .

وظهرت أمامنا لافتة مكتوب عليها اسم البروفسور روشمور أستاذ الصدر . . ودفعت الباب وأشارت السكرتيرة أن نجلس فى غرفة صغيرة . ومضت هى إلى الغرفة المقابلة تقول وتحدد المواعيد . . كم مضى من الوقت ، لا يهم طال الوقت أو قصر . . وجاءت تشير إلينا أن نذهب للقاء البروفسور فى مكتبه . . وأشرق وجه البروفسور . . والآن أراه بوضوح أكثر . . الوجه أبيض أحمر . . البشرة ناعمة كأنها لفتاة فى العشرين . والعينان لامعتان والأسنان أيضًا . . وهو لا يتكلم وإنما يهمس . . ولم يشأ أن يقول : إنه سعيد بهذا الإنجاز . . ولم يقل لى كيف كنت قريبًا من الموت . . وربما قال ذلك لزوجتى وللدكتور جعفر رجب ود . هانى هندى . . وإنما اكتفى بأن قال لى : إننى أحسن . . ومن الممكن أن تكون أحسن كثيرًا إذا نفذت التعليمات التى سوف يكتبها حالاً . .

ولم أنتظر حتى يكتب لى ذلك . . وإنما سألته مباشرة : قل لى يا دكتور . . كيف أعيش؟

- حياة عادية جدًا . .

- كيف أقرأ وأكتب . .

- بصورة عادية جداً . . وإذا جلست طويلاً ، فمن الواجب أن تنهض وتتمشى دقيقة أو دقيقتين وتعود إلى عملك . .

- ماذا أكل؟

- كل شىء . . ولكن عليك أن تقلل كثيرًا من تناولك لعسل النحل . . لأنه المسئول عن زيادة وزنك .

- ماذا أشرب؟

- أى شىء . .

- كيف أنام؟

- كالمعتاد . .

- ولكنى أنام قليلاً . .

- هذه الأيام؟

- طول عمرى .

- إذن عليك أن تنام كما كنت تنام طول عمرك . . هاها . .

- والمشى؟

- هذه هى القضية . . يجب أن تمشى كثيرًا . . ولو استطعت أن تقرأ وتكتب مشياً وأن تنام أيضاً ، فلا تتردد . . يجب أن تمشى ساعة يومياً على الأقل . . يجب أن تجد وسيلة للمشى . . بل يجب أن يكون المشى هو الإجراء الرئيسى لكل سلوكياتك منذ

هذه اللحظة .

- الآن أنا أسكن فى فندق ماريوت فى الشانزليزيه أكثر شوارع باريس تلوثًا . .

- لا تتوقف عن المشى . .

- فى هذا الشارع؟

- اخرج من باريس ساعة أو ساعتين لابد أن تمشى . . حتى لو كان ذلك فى داخل الفندق . . لابد . .

- هل أمضى فى تناول الطماطم عل الرغم من وجود فيتامين ك الذى يساعد على زيادة التجلط . .

- نعم . القليل منها . . ولماذا الطماطم؟

- لأننى نباتى وأسرف فى أكل الخضروات والطماطم بصفة خاصة . . وقلبى يا دكتور؟

- ماله؟

- سليم؟

- زى الحديد . .

- إذن ما هى نقطة الضعف عندى؟

- دمك!

- خفيف؟

- خفيف . . ولكن يصبح ثقيلاً بسرعة ما لم تنتظم فى تعاطى الأدوية التى تجعله خفيفًا . . أو التى لا تجعله خفيفًا جدًا ، فإذا

جرحت نزفت ، ولا ثقيلاً جداً ينتقل متجلطًا من مكان إلى مكان . . من مكان فى ساقك إلى أى مكان آخر فى القلب فى الرئتين فى المخ . . وبالمناسبة كل سنة وأنت طيب . . لقد قيل لى أن اليوم عيد ميلادك . . وهو عيد لميلاد جديد فعلاً . . فمبروك مرتين . .

- شكرًا يا دكتور . . أريد أن أعود إليك مرة أخرى قبل سفرى إلى القاهرة .

- بكل تأكيد . . وأنا فى انتظارك . . لا تتردد . ولا تتردد فى أن تكلمنى من القاهرة . . وأن تنقل تحياتى إلى الرئيس حسنى مبارك . .

- سوف أفعل .

واقترب د . هانى هندى من البروفسور وهمس فى أذنه . . فبسرعة قال لى د . رو شمور : فعلاً يجب أن تقول لزوارك أنك مازلت مريضاً حتى لا يطول جلوسهم وحديثهم معك . . لا تخجل . فالصحة أهم من هذه المجاملات . . أو من أن يتمتعوا بالحديث إليك . .

والتفت إلى زوجتى وطلب إليها أن تتشدد فى ذلك حتى لو كان يضايقنى . . ويضايق الزوار . .

صار البعيد قريبًا ..

كل شىء استرد اعتباره

أنا أصبحت أمشى وأقف وأمدد رجلى . . وأعتدل فى جلستى وأنحنى . . وإذا سمعت صوتاً أتجهت إليه بكل جسمى . . وإذا رأيت عصفوراً تابعته دون أن يكون هناك سبب أو هدف . . ولكنى فقط أريد أن أؤكد لنفسى أننى أصبحت إنساناً عادياً . .

والشجيرات لونها أخضر غامق . . وكان قبل ذلك أخضر قاتما أو أصفر باهتاً . . أوضباباً أو أشباح أشجار . . والورود استرجعت شذاها وفراشاتها . . وقطرات الندى لا تزال على أوراقها فالشمس لم تذبها بعد وترتفع بخاراً يتكثف فوق ويصبح سحاباً يسقط على أماكن أخرى . . وقبل ذلك لم أكن أرى المسافات بين الورود بوضوح . . وإنما كنت أرى مساحات وردية يختلط فيها الأحمر بالأصفر بالأبيض بالأزرق كأنها قطع من السحب سقطت . . لا

هى هبطت على الأرض ولا هى الورود تدرك نظراتى إليها فهى تتمايل وتتدلى وتتدلل . .

وقبل ذلك بأيام كنت ألمح مريضاً واحدًا جالسًا أو اثنين . . كأنهما تماثيل من الجبس الأبيض . . واليوم أرى كثيرين يتحركون ويبالغون فى الحركة وفى تحريك اليدين والعينين . . كل شىء الآن يزداد عدده ويتقارب كأنه يدعونى أن أسمعه أو أراه أو أحييه أو أشعر به . . رأيت مقاعد بلا مرضى . . ومرضى بلا مقاعد . . كلهم يمشون فى اتجاهات مختلفة . . هنا صارت حياة . . نهضة . . ثورة . . انفجارات حيوية لونية صوتية فى كل مكان . .

كل شىء فى حالة انضباط صوتى ولونى . . كأن الحديقة رياض أطفال . . الزهور أطفال والأشجار مدرسات يجعلن الأطفال فى انتظار السيد الوزير . . أو كبير الأطباء .

ومددت يدى ألمس الأزهار أتأكد إن كانت طبيعية أو صناعية . . أو إن كان عندى إحساس بشىء . . ثم أنفض يدى كأننى خشيت أن يظن أحد أننى قطفت وردة . . اغتلت وردة . .

ولمحت عصفوراً أبيض على أسود . . غريب لونه . . وطالت دهشتى . وقال جارى بالفرنسية المكسرة : أننى لم ألمح عصفوراً طوال الأسبوع الماضى .

فقلت : ولكنى أراها كل يوم . .

وقال : اليوم نعم . . ولكن أمس لم يكن هنا عصفور واحد . . (ضاحكاً) إن عندنا فى الريف اليونانى يعتقدون أن هذه العصافير

الغريبة والتى تجىء بلا مناسبة هى أرواح موتانا جاءت تذكرنا . . وتطلب منا الرحمة والدعاء . .

وفجأة ظهرت فراشة واقتربت ووقفت على رأسى . . فقلت له : ونحن فى الريف نرى أن هذه الفراشات هى أرواح موتى أعزاء علينا . . وهى الأخرى جاءت تطلب إلينا أن نترحم على موتانا وأن نصلى من أجلهم . .

فهز رأسه وقال : هذه العصافير والفراشات خرجت من أقفاصنا الصدرية . . إنها أوهامنا . . خرافات لا تزال قوية تتحدى كل ما لدينا من علم . . ومعنى ذلك أن الإنسان لا يزال بدائيا خائفا من القدر . . من الموت . . وهو الذى اخترع صور الحياة الآن والحياة بعد الموت . . وهذه الفراشات والعصافير وأحيانا القطط السوداء . . كلها من صنعنا . . فنحن قلنا إن هناك حياة بعد الموت . . وما دام هذا رأينا فلابد أن الحياة بعد الموت تبعث إلينا بصور من الحياة . . برسل . . بمندوبين . . برسائل . هذه الرسائل هى أنهم فى حاجة إلينا . . أى أننا أقوى لأننا أحياء . . وهم أضعف لأنهم موتى . . هذا كل ما هناك . .

وسألته : ما رأيك فى الأحلام . . أو الرؤى . . هذا الذى نراه ونسمعه فإذا صحونا وجدنا شيئاً شبيهاً بالذى رأيناه . . أليست هناك حياة غير هذه الحياة أليست هناك صورة من الحياة أو درجة من الحياة . . فليس هناك موت تام . . وإنما هناك درجة من درجات الموت . . أى درجة من درجات الحياة أيضا . . هذه الحياة تنعكس على أحلامنا أثناء النوم . . وعالم النفس فرويد يقول إن الإنسان

يحلم كل يوم . . ولولا الحلم مــا نام أحــد . . لأن الحلم يحــقق للإنسان له ما لم يتحقق فى صحوه . . ما لم يتحقق وهو يقظان . . وعدم تحقق مثل هذه الأشياء يضايقه ويكاد يمنعه من النوم . . فيجىء الحلم تعويضاً وتخفيفاً لما كان يريده أو يتمناه أى إنسان . . وهذه الأحلام هى قلق الإنسان . . فزع الإنسان من الوحدة فتجىء هذه الرؤى تطمئنه على ذلك . . فيشعر بالسعادة فى النهاية . . ولكن الغريب هو كيف أن هذه الرؤى تتحقق فى الواقع . . بعض الناس يؤكد أن ما رآه فى النوم هو بالضبط ما صادفه فى اليقظة . . فهل العكس هو الذى حدث . . إنه حدث فى الواقع شىء كان يتمناه . . وخيل إليه أنه رأى ذلك من قبل . . أو صورة منه . . وأن هذه الصورة كانت فى أحلامه . .

ووقف جارى وأحسست أنه من الضرورى أن أقف أيضاً ، فأنا أستطيع الوقوف . . ودعوته إلى أن نتمشى كما كان يفعل سقراط وأرسطو . . والتفت ناحيتى واتخذ شكل أرسطو ووضع يديه على كتفى كأنه أب . . أو كأنه الطبيب وأنا المريض أو كأنه الأستاذ وأنا الطالب : أنت أدخلتنى فى الموضوع الذى كنت أريد أن أناقشه . . وجاء الدخول ناعماً بارعاً . . أنا كنت أريد أن أناقش معك : هل هناك أشكال أخرى من الحياة . . حياة البشر وحياة الأرواح والملائكة والشياطين . . وأصداء حياة الموتى على حياتنا وفى أحلامنا . . تماماً كما يحدث لنا الآن نحن على يقين من أن هناك كائنات عاقلة فى كواكب أخرى . . ولذلك نحاول أن نبعث لهم برسائل فى سفن فضاء . . وهذه الكائنات العاملة تؤكد لنا

أنهم يعرفون أننا هنا . . وقد تركوا آثاراً فى أماكن مختلفة من العالم . . نقوشا وتماثيل وأدوات ذهبية ومعدنية وخرائط . . وكلها تقول شيئاً واحداً أنها جاءت وذهبت . . لماذا؟ وكيف؟ لا نعرف . ولكن جاءوا وتركوا آثارهم . . وآثارهم هى رسائل لنا تؤكد أنهم كانوا هنا . . وفى الكتب القديمة ما يؤكد هذه المعانى . . فهم موجودون ولكن بعيداً . . كأنهم موجودون وغير موجودين أيضاً . أو أن وجودهم يتردد على أرضنا كل خمسين ألف سنة . . ولكنهم هناك ونحن نحاول أن نؤكد لهم ذلك : إننا هنا وإنهم هناك . . وهم يحاولون أن يؤكدوا لنا : أنهم هناك وأننا هنا . . وأذكر أننى قرأت رواية (عمال البحار) للأديب الفرنسى فكتور هيجو . . ففيها يقول إن كل بيئة لها نوع خاص من المخلوقات . . ففى الهواء طيور وفى البحر أسماك وعلى الأرض حيوانات وإنسان وأشجار . . وكلما صارت البيئة رقيقة صارت حيواناتها كذلك . . فالهواء والضياء لها الأرواح والأشباح والملائكة والشياطين . . وكانت هناك كائنات دقيقة تبلغ طولها واحدًا على ألف مليون من المليمتر . . ونحن لا نراها ولكنها موجودة . . تماماً كما أننا لا نشعر بكل الموجات الصوتية والكهربية الموجودة فى هذه الحديقة الصغيرة أو فى الغرفة . . لا نحس بها . . ولكنها موجودة . . والعلم الحديث قد كشف لنا أن هناك كائنات ضئيلة يبلغ طولها وعرضها واحداً على ألف مليون من المليمتر . . هل نستطيع أن نتخيل ذلك . . ثم إن العلم الحديث قد سجل سرعة انقسامها ، فوجد أنها تتحرك بسرعة

واحد على ألف مليون من الثانية؟! هل نستطيع أن نتصور شيئاً من ذلك . والمعنى أننا لا نرى أعماق الكون ولا نرى أعماق الوجود الإنسانى والحيوانى وما تحت الإنسانى وما فوقه أيضاً . . فنحن لا نراها ، وغير قادرين ، ولا نسمعها وغير قادرين إلا بالأجهزة الحديثة . . فالكلب مثلاً يستطيع أن يتبين مليون رائحة . . من الروائح الموجودة فى الجو . . تماماً كما أن الراديو يستطيع أن يلتقط موجة واحدة لها طول واحد من بين ألوف الموجات فى الغرفة . . ثم إن الصقر يستطيع وهو يطير على ارتفاع ألف متر أن يرى دودة تحت حجر . . ويسجل حركتها . . فإذا كانت ميتة فإنه لا ينقض عليها . . ثم إن الأسماك تستطيع أن تبدأ رحلتها التى تبلغ خمسة آلاف كيلو متر فى اتجاه دقيق نحو المكان الذى ولدت فيه فى العام الماضى لكى تضع بيضها فى نفس المكان . . والقول بأن الانسان هو وحده الموجود تشبه ما تقوله الأسماك من أنها وحدها الموجودة وما تقوله العصافير . . تسمح لى أذهب إلى أبعد من ذلك ما دمنا قد غرقنا فى الفلسفة . . فنحن عندما نقول إنك رأيت فى المنام ، فبأى شىء رأيت . . أنك لم تر بعينيك . ولم تسمع بأذنيك . . فقد كنت نائما . . إذن هناك عين أخرى وأذن أخرى ترى وتسمع بها . . نرى بها ما ليس مرأيا ونسمع بها ما ليس مسموعا . ولكننا رأينا وسمعنا . . وقد تقول : إننا مرضى . . ولذلك نحن نهلوس . . ولكنها ليست هلوسة إننا نتذكر فقط ما كنا نشعر به قبل دخولنا هذا السجن العلاجى أو هذه القلعة الصحية . .

وأشار بأن نجلس . وجلسنا . وقال : أنا قلت لك إننى ملحد . .

ولكننى فى حيرة لأ ننى أكاد أرى أمى وأبى كل يوم . . ولا أعرف كيف يحدث ذلك . . بل أكاد أراهما يتجهان ناحيتى ويشيران باليدين أو العينين . . ولا أعرف ما المعنى؟ . . ولكن ثبت بالتجربة أنه فى كل مرة أراهما لابد أن شيئًا سوف يحدث . . ولكى أكون واضحاً أقول لك : أننى فى كل مرة أرى أمى أمامى أو أتوهم ذلك فإن شيئاً يسعدنى سوف يحدث . . وإذا رأيت أبى فهو يحذرنى من شىء يضايقنى سوف يحدث . والذى لا أعرف تفسيرا له أن هذا بالضبط ما يحدث . . وبسرعة غريبة . حتى اعتدت على هذه البشارة أو هذا التحذير . . والغريب أنه رغم معرفتى بذلك مقدمًا ، فإننى أفاجأ بما سوف يحدث . ويحدث تماما . وقد استسلمت لهذه الحالات العجيبة . . وأذكر أننى فى إحدى المرات رأيت أو تخيلت أننى رأيت صورة أبى وملامحه تؤكد لى أن شيئاً مزعجاً سوف يحدث فصرخت . ما الذى تريده منى يا أبى أرحمنى! ولحسن حظى كنت نائماً فى الفراش فانزعجت زوجتى وأيقظتنى ظناً أنه كابوس . . ولم يكن كابوساً فأنا لم أكن قد نمت بعد . . وفى هذه الليلة تخانقت مع زوجتى . وجاءت الخناقة بلا مبرر قوى . ولا علاقة مطلقاً لما حدث بما رأيت . ولكن بعد أن تخانقت تذكرت أننى رأيت صورة أبى . . وأذكر أننى رأيت أمى على النحو الذى حدثتك عنه . . وظهرت الابتسامة على وجهى أنا . ولم أعرف ما هذا الحدث السعيد . . ولكن كنت فى حالة انتظار وترحيب بما سوف يحدث . . ولم تمض دقائق حتى أحسست بشىء تحت حذائى . . وانحنيت أرى . . لقد كان مفتاح صندوقى الذى كان ضائعًا . وفى هذا الصندوق كل مشروعات أبحاثى وقد تركتها

على شكل كراريس وأوراق . . ولم أشأ أن أكسر الصندوق لعلى أهتدى بذاكرتى إلى أين وضعته . . أو أين أخفيته . .

واستأذنته فى أن أكمل ما قلت وفى نفس الوقت غير منكر ولا مستنكر لما قال : هل الأشياء حولنا لها أثر على مشاعرنا . . هل لها لغة . . غير أن تعكس الضوء أو تعكس الصوت مثلاً . . هل هناك (لغة) بين كل الأشياء . . الأحياء والأموات . . هل هذا ما قصده الفراعنة - مثلا - عندما كانت لمقابرهم أثرها السيئ على كل الذين يتهجمون على هدوئها الأبدى وصمتها المقدس؟ . . إن الكاتب الإنجليزى كونان دويل له حكاية . . الحكاية تقول إن شخصاً كان قد استأجر غرفة . وأفزعه أنه يرى حلما واحدًا كل ليلة . . يرى جريمة قتل . . سيدة تقتل زوجها بسكين . وبعد أن تقتله تلعق السكين بلسانها وتتمدد على الفراش ليجىء ذئب يأكلها! والذى أفزعه هو جريمة القتل وأنها تلعق السكين وأن ذئباً يعاقبها على ذلك . . وسأل الرجل صاحب البيت أن كان أحد قبله قد روى له شيئًا من ذلك . . ولما كان هذا الرجل من المشتغلين بالآثار ، فلم يستبعد أن تكون هذه الجريمة قد حدثت بالفعل . . وأن بقايا الجريمة موجودة فى الغرفة . . أو أن هناك نوعاً من الوجود لها . وراح يقلب فى الفراش . . ثم ينقب تحت أرض الغرفة . . وأخيرًا وجد السكين الذى رآه فى الحلم . . واهتدى مع أهل القرية وشيوخها إلى أنه فعلا ارتكبت جريمة فى هذه الغرفة . . وأن تفاصيل الجريمة بالضبط كما رواها عالم الآثار . . إذن هذه السكين هى التى عكست حكايتها على عقل هذا الرجل . وروتها بمنتهى الدقة . . كيف احتفظت بالجريمة ، وكيف نقلتها . . وبأية لغة . .

فهى لم تنقل كلاما وإنما نقلت صوراً وتسلسلاً منطقياً للأحداث . كيف؟ والفراعنة لابد أنهم كانوا يعرفون أن هناك لغة بين الأحجار والموتى وأدوات الطعام . وأن هذه الأشياء قد لقنها الكهنة أن تحمى هدوء الموتى وتحرس صمتهم ولقنوها أيضا أن تعتدى على كل من يعتدى عليها . . فالأشياء عندها تعليمات بأن تفعل كذا وكذا . . كيف؟ أن علماء فرنسا قد أثبتوا أيضاً أن هناك لغات كونية بين الأشياء وبين الناس . . وقد سجلت الكاميرات أن الزهور لها لغة تبعث بها بعضها لبعض عندما تقترب فراشة . . وعندما يقترب كلب . . والرسائل مختلفة . . وعندما يقطف إنسان وردة فإنها تبكى . . والصور التى التقطوها تؤكد ذلك . . وأن الزهور تنتعش إذا كانت هناك موسيقى وتذبل إذا كانت هناك ضوضاء أو صراخ أو بكاء . . ولذلك تقول سيدات كثيرات إن حياتها اليومية معكوسة على زهورها . . فالزهور تشاركها الفرح والحزن . . وهن على يقين من ذلك . . والعلماء أيضا .

- يعنى تريد أن تقول إن الزهور حولنا سعيدة بنا . . كما أننا سعداء بها . . وأن زهور الحدائق غير زهور المقابر . . وزهور على نعش الميت . . غير الزهور أمام (كوشة) العروس . .

قلت : أمير شعرائنا يقول : الموت بالزهر مثل الموت بالفحم . . أى أن الموت واحد . . والمعنى الحديث لهذا البيت أن الزهور التى يضعها إنسان حين يموت تتخذ شكل الموت . . أو شكل القاتل . . وأنها تفرز ثانى أوكسيد الكربون حتى تقتله . .

وبدأ الإعياء يظهر علينا نحن الاثنين وفى نفس الوقت قد

أنعشتنا هذه المناقشة الفلسفية . . قال : أنا عندما أنظر إلى الأسباب التى كادت تودى بحياتى فإننى أجدها مضحكة . يعنى موتى كان ولا يزال نكتة من النكت . . فعندنا قطة وهذه القطة أغضبتها زوجتى . . فهربت منها إلى أحد المخازن . . وذهبت أنقذها وأصالحها . . ولكنها ذهبت إلى أعماق المخزن . وفى المخزن أنابيب البوتاجاز . . والرائحة قوية وهذا دليل على أن هناك تسربا فى الأنابيب . . وهذا ما جعل زوجتى على حق عندما طردت الخادمة التى تتهاون كثيراً فى إغلاق أنابيب البوتاجاز . . ورغم أننى أعرف خطورة البقاء طويلاً فى هذا المخزن . . فإن إصرارى على إنقاذ القطة هو الذى أتى بى إلى المستشفى . . فأنا عندما أصبت بالإغماء صرخت على زوجتى لعلها تسمعنى . . وهربت القطة إلى هواء منعش . . بينما ظللت ملقى على الأرض حتى نقلونى إلى هنا فاقد الوعى . . منعدم الأوكسجين فى الصدر . . ولما سألونى : ما الذى حدث لك قلت : قطة . . فضحك الطبيب والممرضات . . وكانوا يقولون : القطة لها سبعة أرواح . . وأنت لك عمر واحد . .

وقلت : كلامك مضحك . . إننا نعيش مأساة ونموت نكتة . . وأنا حكايتى مثل حكايتك . . فقد قررت أن أفرغ من كتاب فى وقت أنا حددته . . وجلست طويلاً وبلا حركة وبلا سوائل فظهرت جلطة فى ساقى . . هذه الجلطة انفجرت فى أماكن كثيرة ليس من بينها العقل والقلب . وكلما نظرت ورائى شعرت بسخافة هذا القرار . . ماذا يحدث لو فرغت من الكتاب فى ضعف الوقت الذى حددته . . أو لم أكتب الكتاب نهائياً . . وكيف استغرقتنى الكتابة حتى الموت . .

أو قريباً من الموت . . ولكن يبدو أن كثيرين سبقونا فكان موتهم أضحوكة العصور . . وبعض مآسيهم لا يصدقها العقل . . ويبدو أنهم امعنوا فى السخرية منا ومن الحياة ومن الموت معاً .

فالشاعر الإغريقى تربانذر كان يغنى فرماه أحد المستمعين بسمكة دخلت فمه واستقرت فى حلقه حتى مات !

والمؤلف المسرحى اسكيلوس كان جالساً عندما سقطت فوق دماغه سلحفاة أصابته بارتجاج فى المخ ومات . . هذه السلحفاة كان قد اصطادها أحد النسور فأفلتت من مخالبه !

والأديب يوربيدس كان شديد السخرية بالنساء فهاجمته وضربته حتى مات . . ويقال إن عدداً من النساء قد أطلقن عليه عشرين كلباً مزقته حتى مات !

والفيلسوف العظيم أرسطو كانت عنده نظرية بأن الماء يتحرك أربع عشرة مرة فى اليوم . . فنزل فى بحر إيجة ليرى ذلك بنفسه فغرق ؟!

والعراف الإغريقى كلمانس ظل يضحك حتى مات!
والفيلسوف لوكريشيوس أعطوه بعض المنشطات الجنسية فأسرف فى تعاطيها حتى مات فى الأربعين!

والشاعر الصينى (لى يو) نزل إلى البحر ليحطم صورة القمر فغرق . .

والنكتة القديمة أن الشاعر الإيطالى بتراركه كان مريضاً فظنوه قد مات فدفنوه وصحا من قبره وعاش بعد ذلك ثلاثين عاماً . .

والفيلسوف الإنجليزى بيكون أراد أن يعرف حدود قدرة الإنسان على تحمل برودة الجليد فقد أراد أن يعرف درجة البرودة التى تؤدى إلى حفظ الطعام من التعفن فمات من شدة البرد !

والشاعر الإنجليزى بيرون سحب الأطباء أربعة كيلو جرامات من دمه ، عند إصابته بالملاريا . فقد كان أخذ الدم من جسم المريض هو العلاج فى ذلك الوقت . . وسحبوا كل دمه حتى مات!

والشاعر الألمانى تومل طلب أن يدفنوه فى شجرة . . ولا تزال الشجرة موجودة حتى الآن . .

والشاعر الإنجليزى ثاكرى والشاعر المصرى كامل الشناوى ماتا من كثرة الطعام . .

والأديب الأمريكى مارك توين ولد عند ظهور المذنب هيلى سنة ١٨٥٣ فقال إنه سوف يموت إذا ظهر مرة أخرى . ومات سنة ١٩١٠ . . عندما ظهر المذنب هيلى .

والأديب الروسى تولستوى هرب من زوجته ومات فى إحدى محطات السكك الحديدية . .

وأمير الشعراء الألمان هيلدرلن والفيلسوف الألمانى نيتشه والأديبة مى زيادة : ماتوا فى مستشفى الأمراض العقلية .

والشاعران الروسيان بوشكن ولرمنتوف قد ماتا أثناء معركة بالسيوف .

والشاعر الروسى استنين قد قطع شرياناً ونزف دماً وكتب آخر قصائده ومات !

والزعيم الروسى خروشوف مات فى إحدى الحدائق يستمع إلى راديو هدية من الرئيس عبدالناصر . .

والشاعر أمرؤ القيس أعطوه ثوباً مسموماً فمات به أو مات فيه!

والشاعر الألمانى رلكه والأديب المصرى صلاح ذهنى ماتا من شكة وردة فأصابتهما بسرطان الدم . .

والفيلسوف الإنجليزى رسل وكذلك الفرد نوبل صاحب جائزة نوبل قد قرأ كل منهما نعيه وهو ما يزال حيا .

وكذلك الأديب الأمريكى مارك توين . ولكن مارك توين عندما قرأ نعيه قال : الذى قرأته عنى كان فيه الكثير من المبالغة . . فلست بهذه العظمة التى تحدثوا عنها!

ولا أعرف كيف انصرفنا أو انفرطنا . . وإنما كنا مثل يدين تشابكتا مدة طويلة . . وتعبت اليدان والأصابع فتساقطت اليدان والذراعان ونفدت الطاقة وعاودنا الإرهاق . . ومضى كل منا فى طريق . أنا أريد أن أنام وهو يريد أن يستأذن فى أن يشرب مزيدًا من الخمر والحبوب المنومة معاً . . وكنت أفكر فى الذى سوف أفعله والذى سوف يفعله . . وسقطت هذه الفكرة وهذه المقارنة . . فكما تعبت أصابع يدى تعبت أيضًا أصابع ذاكرتى . . وكلما حاولت أن أتذكر شيئًا لا أستطيع . . وكما استردت الأشياء أحجامها وألوانها وأشكالها ، ذابت بعضها فى بعض وأكلت الألوان نفسها . . وعادت السحب إلى الأرض ستائر ضبابية . ووجدت المسافة قد طالت بين الحديقة وغرفتى . . وتساندت على الجدار . . وانتظرت

أن تنقلنى عربة بعجلات . ولم تأت العربة . . وهبت فى داخلى ثورة مفاجئة على كسلى وبلادتى واستسلامى لحالة من المرض . . وبسرعة ابتعدت عن الجدار واتجهت إلى الممر الطويل اللامع إلى غرفتى . . وسألتنى الممرضة إن كنت أتناول طعامى الآن وأعطتنى أسماء الذين سألوا عنى . . لم أرد . . وإنما اتجهت إلى السرير . . ونمت . .

هل لأننى ابتعدت عن الموت . . عن (جو) الموت فى المستشفى . . الوجوه الصفراء والسيقان المهتزة والعيون الزائغة والتساند على الجدران والملابس البيضاء للممرضات والأطباء ورائحة الدواء . والبرودة فى الجدران والأرض والهواء والوجوه . . هل لأننى ابتعدت عن غرفة الإنعاش . . هل لهذه الأسباب ذهبت بعيداً فى شوارع باريس . . المهم أن أكون بعيداً وأن أنظر إلى المستشفى من بعيد . . وإلى العمارات والكنائس . . المستشفى لونها قديم . . تاريخ مصنوع من الحجارة والأمطار والصلابة ولكنها حصن الصحة وقلعة العافية . .

وذهبت مع الأستاذ عبدالله حسن مدير أنباء الشرق الأوسط إلى أى مكان . . وعبدالله شديد المرح ، كل شىء يجعله يضحك ويتفجر بالحيوية والرقة . . ومع الأديب شريف الشوباشى مدير مكتب الأهرام فى باريس . . ومع د . أحمد يوسف المحرر بمكتب الأهرام وهو عاشق ولهان لكل ما هو قديم فى باريس . . فمن الممكن أن يمر على ناطحة سحاب دون أن يلتفت إليها . . ولكن إذا

تعثر فى طوبة ساقطة من عمارة قديمة ينبهر كما انبهر شامبليون عند رؤية (حجر رشيد) .

وكذلك مع نقيب النوبيين فى باريس . لقد أدهشنى هذا الرجل فقد تلقى توصيات من نقباء أبناء النوبة فى لندن ومدريد وروما وطلبوا إليه أن يبعث لى باسمهم باقة من الورد . فهم لا ينسون ما كتبته عن حضارة النوبة . وأن النوبة هى أم الحضارة الفرعونية . . وأن أخناتون ونفرتيتى ونفرتارى وحتشبسوت كلهم من أبناء النوبة . . وأننى أحب الأغانى النوبية فهى تشبه أغانى أبناء أرمنيا وأبناء اليمن وأبناء جنوب إيطاليا : فكلها حزينة شجية . . لأنها صدى الشعوب التى لها قضية . والقضية لم تجد لها حلاً . فهى أغانى الحزن بلا يأس ، أو أغانى الأمل الجريح .

وكنت فى السيارة أفتح النافذة وأتعرض للهواء كما كنت أفعل من قبل ، فكأننى نجوت نهائياً من الإصابة بالبرد أو الزكام أو أى مرض آخر . . وإذا نزلت من السيارة بالغت فى حركاتى . . أفتح الباب بشدة وأغلقه بشدة وأقفز من السيارة غزالاً أو عصفوراً . وإذا مرت واحدة جميلة . وما أكثر الجميلات فى باريس - وجهت إليها نظرة فابتسامة وسلاماً . ويكون الرد ابتسامة عادة - فليس هكذا من الممكن أن تكون علاقة ، لا بهذه السرعة ولا بهذه الطريقة . ومن المؤكد أن أية فتاة ترى أننى عجوز يتصابى أو مريض يتعافى . . والحقيقة أنها لا تعرف الحقيقة . . فأنا فقط حديث العهد بالصحة والعافية . . ولست جريئاً ولا ذئباً ضارياً . . وإنما

أتظاهر بالذئب وأخفى الحمل . كل هذا يدور فى داخلى ، وأنا أتحرك مطبق العينين . .

وأنت فى باريس تستطيع أن تمشى مطبق العينين دون خوف من السقوط فى بالوعات القاهرة أو مطبات شوارعها أو انقراض أرصفتها . . فباريس التى يج أن تمشى فيها مفتوح العينين لا تجد داعياً لذلك . . والقاهرة التى تمشى فيها مفتوح العينين لا تجد داعياً لذلك . . فعلى أى شىء تفتح عينيك؟ على الأرض القذرة والأرصفة المنهارة . . أو على الحفر والزبالة - حسرتى على القاهرة بعدد سكان كوكب الأرض!

قلت للسائق : أذهب إلى أى مكان تراه . . انطلق بلا هدف . . طبعا هذا كلام سخيف لسائق يجب أن يكون له هدف . . فليس فى باريس شىء جديد بالنسبة له . . وإنما الشوارع يجب أن تكون سبيلاً إلى هدف . أما الشوارع وما قام على جانبيها فلا تهمه . . وإنما تهم الذى لا يقود سيارة ويريد أن يرى ويتفرج . . ولكى أريحه قلت له : أفرض إن معك شخصاً هبط من كوكب آخر ويريدك أن تدله على أماكن الجمال والفن والعلم فى باريس . .

وكان كلامى مبعثاً للحيرة والقلق . فهو رجل مشغول بطرق وأهداف . وليس يريد أن يتسكع بعينيه ولا أن يمسح الشوارع بحذاء ألمانى من الجلد الغليظ ، ولا تهمه البنات الجميلات ولا الزهور ولا الورود . ولا رائحة البن الطازة تنفخ الأنف وتشعل النار فى القلب وتنعش الذكريات . .

□ □ □

آه . . على تلك الأيام من سنة ١٩٥٠ عندما جئت هنا لأول مرة . . لا أعرف كيف كانت باريس . . ولكن أعرف كيف كنت أنا . . كنت صغيراً واسع العينين والأذنين والقلب والعقل . . كل مشاعرى مثل أكفّ مفتوحة للجمال والذوق والمعرفة . . كل شىء يدخل ليبقى . وكل ما بقى ينتظر أن أعبر عنه والذى أقوله لنفسى أكتبه ، والذى أكتبه أنشره . . وأحس أننى لست واحداً . . وإنما أنا موفد من ملايين الشبان أرى لهم وأسمع وأضع أصابعى وأصابعهم على نعيم الدنيا . . آه هنا الآن فى هذا المكان من حى باريس حيث يعيش المغاربة قابلت الأديبة الفرنسية رينيه لافورج . . هى التى سألتنى : أنت أسبانى؟ فقلت : مصرى . .

- وتعرف الفرنسية

- نعم والإيطالية . .

- عندك مانع

- لا . .

ولم تكمل جملتها . فليس عندى مانع . وجلسنا . دعنى أصف لك رينيه إنها ذات ملامح أوسطية . . سمراء غليظة الحاجبين والشفتين زرقاء العينين . . إذا تكلمت اهتزت كلها . . كأن الذى يتكلم فى داخلها اثنان من المصارعين . . وتقول بانفعال شديد : هل تعلم أنني عندما خرجت من البيت قلت لنفسى سوف أقابل شاباً لطيفاً . .

- وكل يوم تقولين لنفسك ذلك عندما تقفين على باب البيت . .

- نعم .

- وكل يوم تجدين واحدًا جديدًا .

- نعم .

- اذن أنت تعرفين كل الذين نراهم الآن . . مع أن أحدًا منهم لا يهز رأسه للتحية . .

- صحيح . . ولكن أنت لا تعرف الحقيقة . . وهو أن هؤلاء جميعاً مثلى . يتعاملون ويتكلمون ويجلسون وينصرفون . وكل ما هناك أننا نشعر بالملل . . ونضيق بالجلوس وحدنا . . فنتمنى أن نجد أحدًا يشاركنا فى ذبح الوحدة واغتيال الصمت . .

- أليس هناك شىء آخر يمكن عمله . .

- هناك أشياء كثيرة . ولكن لابد أن نتهيأ لذلك . . أن نتهيأ نفسياً لنجد هدفاً . . شيئاً . . شخصاً ندور حوله أفكارنا أو مشاعرنا .

- وبعد ذلك . .

- أنا أرسم وأعزف على الكمان وأنا فى بعثة دراسية هنا من أسبانيا . . وأنت؟

- سائح . . صحفى . .

- أحسن حالاً منى . . فأنت حر ترى وتقرأ وتكتب ولا ترتبط بأحد لأنك على سفر . . وكالمسافرين فى الطائرة لهم أوزان لا يزيدون عنها . . وأنت كم وزنك .

- وزنى ٦٨ كيلو جراما وحقيبتى وزنها خمسة كيلو جرامات . .

- فى استطاعتك أن تضعنى فى حقيبتك ولا تكون متجاوزاً للوزن الرسمى . .

- وأنت كم وزنك؟

- ألا ترى أن الحوار قد اتخذ مساراً سخيفاً .

- معك حق . ولكنى لم أقل لك كم وزنى إذا أضفت إليه الذى أملكه أنا وأسرتى . .

- كم وزنكم جميعاً ؟

- ملايين

- ملايين ماذا؟

- ملايين الأطنان؟

- وأنا أيضاً فوزنى أنا والأهرامات وأبو الهول ومعبد الكرنك!

- معك حق .

- ووراء كل ذلك ما لا وزن له . . أو ما لا يقدر الوزن ولا بطول ولا عرض .

- قلبك؟

- نعم . .

- دعنى أحدثك من قلبى لقلبك . .

- . . .

- . . .

❑ ❑ ❑

وهنا وعلى هذا المقهى فى (سان جرمان دبريه) . . هنا الطلبة والشباب والعلم والمستقبل والجمال والروعة والعمق والقلب ووجع القلب وصداع العقل . . هنا شباب خرج من الكتب ليعود بها ويعود إليها ويخرج بها علينا . . فكل من تقع عليه العين وما يدخل الأذن شباب . .

لم أجد إلا مقعدًا واحدًا فى أحد الأركان واستأذنت الجالسة وقلت لها : هل تسمحين . . لعلك تلاحظين أنه لا يوجد إلا هذا المقعد . .

إنما أردت أن أدفع عن نفسى تهمة أننى تعمدت أن أجلس بجوارها . . وكأنها تعرف ذلك . . أو لا يضايقها أن يكون هدفى أن أجلس إليها ، فهزت رأسها بما لا معنى له . .

هل تضايقت أنا ؟ نعم قليلا . فقد كنت أتوقع ابتسامة منها . . ابتسامة تدعونى . . وإنما هزت رأسها تطردنى بعيدًا أو توقفنى عند حدى . . وجلست عند حدى . . ولم أقل . . وسرحت . والجو خانق . . سجائر وربما سجائر حشيش . . وضوضاء ورائحة البيرة ورائحة النبيذ وروائح أخرى لا أعرفها . . ولكن هذا هو (جو) باريس!! . . وقبول هذا الجو هو شرط البقاء هنا . . وكنت على يقين من أننى لن أبقى هنا طويلا . . فالجو أعنفُ من احتمالى!! . . وجاء الجرسون وقلت : اسبرسو من فضلك .

وبسرعة جاءت القهوة . ووقف ينتظر الحساب . . ولا أعرف لماذا أخرجت كل ما معى من فلوسى وجواز سفرى . . والمعنى أننى أجنبى وعندى فلوس . . وكل ذلك يدل على أننى أحسست فجأة

أننى غريب . . وأننى صغير . . وسحبت هذا الاحتياطى من القوة - قوة أننى أجنبى وأن أى خطأ أرتكبه مقبول لأننى لا أعرف . . ثم أننى لست مثلها طالبا كحيانا غلبانا . . ولذلك كانت الفلوس معى . . وأسعدنى أن يقول الجرسون : سوف أعود إليك . فليست عندى فكة . . فالأوراق المالية كبيرة . . وبسرعة أخرجت الفتاة من بنطلونها المبلغ المطلوب ودفعت البقشيش . وبدأ الكلام بيننا وطال عشرين يوماً . .

□ □ □

أما هنا أمام مكتب الخطوط الإيطالية فكان لقائى بطالبة بجامعة روما تتخصص فى الأدب الفرنسى المعاصر . . وكانت لها ملامح السائحين الأجانب : بنطلون وبلوزة وكاميرا وشنطة بها سندوتشات وزجاجة نبيذ . وأقلام وكراريس صغيرة . وكلما وقفت أمام أحد معالم باريس أخرجت الكتاب الذى يرشد السائحين والخريطة وأمسكت القلم وكتبت فى مذكراتها . . وكأننا على موعد . وكأننا اتفقنا على كل شىء . فقد تركتها تذهب بى إلى حيث تريد . . وأوقفت سيارتها وقالت : الآن هذا مكان يهمك جداً . . فهناك أطول ممر فى باريس كلها . . وكان هنا فى الزمان القديم دير اسمه (فييى ديو) أى بنات الله ولسبب ليس معروفاً اتخذ هذا الشارع وهذه المنطقة اسم (سوق القاهرة) ويقال أنه فى الوقت الذى رسا فيه أسطول نابليون بشاطئ الإسكندرية سنة ١٧٩٨ قد اختاروا هذا الاسم . ومن الغريب أنه لا يوجد أى شىء فى هذه المنطقة من شارع (سان دنيس) ما يدل على أنه مصرى . .

لا العمارات ولا الآثار وهنا توجد تماثيل لها أنوف بارزة - ولكن هذه الأنوف مهما طالت وبرزت فهى لا تدل على أنها مصرية . . ربما كان الفنان الذى صنع هذه التماثيل كان ضمن حملة نابليون إلى مصر . . فلعله هو الذى اختار لها الاسم . وعليك أنت أن تدلنا على أن هذه المنطقة مصرية . .

قلت : سوف تكون مصرية بعد ذلك!

قالت : هاها . . أى بعد زيارتك هذه . ممكن إذا صرت يوماً ما شيئاً هاماً فى بلدك . من يدرى؟

وعدنا إلى السيارة أنا أفكر فيها . . وهى مشغولة بحركة المرور الكثيفة فى ذلك اليوم . . أنه يوم الأحد ونسيت أن أسألها عن اسم العيد الذى يحتفى به الناس . وبسرعة دارت وأوقفت سيارتها . وقالت لى : الآن حان وقت القهوة والسندوتشات . ما رأيك؟

- موافق . .

وسارت إلى جانب من الشارع . . ثم دخلت فى إحدى الحارات . وكل من مررنا به يعرفها ويحييها ويقبلها وتقبله . . وعلى باب المطعم دار بينها وبين صاحب المطعم حوار طويل . . ولم تكن تعرف أننى أجيد الإيطالية . . ورغم أنها كانت تتكلم لهجة أبناء نابلى ، فقد تابعت ما قال وما قالت . وقطعت حوارهما وقلت : أنا لا آكل اللحوم . . الجبنة فقط تكفينى وبعض الطماطم . .

أما المطعم فهو إيطالى . وكل الموجودين من أماكن مختلفة من

إيطاليا . . ومنذ تلك اللحظة والحديث بيننا بالإيطالية . . ولا أعرف ما أفرغت من الطعام . فهى تأكل بسرعة عجيبة وتشرب بنفس السرعة وتدخن بنفس الشراهة . ودفعت حسابها ولم توافق على أن أدفع لها كما هى عادة الشرقيين . .

وركبنا السيارة وأنا مشغول بملامحها وموسيقية حركتها فى الشارع وشعرها الجميل . . وهى تعلم أن وجهها جميل . وأدهشنى أن قالت لى : طبعاً أنا جميلة . .

فقلت : جداً

وقالت كأنها تقول ٢+٢ =٤ : فعلا أنا جميلة .

- وهل جمالك يسبب لك أية مضايقات . .

- أنت لم تضايقنى

- ولن أضايقك . .

- ولكنى أريدك أن تضايقنى . . أن تعترض على الذى أقترحه عليك .

- لقد اعترضت

- متى؟

- أنت قلت لصاحب المطعم أن يبحث لى عن لحم البقر أو السمك بدلاً من لحم الخنزير لأننى شرقى . .

- آه . . نسيت أنك تعرف الإيطالية . . فهل تعترض على شىء بعد ذلك . .

- نعم

- ماذا؟

- على أن يذهب كل واحد منا فى طريق دون أن أعرف من أنت أو تعرفين من أنا . . وكم يوما سوف أبقى فى باريس وهل نلتقى وهل أدعوك إلى زيارة مصر . . وهل أنت توجهين لى دعوة إلى نابلى . .

- وكيف عرفت أننى من نابلى

- لهجتك

- آه . . إذن تعرف الكثير من لهجات إيطاليا . . ولكنى أفعل مقدماً كل ما تعترض عليه . . وكل ما تدعونى إليه . . والآن

وأشارت بيدها إلى أن نهبط من السيارة ونذهب مباشرة إلى مكان ما . . وقالت ضاحكة : يمكنك أن تخلع حذاءك فأنت فى أرض مقدسة . . قدسها الحب والصحة والعذاب . .

- ما هذا؟

- سوف تعرف .

- فهذا شارع الزهور . . وعلى أحد المبانى هذه اللافتة (المسكن القديم لهلويزه وأبيلار سنة ١١١٨ وقد أعيد ترميم هذا البيت ١٨٤٩) .

إنها مأساة حب القديس أبيلار والفتاة الراهبة هلويزه . . جاء أبيلار (٣٩ سنة) إلى باريس وطلب إليه العمدة أن يعلم ابنة أخيه هلويزه (١٩ سنة) . وراح يعلمها أبيلار الحب والتمرد والهرب . وهرب الاثنان معاً إلى شمال فرنسا وحملت وأنجبت طفلاً . وعاد العروسان . فما كان من عمها إلا أن دبر له من يقطع عضوه

الجنسى . وبعد ذلك تحول القديس راهباً ، وهى عادت إلى الدير . . وعندما مات أبيلار سنة ١١٤٢ طلبت هلويزه بأن تدفن رفاته فى مكان بعيد . . وبعد عشرين سنة ماتت هى وعلى فراش الموت طلبت أن تدفن إلى جواره .

وفى سنة ١٦٣١ أعلنت إحدى الراهبات حقيقة هذه المأساة ، فاهتزت قلوب الناس وجمعوا رفاتها إلى رفاته . والآن يرقد تراب أبيلار فى حضن تراب هلويزه ومن فوقهما الزهور دليلا على الحب الحزين وعلى أن سلطان الحب أقوى من الحياة وأقوى من الموت . .

أما اسم الطالبة الإيطالية فهو أدريانا . . قلت لها : ادريا . . (تدليلا لادريانا فقد أصبح من حقى أن أدللها وأن تقبل هذا التدليل) هل تعترضين على ما سوف أعرضه عليك ؟

- لن أعترض

- . . .

- لن أعترض على هذا وذاك . . الآن . . دعنى أنعم بالاستسلام وأنت تنعم بالزعامة . .

- والحقيقة أننا لا أنا زعيم ولا أنت الرعية . . فكلانا مستسلماً تماماً لما هو أقوى منا . . أنت تريدين أن تعرفى وأنا أيضاً . . أنت تريدين أن تجعلى لكل شىء معنى ، وأنا أريد أن أجعل لكل شىء طعماً . . نريد كأساً واحدة نقلب فيها المعنى على الطعم . . فلا نعرف من الذى يقلب من ولا من الذى ينقلب . . ومن له الطعم ومن له اللون . .



كانت ساعات من أيام من سنوات مضت . وتركت آثارها كما مضى قبلنا ملايين الناس وتركوا كل الذى نرى ونلمس وكل الذى يبهرنا ويغرقنا ويحرقنا . . فهم تاريخ ونحن أيضاً كما يقول شوقى : تاريخ بعدنا . . كأن التاريخ القديم اختار أن يمشى أمامى . . وأن أوقفه عاماً عاماً وأسأل : من أنت وكم كانت السنة . . فإذا كل شىء شاب ملون معطر . . وكل شىء يقول ويطيل . . وأنا فى نشوة لا توصف ولا أعرفها الآن . . الماضى العتيق المعتق . .

❑ ❑ ❑

وفى يوم قررت شيئاً غريباً . . لماذا لا نذهب لنرى الأميرة ديانا وخطيبها دودى الفايد فى فندق ريتس الذى يملكه آل الفايد . . وذهبنا . ودخلنا وسألنا عن الأميرة وخطيبها . . وقيل لنا : ليست موجودة الأميرة ولا خطيبها المصرى . .

وذهبنا نبحث عنها فى القصر الذى اشتراه خطيبها دودى وكان يسكنه دوق وندسور وزوجته . . وكان البيت نحساً عليهما . . وعلى الأميرة أيضاً . .

وفى اليوم التالى لقيت الأميرة مصرعها عندما اصطدمت بها إحدى السيارات تحت كوبرى . .

ونشرت الصحف التى تشككت فى الحادث أن رجلين شرقيين جاءا يسألان عنها فى الفندق - هذان الرجلان هما عبدالله حسن تريدين مدير أنباء الشرق الأوسط وأنا . ولا علاقة لنا بالحادث . إنها الصدفة الغريبة . وقيل كلام كثير فى تفسير الحادث . كيف كانت السيارة المرسيدس وكيف كانت فراملها وكيف كان السائق

مخمورًا . . وكيف أن الأطباء الفرنسيين جاءوا متأخرين إلى مكان الحادث . . وكيف أن الصحفيين كانوا السبب . والأضواء التى أطلقوه من الموتوسيكلات على سائق الأميرة قد جعلته لا يرى الطريق بوضوح . . وكيف أن سيارة صغيرة هى التى أربكت السائق لأنها كانت تنطلق فى اتجاه معاكس . .

ولما عدت إلى القاهرة كتبت مقالاً نشرته كل ورقة مطبوعة فى كوكب الأرض فقد قلت هكذا : اغتالتها المخابرات البريطانية ، كما اغتالت المخابرات الأمريكية مارلين مونورو وكلتاهما كانتا فى السادسة والثلاثين . . فليس مقبولاً أن تتزوج ديانا هذا الفتى المصرى لتأتى للملك المقبل لبريطانيا بأخ اسمه «محمد» وأخت اسمها «فاطمة»!! وأن ديانا زلزلت العرش أكثر مما فعله كرومويل الذى أعلن الجمهورية . . ولكن ديانا هددت عرش بريطانيا وفضحت الأسرة المالكة ثم أن زوجها هو الذى بدأ بالخيانة والإهانة . .

وراحت كل وكالات الأنباء والصحف من كل لون ولغة تبحث عنى لإجراء حديث معى . . ولما لم تفلح فى الاتصال بى أجرت أحاديث مع الأستاذ «عبدالله حسن» الذى ذهب معى للبحث عن الأميرة .

وأخيرًا جاء التليفزيون الفرنسى وصحبنى فى رحلة فى النيل أحكى سراً هاماً بالأميرة ديانا ، وأنا رجل فلسفة ونقد أدبى . . وكيف تعاطفت معها كما تعاطفت مع مارلين مونور وحزنت على مصرعها وكرهت آل كيندى الذين تعاونوا وتناوبوا على قتلها كلباً بعد ذئب بعد سفاح حتى اغتالت المخابرات كيندى نفسه وأخاه

أيضاً . وعندى كل الكتب التى صدرت عن مارلين مونرو ، أملاً فى أن أكتب عنها وعن هذا الجمال البرىء مع رجال السينما تجار اللحوم الشقراء ومع رجال السياسة أو السفالة الأخلاقية . . وليست ديانا بعيدة عن كل هذه النوعيات من البشر . .

ولما عدت إلى باريس اكتشفت أنه يوم قررت البحث عنها سرنا فى نفس الطريق من الفندق إلى ما تحت الكوبرى . وتوقفنا فى الطريق مرتين . . وعرفنا فيما بعد أننا دون علم منا ، وقفنا فى نفس المكان الذى توقفت فيهما سيارة ديانا؟!

وعندما جلست فى مقهى فوكيه فى شارع الشانزلزيه فى مواجهة فندق ماريوت الذى أنزل فيه . . فجأة تذكرت شيئاً عجيباً . فقد قابلت فى القاهرة العرَّافة الإسرائيلية مارى موريسون التى تنبأت باغتيال السادات . ونقلت للرئيس السادات هذه النبوءة وقابلها باستخفاف قائلاً : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (سورة النساء : آية ٧٨) . . وقال : الأعمار بيد الله . . ووجدت فى ذلك إجابة مقنعة ورفضاً لأى استطراد فى هذه النبوءة وغيرها . وزرت هذه العرافة فى بيتها فى حيفا . . وقالت لى وهى تقرأ كفى وفنجانى والكوتشينه (الطاروت) التى فتحتها أمامى . . ومن الغريب أن الذى تنبأت به جاء صحيحا بعد ذلك؟!

وفى حيفا همس فى أذنى أحد الزملاء الصحفيين وقال عندى واحدة أخطر من مريم هذه . ولن تبقى فى إسرائيل إلا ثلاثة أيام . وقد جاءت فى مهمة خاصة برئيس الوزراء . .

واندهشت كيف أن سيدة بهذا الجمال والأناقة والثقافة وتعدد

اللغات وأن أبناءها أطباء ومهندسون وعلماء فى الذرة ، وتعيش على قراءة الكف والفنجان معًا!! . .

وجلست إليها وتحدثنا فى كل شىء إلا هذا الذى سوف تقوله . وما قالته لم يبهرنى . ووجدت أنها تتكلم تماما كالعراف الفرنسى الشهير نوسترادموس الذى توقع حرب الخليج وأن أميرًا عربياً سوف يشعل الدنيا نارًا - وكانت النبوءة قبل ذلك بمئات السنين .

قالت لى كلاماً مثل هذا : أنت كنت ستموت . . ولولا خروجك من تحت الجليد لكان موتك مؤكداً !!

كنت تحت الجليد ، وخرجت حياً ؟ . .

ولولا الجليد لكان موتى محققاً ؟ يعنى إيه؟ لم أفهم . فأين أنا من الجليد . . وهل السقوط تحت الجليد هو الذى أنقذنى . كيف؟

وقالت أيضاً : واحدة تهمك كثيراً ماتت تحت الأرض . . أو سوف تموت فى غواصة . . وموتها سوف يجعلك شهيرًا جدًا . .

طبعاً لم أفهم ما معنى الذى قالت باللغة الإيطالية وبالألمانية وبالفرنسية بوضوح تام . وبشكل قاطع كأنها تعلن عن نظرية جديدة فى الرياضيات لا تحتمل أى تفكير . وسألتنى إن كنت قد فهمت ما قالته : فقلت : لا . . فقالت : ولا أنا . . أنا فقط أرى وأقرأ وأجيب . .

وسألتها : ومتى يكون ذلك؟

أجابت : هذا سؤال مهم جدا . أنا شخصياً لا أعرف . . بعد سنة . . بعد عشر سنوات بعد عشرين . الزمن ليس فى حسابى .

ومضت على هذه النبوءة حوالى ثمانية عشر عاماً . . ولما عدت أفكر

فيها وجدت أن كل كلامها صحيح . فقد عرفت أننى عندما كنت فى غرفة (الإنعاش) بالقاهرة ارتفعت درجة حرارتى جداً ورحت أرتعش حتى كدت أموت فيموت الذين حولى . . ولم يجد الطبيب إلا حلاً واحدًا هو أن يدخل الثلج فى بطنى . . فى معدتى فى أمعائى . . وإلا أن يستخرج كل ما فى بطنى . . فقد أصابنى تلوث مميت . .

إذن لولا هذا الثلج ما كانت لى هذه الحياة وهى فكرة عبقرية طرأت على دماغ د . جعفر رجب . . وهى التى أنقذتنى من موت مؤكد - إذن لولا خروجى من الثلج أو دخول الثلج ، ما كانت لى حياة بعد ذلك حتى انخفضت الحرارة وهدأت أعصابى وأطفئت النيران فى كل مكان من دماغى ومعدتى . . وكل عصب فى جسمى الهزيل . .

وطلبت فنجانا آخر من القهوة . . فقد استرحت إلى هذا التفسير . . وفجأة أعدت التفكير فى الموت تحت الأرض . فهذا ما حدث للأميرة ديانا . . لقد ماتت تحت الكوبرى . . تحت الأرض كأنها فى غواصة أصابها طوربيد من الأمام فكانت وفاتها مؤكدة . .

وبقدر كرات الدم الحمراء كان الحزن عليها ، وبقدر كرات الدم البيضاء كان الشك فى أن الأسرة المالكة أو المخابرات البريطانية هى التى اغتالتها !

وقالت لى (وهى ضاحكة) : واحدة تهمك جداً . . تدخلها أتت المستشفى وتبكى . المستشفى ليس فى مصر . . وتبكى عليها كثيرا . . ولكنها تنجو . .

وهذا ما حدث لزوجتى !

السنة الأولى "ب_ج"

الناس فى حدائق باريس جاءوا لهدف واضح . . أن يجلسوا فى هدوء . . سواء كانت هناك شمس أو كان هناك أمل فى أن تظهر أو أنها لن تظهر هذا الخريف . . الهواء يكفى . . الألوان الخضراء بدرجاتها المختلفة . . بعض الأشجار التى تعد بأن تكون لها زهور فإذا لم تكن فالأطفال الجميلة البريئة . . وقد ارتدوا ملابس كثيرة حتى لا ينفذ الهواء البارد إلى أى مكان إلا الوجه . .

اخترت مكاناً بعيداً وجلست أتأمل وأراجع إحساساتى بهذا الجمال الذى أراه . . بهذه اللوحة التى فرغ منها الله سبحانه وتعالى من لحظات . . هذه أنواع مختلفة من الأشجار . . أشجار لها أوراق . . وأشجار لها أزهار بلا أوراق وأشجار بلا أوراق ولا أزهار وعصافير وفراشات . . إحدى الفراشات حطت على

مـلابسى . . وراحت تنشـر جناحـيـهـا . . ثم تطبـقـهـمـا وتعـود تنشـرهـمـا . . وانتـقلت من سـاقى إلى رأسى . . ثم عـادت إلى سـاقى . . وجـارى الذى جاء من لحظات بتـأمل ويمسك فى هدوء كاميرا غريبة لها خرطوم طويل ثم التقط صورة . وكان سعيداً ثم سألنى : ما هى صناعتك ؟

قلت : لماذا ؟

- لأن هذه الفراشـات لا تقف إلا على الملابس التى لهـا روائح معينة .

- أية روائح ؟

- عطور . . ونوع معين من العطور هل تأذن لى ؟

- تفضل .

وانحنى الرجل يشم رائحـة مـلابسى وذكـر عـددا من أسـمـاء العطور . . وكـان دقـيـقـاً جـداً . فـقـال : إن هذه العطور هى من خلاصة الورد . . وهذا هو السبب . . ومن المستحيل أن تقف على ملابسى . . لأننى أعمل فى أحد أستوديوهات التصوير . . وليس فى مـلابسى إلا الأحـمـاض . . يا بختك . . إننى أجئ إلى هذه الحديقة من سنوات طويلة ولم تجئ فراشة وتقف على ملابسى . . شىء عـجـيـب . . هذه المخلوقـات تطيـر فى خطوط منتظمـة كالطائرات تماماً إنها تتجه ناحية الزهور . . كل نوع من الفراشـات يفـضل عطراً خـاصـاً . . ولو تركت لهـا مـلابسك لنامت فـيـهـا وباضت وفقست أيضا . .

ثم سكت الرجل وكأنه وجد كنزاً أو وجد حلاً للغز تاريخى . .
ثم اقترب منى أكثر وقال : نسيت أن أقدم لك نفسى . . أنا اسمى جرار أعمل فى شركة أفلام يابانية . ولكثرة الكاميرات التى فى متناولى فإننى مغرم بالتصوير . واليابانيون قد اخترعوا كاميرات تصور أصغر الحشرات وتكبرها أيضا . . ولو رأيت جناح هذه الفراشة بعد أن أطبع صورتها لو وجدت فيها مائة ألف خط والخطوط كلها عميقة وألوانها متداخلة ومتدرجة . . إن هذه الحشرة الصغيرة قد أودع الله فيها كل عظمته وقدرته الهائلة على التلوين ومزج الألوان . . إن جناح الفراشة سيمفونية ألوان . . كيف ؟ وعلى فكرة .

ثم اقترب منى أكثر وقال : أنا كاثوليكى مؤمن وأنت ؟

- مؤمن .

- دينك ؟

- مسلم .

- هل المسلمون كثيرون فى بلدكم ؟

- ٩٥٪ مسلمون .

- والباقون ؟

- أقباط . .

- هل تقصد مسيحيون ؟

- نعم . .

- لا خلافات بينكم .

- لا . .

- وكيف استطعتم ذلك . .

- إنه التاريخ الذى استطاع أن يسوى كل الخلافات بين الشعب الواحد . .

- هل تضايقت لأننى سألتك هذه الأسئلة السخيفة ؟

- لماذا ؟

- لأن جو الحدائق والهواء الواحد والألوان الواحدة والهدوء . . كل ذلك يعلمنا أن نقضى على ما بيننا من خلافات . . فأنت تجىء إلى الحديقة لكى تتعلم منها التسامح والتذوق معاً . . وإذا لم يشعر الإنسان بأنه جزء من الطبيعة وأنه قادر على أن يسايرها ويجالسها ويستمع إليها دون أن يفتح فمه بكلمة فخير له أن يعود إلى البيت ويتخانق مع زوجته حول من الذى يغلق النافذة ومن الذى يفتح الباب . . ومن الذى سوف يموت أولاً . . آسف . . اعذرنى فنحن عندما نجىء إلى الحديقة أو إلى الغابة نحاول أن ننفض ملابسنا ومشاعرنا . . ولكن مهما حاولنا ذلك بقوة فسوف يبقى شىء . . شىء سخيف مثل هذا الذى كنت أتحدث عنه . . ولكى أكمل لك صورتى حتى تستريح نفسى ويكون هذا الذى قلته هو آخر ما علق فى ملابسى من أشياء سخيفة . . فأنا أمى يهودية وعندى ثلاثة من الأولاد واحد مهاجر إلى كندا والثانى خطفته زوجته إلى أسبانيا . . والولد الثالث وهو (دلوعة) أمه . .

لا أعـرف أين هو . . أمـه تقـول أنه فى باريس . . ولا يظهـر فى البيت إلا عندما تنتهى فلوسه . . وأمه تقول أحياناً أنه هاجر إلى الأرجنتين . . ولم أعد أسأل . . والسيدة القادمة هناك هى زوجتى وهى شـديدة الاسـتطلاع . . ولا أسـتبـعـد أنهـا كـانـت واقـفـة تراقبنى من بعيـد . . ولذلك سوف أعرض عليك هذه الكاميـرا كأنك تريد أن تشتريها .

وبدأ يفـتح الكامـيـرا عندمـا فـوجـئنا بزوجـتـه تقف أمـامى وتمد ذراعيها فأنهض وتقول لى : أنا أوجينى . . وزوجى طبعاً تحدث إليك عن أولادنا . . وعن ابننا الثالث . . طبعاً قال كل شىء . . أنا أعرفه وربنا يسامحه . . لولاى ما كان . .

ووجـدت أننى دخلت فى مـشكلة عـائليـة . . ومطلوب منى أن أحكم فـيـهـا بعـد أن أسـتـمع إليـهـمـا . . وأفـسـحت لهـا مكاناً . . فـشكرتنى . . وأسـرعت بعـيـداً ولا أعـرف مـا الذى قـالتـه . . لـقـد سمعتها تقول كلاماً كثيراً فهى لا ترانى . لأنها عندما تتحدث تنظر إلى الأرض . . كأنها لا تريد أن ترى أحداً . . أو كأنها قرفت مـن زوجها ومـن كل النـاس . . أو كأنها تتحـدث إلى نفسـهـا . . أو تتمنى أن تسحق الناس بقدميها ثم تكلمهم وهم تحت التراب !

وبعد أن نهضت اكتشـفت أننى نسيت صحيفة (الموند) على المقـعـد . . ولكن لا أريد أن أذهب إلى الزوجين . . فـالصـحـيـفـة أستطيع أن أشترى غيرها . . ولكن لا قدرة على احتمال ما سوف تقوله الزوجة عن زوجها وأولادها . . وأن تسألنى رأيى ونصيحتى . .

ووقـفت أنظر من بعـيـد . . كل شـىء هو مـهـرجـان من الألوان

والهمسات . . والموسيقى والطيور . . كأن السماء هبطت وهذه الفنون الجميلة نجومها وهذه الوجوه البديعة كواكبها . . كيف أنظر ؟ كيف أسمع . . كيف لا أنظر كيف لا أسمع كيف لا أهتز . . كيف لا أمتلئ . . كيف لا أترك قلبى وعقلى وخيالى . . كيف لا أغمض عينى وكيف أطبق ذاكرتى على كل هذا الذى أرى . . كيف أدخره لوقت آخر أستحضره وأستعيده . . وأرتبه وأنظمه وأكتبه بعد ذلك . .

ولما وجدت مقعداً خاليا جلست ونشرت ذراعى وأسندت ظهرى ورفعت رأسي وأغمضت عينى . . شىء عجيب . . ونمت . . وصحوت منزعجاً . . وكان الطبيب قد نصحنى أن أفعل ذلك كثيراً . . أن أنام فى أى وقت ولأى وقت . . وأن أترك نفسى لجسمى . ونصحنى أن أجعل نفسى ألعوبة لمشاعرى . . وأن أستسلم تماماً . . فمعظم تعاسات الإنسان فى هذه الدنيا أنه (يقاوم) لأن المقاومة من الكلمات المقدسة عند الشعوب . . فأصبحت مقاومات الرغبات والمشاعر أيضاً . . ولكن المقاومة هنا لها معنى آخر . . وهو معنى طبى سيئ . . فالطبيب قال لى : لا تقاوم النوم إذا جاء . . ولا تقاوم الاسترخاء والكسل أيضا . . اترك نفسك . . أرفع رجلك عن الفرامل التى تمسك كل رغباتك وقدراتك . . وقال لى الطبيب : أنت جئت إلى المستشفى لأنك قاومت . . فقد جلست طويلاً إلى مكتبك وكنت تشعر بالتعب ولكنك لا تريد أن تضيع الوقت فى الحركة وفى النزهة . . فقاومت الرغبة القوية فى الراحة . . أو قاومت القوة المنظمة للعمل والراحة

فى جسمك . . وكانت النتيجة ما أصابك من (جلطة) فى الساق . . ولكن لو أنك عندما شعرت بالتعب فهمت هذه الرسالة . . فالتعب رسالة إلى الجهاز المركزى فى جسمك تقول لك : كفى . . انهض بعض الوقت . . وأنت سمعت الرسالة وتجاهلتها . . فالمقاومة هذه قد يكون لها معنى سياسى عظيم . . مقاومة الظلم والطغيان والقهر والجوع والمرض . . لا بأس . فأنت تقاوم أسوأ ما فى الإنسانية . . والمقاومة واجب وشرف . . ولكن أن تقاوم الصحة والراحة . . كل ذلك كان زمان . . الآن ـ يقول الطبيب – يجب أن تعرف أين أنت الآن . . أنت فى السنة الأولى (ب . ج) أى بعد الجلطة . . ونحمد الله أنك عشت طويلا ق . ج .

ووجدتنى قد انتفضت واقفا كأننى سمعت صوتا فى أعماقى يقول : انهض يا ابن الـ . . . . . .

وقبل أن أستمع إلى بقية هذا الأمر نهضت . . وانتظرت لكى أسمع بقية هذا الأمر . . ولم أستمع إلى شىء . . فكأن المطلوب هو أن أنهض وأخرج من الحديقة . . إلى أين ؟ إلى الشارع . . إلى أى مكان فى باريس . . والآن أنا فى . . لا أعرف أين . ولكن المهم هو أننى خرجت . . أفلت . . لم أعد أسمع أوامرى فأنا حين أجد الطريق فإننى أمشى حيث تحملنى ساقاى . . وأتلفت يميناً وشمالاً مع أنه لا داعى لذلك . . ولكنى احتفل بعافيتى وسلامتى وقدرتى على أن ألف وأدور وقدرتى أيضاً على تجاهل أى تعليق على سلوكى البهلوانى . .

❑ ❑ ❑

ووجدتنى أمام مقهى فلور ـ كيف وصلت إلى هنا لا أعرف وقد

أعود إلى التفكير فى ذلك فيما بعد .. فهنا على الكرسى الثالث من اليمين كان يجلس الفيلسوف الوجودى سارتر .. وبعده بمقعد كانت تجلس صديقته الأديبة سيمون دبوفوار .. لماذا لا تجلس إلى جواره مباشرة .. وقد أعود إلى تفسير ذلك فيما بعد .. أما الذى يشربه الفيلسوف فهو القهوة والكونياك .. يبدأ بأحدهما وينتهى بالثانى .. ويتكلم بحرارة كأنه لا يفعل فى دنياه شيئاً غير الكلام .. وفجأة ينهض واقفاً دون أن يفسر لماذا .. ولكن الجميع الذين أصبحوا عشرة من الأدباء والشبان يعرفون أن وقت الكتابة قد حان .. وأن المعانى قد ملأت رأسه وبطنه .. وأنه حتى لا ينفجر لابد أن يذهب إلى الطابق العلوى إلى (ركن الفيلسوف) .. والمكان ليس مضاء بدرجة كافية .. وسارتر ضعيف النظر يرى بعين واحدة .. ولكن هذه رغبته فى أن ينفرد بنفسه .. وتبدأ الطقوس اليومية .. تجىء زجاجة نبيذ من النوع الذى يفضله الفيلسوف وسلة يضعونها تحت المنضدة .. فى هذه السلة يلقى بالأوراق التى يكتبها .. ثم يأتون بعلبة صغيرة فيها تسعة من أقلام الحبر الأسود التى قد امتلأت كلها فقد يحتاجها كلها .. يبدأ جملة بقلم ثم يغيره ويكمل بالقلم الآخر .. أو يكتب صفحات بقلم واحد .. فإذا انتهى الحبر الذى به اتجه إلى قلم آخر .. وربما يضايقه ذلك فيتوقف عن الكتابة تماما .. ويجمع أوراقه .. ثم يشرب النبيذ ..

وليس معنى ذلك أن يقترب منه أحد . فلا أحد يقترب إلا إذا ناداه .. ومن النبيذ والقهوة والسيجارة يتدفق الكلام الجميل

والمعانى البديعة . . ولك وحدك أن تندهش كيف أن هذا الرجل القصير الدميم قصير النظر والمكفهر الوجه يخرج للبشرية أجمل وأروع المسرحيات . . والروايات والدراسات . . كيف استطاع هذا الإنسان الضئيل أن يطوع الفلسفة الوجودية الألمانية الشاقة جداً والتى استعصت على العقول ، كيف جعلها تمشى وراءه كأنها حملان وديعة وكيف تقفز إلى ركبتيه وعنقه كأنها قطط صغيرة . . وكيف استطاع أن يضع لها أجنحة فتصبح طيوراً ونسوراً وحماماً . . إنها عبقرية سارتر . . إن الله قد أودع فيه عظمته . فتجلت هذه العظمة فى قدرته الفذة على الوضوح والإضاءة والأبهة . .

وبهذه المناسبة أتذكر فيلم (أماديوس) عن الموسيقار النمساوى : (فولفجانج أماديوس موتسارت) . . ويبدأ الفيلم بالموسيقار الإيطالى ساليرى العدو الأول لموتسارت ويقال أنه قد وضع له السم . . وإن كان الحقد هو السم الذى جعل ساليرى يعيش ذبيحاً .

ففى أول الفيلم نرى ساليرى يتحدث إلى المسيح مصلوباً فى السقف ويقول له : كيف تعطى العبقرية والعظمة والجمال والجلال لهذا القزم الذى اسمه موتسارت . . ألم تجد إنساناً أجمل . . إنساناً أكثر إيماناً بك واحتراماً لك . . واحداً مثلى ؟! هل فى هذا القزم القبيح الكلمات والأفعال تصنع عظمتك وقدرتك . .

ثم يمسك الصليب ويلقى به فى النار . .

وسارتر هو أيضاً هذا القزم الدميم . . ولكن أحداً لا يرى سارتر كذلك . . فهو فى حصن منيع وبرج عاجى ذهبى من أسلوبه البديع .

فمن الذى كان يرى أم كلثوم قصيرة سمراء صفراء .

ومن الذى يلتفت إلى عبد الحليم حافظ وأصابعه الغليظة .

من الذى كان يرى طه حسين أعمى أو هوميروس أو أبو العلاء المعرى . .

أو الفيلسوف الفرنسى روسو الذى كان يطارد البنات ويفتح لهن البنطلون فإذا صرخن انتشى وعاد إلى الكتابة . . أو الفيلسوف الوجودى الدنمركى كيركحور وقد كان أعرج يتساند على الجدران ولكن ما هذا الصفاء والنقاء والإشراق فى عبارته . .

وأن عالم الفيزياء العظيم أينشتين الذى يستطيع أن يهزم إرادة وصبر واحتمال أى إنسان أن يجلس إلى جواره . . فهو لا يستحم بالشهور ، ولكن إذا استمعت إليه وهو يشرح كل نظريات الفيزياء والكون فأنت تفقد حواسك الخمس وأنت تحاول اللحاق به وهو يعلو إلى النجوم ويهبط إلى أعماق الأرض . . وإذا قاومت رائحته فإنك لن تحتمل أبدا ضحكته . . إنه مثل كلب البحر له ضحكة كالعواء والحشرجة معا . . *كيف اجتمع كل ذلك فى عبقرية واحدة* . .

وأرق أدباء الدنيا الكاتب الفرنسى (آلان) صاحب العبارة القصيرة والمقالة الرشيقة والذى عقد صلحاً مع كل المعانى والرموز الأسطورية فلا يكاد يقترب منها حتى تبوح له بكل أسرارها بشرط أن يكون ذلك مقالاً قصيراً . . كيف تطيق النظر إليه وقد وقف عارياً يكوى ملابسه الداخلية والخارجية قطعة قطعة . . وكلها بيضاء اللون حتى الكرافتة بيضاء . . ثم يرتديها جميعاً ويجلس إلى الكتابة . . والاستعداد للكتابة يبتلع ثلاثة أرباع الوقت . . من ستة قرون وعندنا فى مصر عام فيه اسم (دقيق العيد) لأن كان يرتدى الملابس البيضاء . كلها بيضاء فأطلق عليه الناس هذه الصفة !

وسألت فى مقهى (فلور) عن الجرسون الذى كان فى خدمة الفيلسوف فقالوا لى : جان ؟

فهو أيضاً قد درس الأدب والفلسفة . . وكان يعمل فى أحد الفنادق . . ولكن قرر أن يكون فى خدمة الفيلسوف وقد أحبه سارتر . . ويقال أنه عرض على سارتر بعض قصصه وأعجب بها وشجعه . وتكفل بنشر أول مجموعة قصصية له . وهذه المجموعة ظهرت تحت اسم مستعار . وقد اختار الجرسون اسم فتاة هى : صوفيا فيلو سارتر ـ ومعناه : الحكمة التى تحب سارتر . .

سألت جان : وكيف يتهيأ الفيلسوف للكتابة ؟

قال : إنه لا يعرف متى . ولا يعرف كيف ، ولكن يمكن أن يقال أنه (جاهز دائما) لأن يكتب . . لقد أعد نفسه لذلك قبل أن يجىء إلى المقهى . . ولكن إذا جلس إلى أصدقائه وتلامذته يبدو كأن هدفه الوحيد هو الجلوس والحوار . فهو يتكلم بمنتهى الحرارة . وهو الذى يقول وهو الذى يمضى وهو الذى يقرر . . وأحياناً تتعالى الأصوات ويناقشه تلامذته ، تماما كما يناقش الصغار والدهم ويسعده أن تعلو أصواتهم على صوته . . وأن يناقشوه وأن يخطفوا اللقمة من فمه وأن يعارضوه أيضاً . . ومن هذه الشوشرة العقلية تتولد شرارة الإبداع . . وأنا أعرف ذلك . عندما أتأمله من بعيد وأجده يزرر الجاكته ويرفع رأسه . . فأعرف أن هذه هى اللحظة . . فأفسح له طريقاً بين المقاعد وأتقدمه إلى السلم . . إلى حيث (ركن الفيلسوف) وهناك أكون قد أعددت له النبيذ والسجائر والورق والأقلام وهو يحرص فى كل مرة على

أن يشكرنى بحرارة . . وقد يقول أحياناً : لولاك ما كنت عرفت شيئاً . . وهو مهذب ولذلك لا يعنى ما يقول فى هذه اللحظات السابقة على الإبداع . . إلا إذا كان مريضاً . . فإذا كان مريضا فهو يأتى معه بالأدوية . . وأحياناً يكتب الروشته . وحتى لو كان الدواء ممنوع التداول إلا بأمر الطبيب . . فإن الصيدليات تحترم توقيعه وترى أن الروشته وثيقة تاريخية يضعونها تحت الزجاج أو فى برواز . . وهو يسعل كثيراً بسبب التدخين المتواصل سيجارة بعد سيجارة طوال الكتابة . .

وسألته عن الأديبة الوجودية سيمون دبوفوار . .

ولم أجد عنده رغبة فى الكلام كأنه يستكثر عليها أن يتحدث عنها كما يتحدث عن سارتر . . فهو ينظر إليها كواحدة تحاول أن تقلده . . وأحياناً تتظاهر أمام الناس بأنها مختلفة عنه تماماً . . بل وترى أنه غلطان . . ولكنه لا يضيق بذلك . . أو كأنك أمام سقراط وزوجته . . والزوجة شرسة وسقراط وديع . . أو مع أمام تولستوى وزوجته . . الزوجة مجنونة والأديب تولستوى هو الرقة والإنسانية الرحبة . . أو كأنك أمام الأديبة كوليت وزوجها الفنان المجنون وهى تحاول طول الوقت أن تهدئ أعصابه وتؤكد له أنها لولاه هو ما كانت أديبة . . ولولا أفكاره ما كتبت ولولا صبره على مرضها ما كانت فى القمة . . مع أننا نعلم جميعاً أنها هى الأديبة وأنه ولا حاجة . . أو أمام زوجة دستويفسكى الألمانية التى تكتب على الآلة كل ما يقوله وهو يتمشى فى الغرفة ثم ينهار لأنه مصاب بالصرع . . وكانت فى بعض الأحيان تمن عليه وتقول له : أنا كتبت لك كل شىء .

وهذا صحيح فهى كتبت ما أملاه عليها . ولكنها لم تبدعه .

وكذلك فريد شحاتة سكرتير طه حسين كان يقول : أنا قرأت أكثر منه . . وأنا كتبت كل مؤلفات طه حسين .

صحيح ولكن من هو المفكر العظيم والأديب المبدع ؟

وحاولت أن أغير الكلام فقلت : لماذا لا نلتقى فى أى مكان آخر . . ونتحدث ؟

فقاطعنى قائلا : مادام الفيلسوف فى باريس فأنا لا أفعل شيئاً إلا انتظاره ولكن بعد شهرين سوف يسافر إلى أمريكا . .

واندهشت فسارتر قد مات من سنوات عديدة ؟!

❑ ❑ ❑

وذهبت إلى حيث وجدوا المطربة الفرنسية اديت بياف . . وجدوها على الرصيف . . فى هذا المكان ومن هذا الرصيف انتقلت إلى القمة . . وكانت ممزقة الصوت والنفس والعقل والقلب . . وكانت نموذجا فريداً للمرأة عندما تكون مجنونة بالرجال . . وعندما تكون معشوقة تبهدل العشاق . . لقد أحبها الكثيرون وماتوا فى هواها . . آخر عشاقها الأديب كوكتو الذى مات بعد أن سمع نبأ وفاتها . . كأنهما مربوطان فى حبل سرى واحد . . وهى التى قالت له يوماً من الأيام : إذا كان لابد أن نموت فى يوم واحد . . فهل تفضل أن تكون بعدى أو أكون بعدك . . فقال كوكتو : أن أموت بعدك . . فيكون موتى أعظم تحية لك . . فإذا لم يوافنى الموت فإننى سوف أستعجله وأضحى بنفسى عند قدميك !

❑ ❑ ❑

.. وهنا كانت تغنى المطربة (الوجودية) جولييت جريكو التى جاءت إلى مصر وغنت فى (أوبرج الأهرام) .

فى تلك الليلة جلست إليها مفتوناً بها .. ما الذى كانت تقوله جوليت جريكو .. لا يهم ماذا تقول .. كانت ترتدى فستاناً أسود بلا أكمام وكان مشقوقاً على الساقين وكانت تتفنن وهى تتلوى وتتكسر فى أن تكشف عن الساقين والنهدين وتقول أى كلام وكنا نقول لها : الله يا ست ..

ولما سألتنى عن معنى « الله يا ست » وقلت لها فكانت وهى تغنى تنظر إلينا ـ صالح جودت وأحمد رامى وأنا ـ وتقول : الله يا ست ..

قالت لنا إنها ألفت أغنية من وحى الأهرامات وأبى الهول والنيل والمراكب الشراعية والحشيش . أذكر من هذه الأغنية هذه الأبيات :

النيل .. النيل .. ثعبان حريرى يزحف ويتلوى فى جورب أسود ..

ثم يلتف حول عنقى ويلتقط تفاحة ساقطة من السماء . تفاحة أمنا حواء .

حواء لم تعد فى حاجة إلى تفاحة .. فقد نزل آدم إلى الأرض وعنده ألوف ملايين البنين والبنات .

ولكن جوليت جريكو واحدة .. واحدة .. الله يا ست !



وتعالت الهتافات والنداءات فى داخلى : اجلس . . فى أقرب مكان . . اجلس . . استرح . . اسمع الكلام .

وقلت : حاضر . . حاضر سوف أجلس وأستريح . . اعطنى بضع دقائق لكى أختار المكان . .

واخترت المكان . . هنا على الرصيف فى مقهى (فوكيه) بشارع الشانزلزيه . . هنا . . المقاعد صغيرة والمناضد . . والناس محشورون ولذلك يهمسون حتى لا يضايقوا أحداً . . وأعلى الأصوات هو صوت الجرسون . . وأسعدنى الحظ أن أضع قدمى فى المقهى فى نفس اللحظة التى تنهض سيدة وكلبها . . وسارعت وجلست واعتذرت يميناً وشمالاً . . فقد اصطدمت بهذه وبهذا وكاد الماء يسقط هنا والقهوة هناك . . وقد اعتاد الناس على الزحام وعلى أن يحدث أى شىء يمكن الاعتذار عنه . . المهم أننى جلست . وبدأت أمارس أجمل هواياتى : السرحان . .

وأشعر كأننى زورق مربوط إلى الشاطئ ولكن الحبل طويل جداً . . والموج يعلو ويهبط ويكاد يقتلعه ولكنه دائماً يطفو فوق أمواج تحت الريح . . أو كأننى حصان يجرى ويجرى فى كل اتجاه . . يتحرك فى كل مكان ويعود إلى نفس المكان . . كأننى حمام زاجل أروح برسالة وأعود برسالة أخرى . . ولكننى أعود إلى قفصى . . كأننى فراشة والفراشة ليست إلا قبلة حائرة . . قبلة تبحث عن شفتين . . كأننى زوبعة فى زجاجة كريستال . . كأننى معنى يبحث عن عقل . . كأننى عقل يبحث عن قلم . . كأننى وكأننى . . ولا أقاوم وإنما أترك نفسى لكل شىء ولكل معنى . .

ومن حين إلى حين كأننى أطمئن على وجودى على مقعدى . . على مكانى . . وأنظر إلى المنضدة فأجد القهوة قد حضرت والماء . . ثم أعيد النظر فأجد أننى شربت القهوة والماء . . وأشير إلى الجرسون بأن يأتى بمزيد من القهوة . . وأرفع رأسى وأعطيها لمن يشاء من المعانى الزائرة والأفكار الشاردة . . ويدور فى رأسى شريط : ماتيلدا وهيلجا وصوفيا وفيكى وكاميليا وماريا وتيودورا وسيلفانا وأدريانا وراشيل وأهز رأسى أسفاً على (شىء ما) له علاقة بهذه الجميلات التى كن برقاً ورعداً فى حياتى . . ولكن الصور تروح وتجىء وكأنها معلقة من حبل طويل . . وهى الأخرى تتأرجح وتذهب وتعود . . ولا تغيب عن الذاكرة . . وأفرك أذنى وفجأة تظهر صورة د . حسين فوزى وفتحى غانم . لماذا ؟ ولم أعرف ما هى العلاقة . . وأمام إصرارى على أن أعرف وجدت السبب . . فقد نطق جارى كلمة فورجاك . . الموسيقار الذى اختلفت مع د . حسين فوزى والأديب فتحى غانم على الظروف التى أدت بهذا الموسيقار إلى تأليف سيمفونية (العصور الحديثة) . وقلت وقالا ولمن نتفق حتى جاءنى خطاب من إيطاليا . وكان الخطاب هو الحكم الفاصل لصالحى . وظهرت الدموع فى عينى . . شىء غريب . . وكان لابد أن أبحث عن السبب وظلت الأفكار تروح وتجىء وتمشى مثلى وقد وضعت يديها وراء ظهرها . . وفى حالة من القلق . . ومع فنجان القهوة الرابع عرفت . . فقد تلقيت بالبريد المصرى أسطوانة (العصور الحديثة) لأنها اللحن الذى أسعدنا هى وأنا فى مدينة (يورتوفيتو) على ساحل الريفييرا الإيطالية فى إحدى ليالى الفتنة والجمال . . تلقيتها منها بالبريد . ونادونى لأتسلم الأسطوانة . . وكانت الدعوة من مصلحة

البريد . . ولم يكن السبب اهتماماً بالغاً من مصلحة البريد . . إنما قال لى مدير البريد : مع الأسف الأسطوانة انكسرت . . وهى غلطة الذى أرسلها لأنه كان يجب أن يحتاط وأن يضعها فى صندوق ويكتب عليها (قابل للكسر) . .

ولم أستطع أن أسمع بقية التفسيرات والاعتذارات وحملت الرسالة المكسورة . . إنها جثة سيمفونية . . جثة ليلة حلوة . . جثة ذكريات ليس لها مثيل لا فى الشعر ولا النثر . . ليلة هى العمر كله . . وكأنه فاتنى أن أبكى على الأسطوانة وعلى صاحبتها وعلى إهدار الجمال . . وعلى الإبادة الجماعية : لى ولها وللأسطوانة وما لا نهاية له من المعانى . . ولم أكن رأيت فيلم عبد الوهاب الذى انكسرت فيه الأسطوانة . . أو الذى تحطم فيه العود . . أين هذا الذى حدث لى وهذا الذى افتعله عبد الوهاب . . وأدهشنى أن فتحى غانم هو الآخر قد بكى . فقد تذكر هو شيئاً آخر . . وظلت الأسطوانة عندى لم تبعد عن عينى . . وتذكرت العاشق الذى ماتت حبيبته فأودعها غرفة نومه دون أن يدفنها حتى صارت لها رائحة لم يطقها أحد فدفنوها . . وقفز العاشق إلى جوارها يدفن نفسه معها . . ومات الإنسان وبقيت الذكريات ـ وانكسرت الأسطوانة . . ومع أن هناك مئات ألوف من الأسطوانات مثلها . . ولكن انكسار هذه الأسطوانة هو تحطيم لكل الأسطوانات . . فهى ليست شيئاً عادياً . . من مات حياً عاش فى قلوب الآخرين .

وبسرعة قفز إلى خيالى كامل الشناوى والراقصة زينات علوى . . وزينات لها رقصة معروفة اسمها (رقصة الهوانم) . . أى أنها ترقص فى مساحة صغيرة فى دلال دون ابتذال . . ويوم قرر الرئيس جمال

عبد الناصر فصل كامل الشناوى وأقعده فى البيت جاءت زينات علوى وكان كامل الشناوى يحب الجلوس إليها . . فقد كانت لطيفة رقيقة وبنت بلد فيها شهامة وسماحة . . جاءت زينات علوى لزيارة كامل الشناوى الشاعر البوهيمى . . وطلبت فنجانا من القهوة السادة وجاءت القهوة وشربتها . وقرأت فنجانها هى ثم فنجان كامل الشناوى وقالت : اسمع يا كامل . . لن يطول قعودك فى البيت . . والله العظيم وبكره تقول زينات قالت . . كلها أيام وتعود إلى مكانك فى قلب الناس جميعا . .

ونهضت تصافح كامل الشناوى وصافحتنى وضغطت على يدى وغمزت بعينها بما معناه أن أتركهما وحدهما . . وفجأة تعالى صوت كامل الشناوى : أبداً . . أنت مجنونة !

ولما خرجت زينات اصطدمت بفازة فتحطمت فانحنيت أجمع حطامها عندما وجدت مظروف الفلوس الذى رفض كامل أن يتسلمه وكانت هى أسرع إلى السلم . . إلى الشارع !

ولأول مرة أتذكر بهيجة حافظ . . لا أعرف كيف عرفتها . . ولكن أتذكر يوم عرفتها وقد تمنيت أن أسمع موسيقاها . . عزفها على البيانو . . ولكن لماذا ؟ لا أعرف وأتذكر شقتها الصغيرة المكدسة بأثاث قديم له رائحة المخازن . . ولكن كل الأصوات مكتومة هامسة . . وسمعت موسيقى على البيانو من تأليفها . . الموسيقى اسمها (بنت الصحراء) . وأعجبتنى الموسيقى وطلبت إليها أن تعيدها . . وعندما حاولت أن تصلح أوتار البيانو ظهر الغضب الشديد عليها . . واختفت وأخذت حبوباً مهدئة . . ولم تهدأ . . فدخلت وأتت بزجاجة من الخمر . . وراحت تشرب . . ولكن البيانو بقى خامداً . . وضحكت بصورة هيستيرية وقالت : لو كنت فى ظروف

أحسن لطلبت إليك أن تساعدنى على إلقاء البيانو من النافذة . .

أى أن ظروفها الآن ليست كما يجب . وقلت فى سذاجة : ويطاوعك قلبك أن تقتلى البيانو بعد ليالى العزف المنفرد الطويل . . بعد هذه الحياة معاً . . إذن أنت بلا قلب !

وبسرعة صححت هذا المفهوم الخاطئ وقالت لى : مستحيل أن ألقى به من النافذة حتى لو لم ينطق . إن البيانو هو نصفى الحلو !

وصدقتها . . وأصلحت البيانو وكانت تصحو وتنام وتسبح وتسرح وتصرخ وتتأوه على البيانو . . على صدره وبين أصابعه . . إنه زورق على شاطئ الموسيقى . . إنه أخرس حتى ينطق فى أصابعها . . وإنه الفن والجمال والحكمة إذا هى انحنت فوقه وغنت بأصابعه . . إنه هكذا ساكن فى مكانه محبوس فى الخشب . . ولكن هذا السكون هو الذى يزلزل العقول والقلوب والخيال . . كأنه ينفجر ناراً ونوراً فينا . .

وبسرعة تقترب صور نزار قبانى والجواهرى الشاعر العراقى وبلقيس زوجة نزار وعلى أحمد باكثير وليلى بعلبكى وأندريه شديد . . هذا الزحام لماذا ظهر كله فى وقت واحد . . ما الذى يربط بينها . . وأحسست أن رأسى ثقيل . . ولكن لم أسمع ذلك الصوت الحزين الذى يدوى فى داخلى بأننى تعبت وأنه خير لى أن أنهض وأن أبرح المكان إلى مكان آخر . . وكأننى أحاول أن أنبه أحداً نائماً فى داخلى . . ولكن لا صوت ولا حركة فى داخلى . . إنها الإدارة المركزية التى تتولى شئون جسمى وقلبى وعقلى راضية تماما عن سلوكياتى . . وتذكرت ما حدث فى مؤتمر الأدباء فى بغداد . . وكنت قد تخانقت مع الشاعر العراقى الكبير الجواهرى . . فقد هاجم كل شعراء مصر عندما ردد العبارة القديمة

السخيفة : الشعر يولد فى العراق وينمو فى سوريا ويموت فى مصر . . وكان نزار على مقربة منى وأنا أرفض ما قاله الجواهرى . ولكنه ابتسم ولم يقل شيئاً فهو ابن الشعر الذى نما فى سوريا وليس له نظير فى أى مكان آخر . . وقلت لنزار قبانى : أنت تخاف من الجواهرى . . يا جبان ! وأنت الحاضر يا نزار !

ولا أعرف كيف قلت هذه الكلمة الأخيرة . ولكن الصداقة بيننا فى ذلك الوقت كانت تسمح بمثل هذه الكلمة التى هى نوع من الدعابة الغليظة . .

ولما رويت ما حدث للصديق الشاعر الروائى الحضرمى على أحمد باكثير سألنى :

- ولماذا لم تصفعه على قفاه ؟

قلت له : من ؟

قال : الجواهرى . .

قلت : ظننتك تقصد نزار قبانى ؟

قال : وهو أيضاً .

قلت : سوف تكون فضيحة للطريقة القبيحة التى يتحاور بها الأدباء فى مهرجان بغداد . وكان على أحمد باكثير رغم هدوئه الشديد عصبيا . . وكان يشرب كوبا من اللبن البارد فألقى بالكوب على الأرض . . وفجأة تغيرت ملامح وجهه وقال : هل يستطيع أحد أن يصف الكوب الزجاجى وهو ينكسر . . إن محمد عبد الوهاب قد سجل صوت الماء فى البانيو فى أغنية : الميه تروى العطشان . . أنت تستطيع أن تتحدى كل الشعراء قديماً وحديثاً أن

يصفوا لنا صوت الزجاج المكسور واللبن المسكوب . .

ولما قابلت الأديبة العراقية ناثرة . . قلت لها : من يراك عن قرب يخيل إليه أنك أديبة لبنان ليلى بعلبكى . . ومن ينظر إلى وجهك ويسمعك وأنت تتكلمين الفرنسية الجميلة يقول : إنك الأديبة الفرنسية المصرية السورية أندريه شديد . .

ولكنها كانت مشغولة بما سمعته عن خناقة نزار والجواهرى وعلي باكثير وأنا . . ثم قالت : كأنك لم تسمع بخناقتى أنا أيضاً . . إننى تضايقت من نزار قبانى لدرجة أننى تعمدت وأنا أغادر المكان أن أجعل حقيبة يدى تصطدم بزجاجة الخمر التى أمامه والكئوس وكلها سقطت على الأرض .

وتذكرت الممثلة نادية السبع والناقد الفنى عثمان العنتبلى . . لماذا ؟ شىء عجيب هذه الذاكرة . . الذاكرة نشطت إذا انطلقت بعضها يعدو على بعض . . وكلها تتزاحم على أن يكون لها وجود . . كنا جالسين فى حديقة محل جروبى . . ونادى السيارات يطل على هذه الحديقة . . أما نادية السبع فهى حلوة عيناها خضراوان وصوتها جميل وكنا نطلب إليها أن تقرأ لنا شعراً . . وقد وعدت شاعرنا إبراهيم ناجى أن تقرأ شعره . وكان أداؤها شعراً يضاف إلى الشعر . . أو لحنا يضاف إلى الجمال وفى ذلك اليوم تعرضنا لشىء غريب . . شىء أفزع الناقد الفنى عثمان العنتبلى فسقطت الكأس من يده . . ونظرنا نرى الذى أفزعه . . لقد كان الملك فاروق ينظر إلينا . . إلى نادية السبع فى منظار مقرب . . ويقول عثمان العنتبلى (الناقد الفنى بجريدة المصرى) بعد ذلك أنه سمع الملك يقول لأحد رجاله : بسرعة . . وفهم عثمان أن الملك يريد أن يأتى له بنادية

السبع أو يأتى له بعثمان . . واندهشنا كيف أنه استطاع أن يسمع صوت الملك من هذه المسافة البعيدة . . وجاء الجرسون بسرعة بكأس أخرى شربها عثمان وألقى بها على الأرض ـ كما يفعل الروس !

□ □ □

– تعبت ؟

– نعم تعبت . . لم يسألنى أحد . . ولكنى أنا الذى قلت . . ولابد أن صوتى الداخلى يصرخ . . لقد تعب من تنبيهى بأن ألتزم الصمت التام وأن أنهض . وكفى !

□ □ □

. . ثم هذه المكتبات التى هى ملتقى سعادتى وبهجتى ونومى ويقظتى وسرحانى مفتوح العينين . .

ولا يهم رأى أحد أبدا . . ففى كل المكتبات نفس الكتب ونفس المؤلفين . . والذى لا أجده هناك أجده هنا وأسأل عنه هنا وأسأل هناك . . وأنا أعرف طريقى تماما . . وأحب رائحة الورق ورائحة الحبر . . وأحب الوجوه . . إنها الوجوه التى يبدو عليها التفكير . . وعدم العناية بالصحة وجمال الشفتين والشعر . . فقد اخترنا جميعاً نوعاً آخر من المتعة والسعادة . . ونحن نعرف بعضنا البعض . .

ولكن قبل ذلك وبعد ذلك : ما هذا الذى (يتعب) فى داخلى . . إننى أضع يدى على ساقى . . إنها لا توجعنى . . ولا ذراعى . . ولا دماغى . . ولا عشينى . . ولكن ماذا يحدث . . ما الذى يجعلك فجأة لا تريد . . أو لا ترغب أو تكتفى . . ما الذى يصدك عن شىء . . إن هناك فى داخل كل واحد جهازاً تلقائيا ينغلق فتنسى نفسك . .

رغبتك . . هناك نوع من الرفض . . كما يتوقف صوت أزيز الثلاجة عندما تصل درجة الحرارة إلى الصفر . . كل شىء تلقائى عندما يصل إلى درجة التشبع يتوقف . . يرفض . . يتعب دون كلمة تقال . . وإنما تظهر نقطة فى نهاية السطر . . مثل وضع الملاعق والسكاكين فوق الطبق لأنك شبعت . .

هذا ما أحسست به عندما فكرت وقررت أن أذهب إلى المكتبات . .

ومعنى ذلك أن التعب قد بلغ منتهاه . وإلا كيف نهضت مندفعاً إلى المكتبات مع أن الحل هو أن أعود إلى الفندق . . وأحسست أن المكتبات قد أطفأت أنوارها وأغلقت أبوابها وغيرت لافتاتها وكذلك الشوارع . . كل ذلك فى دماغى . .

وعدت إلى الفندق . . وجلست واغمضت عينى واكتفيت بما أسمع من التليفزيون دون أن أراه . . وأحياناً أراه دون أن أسمعه . . ولكن إذا وجدت نفسى لا أريد لا هذا ولا ذاك فهذا هو التعب النهائى . وليس بيدى إلا الاسترخاء . . والراحة . . والهدوء . . والنوم الكيميائى بكثير من العقاقير . .

الخروج ..

ولكن المكتبات ليست فكرة يمكن طردها ..

ولا هى ضيف غير مرغوب فيه لا نفتح له الباب ولا هو زائر نلوى له بوزنا أو نتثاءب إذا تحدثنا إليه .. لأن القراءة غريزة ، فالمكتبات كذلك .. لا مكتبة واحدة . وإنما أية مكتبة فكما أن الطعام غريزة ، فأكل أى شىء ضرورى ..

فإذا أضفت إلى المكتبات الحب القديم الذى لا يموت ثم حنان الأمومة .. كل هذه المعانى تتفرع عليها مشاعر لا نهائية .. وكأن هذه المشاعر أفرع فى شجرة والشجرة لها أوراق وزهور وطيور وعطور وموسيقى من كل مكان .. وفى هذا الجو ومن أجله أشعر بالضياع الجميل .. أشعر بالنشوة حين لا أجد نفسى إلا فى هذا الطوفان أو الإعصار .. لا أعرف بالضبط ما اسم هذا الذى يملأ العقل والقلب والعين والأذن والأنف ..

هذه هى (مكتبة الألزاس) . . إنها لا تلفت عينا ، ولكن أنا لا أراها بعينى . . وإنما بعين عميقة هنا . . فى أعماقى . . رأيت سيدة كبيرة تشبه مدام لافورج . . ربما أختها الصغرى . وأحنيت رأسى وسألت : أخت مدام لافورج . .

- أهلا . أنا ابنتها كارين . .

- أنت مسيور ساور .

- إن أحدا لا ينادينى بهذا الاسم إلا هى . . فهى لا تعرف أن تنطق اسمى أنيس منصور . . ولذلك تسمينى انيسمان ساور !

ومدام لافورج من منطقة الالزاس حيث يختلط الفرنسيون بالألمان . . ولذلك قررت أن تنطق اسمى بالصورة الألمانية . . ولم أحاول أن أغير هذا النطق أو أعترض عليها بالنطق العربى . . فليكن أى اسم ما دامت هى التى تنطقه . . ما دام هذا النطق على شكل المحبة والتدليل : فليكن . .

ولما رأت باقة الورد فى يدى سألتنى : لماما . .

- يسعدنى . .

- هل تذهب إليها الآن ؟

- كم أحب ذلك . .

وأشارت إلى فتاة فى المكتبة أن تجلس مكانها . . وخرجنا وأدهشنى أنها وضعت يدها فى يدى . . واتجهنا إلى سيارتها . . وركبت إلى جوارها .

- أنت لم تأت إلينا من وقت طويل .

- مشاكل .

- حتى دخلت هى المستشفى . . وأقامت فيها . . هاها . . لم تكن مريضة عادية . . إنما مريضة صاحبة بيت . . فأخى طبيب فى مستشفى (أوتل ديو) . . وهى كانت مريضة . . وكان أخى مهاجراً إلى كندا . . ولم تكن قد رأته من عشرين عاماً . فقررت أن تقيم فى المستشفى لكى تراه كل يوم . . فهو الولد الوحيد ونحن أربع أخوات . .

- وأنا أيضاً كنت مريضاً فى أوتل ديو .

- ما اسم القسم ؟

- قسم الأستاذ روشمور . .

- هى مرت بهذا القسم ثم استقرت فى مكان بعيد عنه . . هل تعرف أنه كانت تذكرك أنت ومسيو ايزان . .

- تقصدين إحسان عبد القدوس .

- وكذلك مدام شديد .

- أندريه شديد ؟ والاثنان لا يعرف أحدهما الآخر . . وإحسان عبد القدوس توفى من وقت طويل . .

- أظنها قالت ذلك . . ولكنها كانت تذكرك كثيراً . . وكانت تتمنى أن تكون أمك وأن تكون أخا لابنها جان . . بل كانت تقول أنت أقرب إليها منه . . كانت تراك ابنها ـ وأنت كنت تراها أمك . . شىء غريب . .

- وأين تسكن هى الآن . . خارج باريس كما هى عادتها بعيداً عن الضوضاء والأضواء . .

- والله معها حق . .

- فعلا كان هذا اختيارها . . ثم صار مقرها الأخير . .

- مقرها الأخير . . يعنى إيه ؟

- نعم . ماتت بعد مصرع أخى فى حادث طائرة فى روسيا . . وهذا الورد سوف تضعه أنت على قبرها . . لم أشأ أن أقول لك ذلك فى المكتبة أو فى الطريق . .

ولم أستوعب تماماً كل التفاصيل التى روتها عن أمها فى أيامها الأخيرة . . ولا عن الحكايات التى كانت تقرؤها . . من بينها خطاب بعثت به أنا من روما سنة ١٩٥٤ بعد أن رأيت بابا الفاتيكان وكانت تحبه وتربطها به صلة قرابة . . وكانت تقول لى : خسارة أنك لست كاثوليكيا . . إن الذى تقوله عنك لم تقله عن ابنها جان . . حتى أنه كان يغار منها عندما تحدثه عنك . .

وكأننى أزور قبر أمى . فكل شىء قد ذاب فى عينى . . ذاب الزمان وذاب المكان أريد أن أبكى لها وأبكى عليها وأبكى على نفسى . . آه لو عاشت أمى عشرين سنة أخرى . . لقلت لها كذا وكذا . . ولكنها ماتت يوم لم أكن قادراً على التفكير ، وعاشت فى قلبى عندما أصبحت قادراً على أن أعطى وأحب مع عظيم الامتنان للتى لم أعد أراها . .

فأيها أفضل أن تكون قد عاشت وأنا عاجز عن الكلام الحلو . . أو تكون قد عاشت مريضة وأنا قادر على أن آتى لها بأحدث الأدوية وأعظم الأطباء . . الخيرة فيما اختاره الله . . اللهم لا

اعتراض على حكمك ولاقدرة لى على فهم حكمتك . . والحمد لله الذى أحيانى بعدها لأذكرها دائماً وأترحم عليها . .

لا أعرف كم مضى من ا لوقت . . أمام قبر مدام لافورج . . والذى كأنه قبر أمى . . وتلفت حولى لم أجد أحداً . . وعدت إلى المدخل الوردى الجميل للمقابر الأنيقة التى اختارها الأحياء للأموات . .

والمقابر مثل أشياء كثيرة فى دنيانا مظهرها بديع ، ولكنها كهوف مظلمة مخيفة . . ولم يطل نظرى وتأملى لما حولى . . فقد اعتدت على ذلك عند زيارتى لقبر أمى فى مصر الجديدة . . ووجدت كارين قد جلست فى سيارتها تقلب فى الصحف . . وتركت الصحيفة بسرعة ورأت دموعى ولون وجهى الذى تغير تماماً وانسداد نفسى عن الكلام . . وحاولت أن تعتذر لى عن هذه المفاجأة أو الصدمة . . وقالت لى : كنت أظنك تعرف . فقد قابلت مسيو كاردونى من السفارة وأنت تعرفه ؟

- نعم .

- وقلت له أن يبلغك أن والدتى قد ماتت وهى لا تنسى حفاوتك بها أنت ومسيو يوسف السباعى ومسيو إحسان ومسيو أحمد ومدام ارليت فى مينا هاوس . . ولا تنسى تلك الليلة التى اقترحت فيها أن يحكى كل واحد منكم قصة عن أمه . . وكانت قصتك هى التى أبكت أمى . . أما النصف الآخر فقد أضحكها . . وكثيراً ما كانت تحكيها لكل صديقاتها . . وعندى مفاجأة لك . . فقد اتفقت مع أحد الناشرين على ترجمة بعض

كـتـبك . . ولـكن الناشـر قـد مـات . . ولـم تكن أمى على عـلاقـة حسنة بالورثة ومات المشروع أيضاً . . هل تذكر الأب قنواتى . .

- طبعا . صديقى العزيز . .

- إن الأب قنواتى كانت صلته بنا قوية . وكـان يذكرك كثيرا . ويذكر د . عـبدالرحمن بدوى الذى لم أره والذى يصـفـه بأنه أكـبـر أستـاذ للفلسفة فى العالم العربى . . وأنه أستاذك .

- نعم . .

- . . . .

وأحـسـسـت بإرهاق شـديد . . وقـد أحـسـت بأنـهـا أرهـقـتـنى . . فـعـرضـت أن توصلنى للفندق . . ولـكنى دون مناقـشـة اعـتـذرت وخرجت . . ولا أذكر إن كـنـت قد صافـحـتها أو شكـرتـها أو وعدتها بزيارة أخرى . . ويبـدو أنها تعرف هذه السلوكيات فلم تناقشنى ولم تعترض ولم تستوقفنى . .

❑ ❑ ❑

وكـان الأستاذ توفيق الحكيم قد همس فى أذنى يوماً من الأيام بأنه هو وطه حسين كانا يجلسان على مقهى صغير بالقرب من المكتبة اسـمـها (مـقـهى ارسـتـيـد) . . وكـان لطه حـسين فـتـاة شـقـراء يحـبـها وتحـبـه . . وكـان الحكيم يجلس بعـيـداً عنهـمـا . وكـان طه حـسين يشترط عليه إذا جاءت (جنفييف) هذه ألا يسترق السمع . وكان توفيق الحكيم يحترم هذه الرغبة . . ويجلس إلى صديقته أوفيليا فى مكان آخـر من المقـهى . . ووجـدتنى وقـد جلست مكان طه

حسين . . ثم انتقلت لأجلس فى مكان توفيق الحكيم . . وابتسمت لفكرة خطرت لى : لو كان صحيحاً ما قاله الأديب البريطانى كونان دويل من أن الأشياء تحتفظ بتاريخها لتكلمت المقاعد أو الترابيزات وقالت لى ما الذى كان يقوله عميد الأدب وعميد المسرح . . وماذا كان يقوله طه حسين عن الحكيم ، وما يقوله الحكيم عن طه حسين . .

وقد قال لى توفيق الحكيم أن طه حسين طلب منه فى إحدى المرات أن يجلس معهما . . وتحدث طه حسين عن (الحب العذرى) فى الشعر العربى وقارن بينه وبين الشعر الرومانسى فى فرنسا وأسبانيا . وكان حديثه رائعا . . وقد حاول الحكيم أن يقنعه بنشر هذا الحديث ولكن طه حسين رفض . .

❑ ❑ ❑

لقد تمسكت فى هذا اليوم بكل الذى نصح به الطبيب من السير والجلوس وشرب القهوة والاحتراس من الانفعال الشديد . وطلب منى أتذكر دائماً أننى فى السنة الثانية ب . ج (بعد الجلطة) . ولا أنسى هذه الحقيقة مهما كانت الظروف . وتذكرت . .

❑ ❑ ❑

واتجهت إلى مقهى صغير آخر . . المقعد لم أتجه إليه وإنما وجدته . . وجلست ولم أشعر أننى جلست إلى جوار شخص أدهشه ما فعلت . ومعه حق فالأماكن كثيرة . ولماذا اخترت هذا الذى إلى جواره . . هو اندهش وأنا أيضاً . وجاء اختيارى دليلاً

على رغبتى فى أن أجد أحداً أو أكون قريباً من أحد . فقد استحكمت حلقات العزلة حولى . . وبسرعة قلت له :

آسف إذا كنت قد جلست إلى جوارك ولكنى أردت أن أسألك عن القصة الغريبة التى نشرتها صحيفة (الموند) . . وأنا ألاحظ أنك تقرؤها بعناية . .

ولم تنته دهشة الرجل الذى أخرجته من هدوئه . . أو اخترقت مجاله الأمنى . وكأنه أراد أن ينهى الحديث فورا فقال : أنا لا أقرأ إلا البورصة . . واقرؤها فى كل الصحف . .

أى أنه لا يقرأ حكايات . أى لم يكن هناك داع لأن أقترب وأقتحم وأسأل . وحتى لا أبدو سخيفا وجدتنى أقول له : إنما قصدت أن أستوضحك عما نشرته البورصة أمس عن ارتفاع وانخفاض الين اليابانى . .

وتهلل وجه الرجل سعيداً كأنه وجد واحداً من الممكن أن يناقشه وأن يفهم منه . . وأن يفهم معه . . ولا أعرف من أين جاءتنى فكرة الين هذه وأنا لا أقرأ البورصة ولا أجد سبباً لذلك . . ولا حتى حاولت أن أفهمها ، فلا داعى لذلك . . وأنا الآن فتحت على نفسى باباً من الحوار بلغة لا أعرفها ولا صبر لى عليها . . ولكن وجدتها مناسبة أمارس فيها شيئاً اكتسبته أخيراً . وهو كيف أهرب من أى حوار باختراع شىء آخر . . أو بالتظاهر بالتفكير العميق . . أو بالسرحان . . أى رفض كل ذلك . .

ومضى الرجل يقول وأنا أتابعه بعينين مفتوحتين . . لا أعرف كم مضى من الوقت . . ولا ما الذى قال . . ولا إن كنت رددت

عليه . . وكيف أنه لم يشعر لحظة واحدة أننى لست معه . . ولا يمكن أن أكون . .

هو الذى قال لى : أشكرك . . لقد صدعت دماغك بهذه الأرقام ، ولكن أنت الوحيد الذى وجدته قادراً على أن يفهم ما أقول . . أنا تعبت ولم أفلح فى إقناع أحد بأن الين اليابانى قادر على أن يمسح بالدولار الأرض وأن يشنق الاسترلينى وأن يدوس المارك وأن يسحق الفرنك . . ويكفى جداً تلك الحكاية التى أنت قلتها . . ولم أسمع بها من قط . ولكنها سوف تكون محور حديثى اليوم فى لقاء محررى الشئون الاقتصادية فى صحيفة (الموند) . . أشكرك وأرجو أن أراك غداً فى هذا المكان . .

- . . . .

إذن أنا ناقشته . . وأقنعته . . وأيدت وجهة نظره بحكاية عن البورصة . . وهذه الحكاية هى خلاصة الحجج التى سوف يسوقها إذا التقى بزملائه الليلة . . وهو سعيد بذلك لدرجة أنه يدعونى إلى أن نلتقى غداً يروى لى ماذا قال وماذا فعل . . ويسألنى المشورة . . كيف حدث ذلك ؟ لا أعرف . .

□ □ □

وقلت لنفسى : كفى اليوم . . عد إلى الفندق . . لقد كان كل شىء مملاً . . وأحسست كأننى أطالع فى كتاب (أدب الدنيا والدين) للماوردى . . فكل شىء حكم ومواعظ . .

أو كأننى أقرأ فى كتاب (فتوى) لمولانا جلال الدين الرومى . .

كل هذه المواعظ لها أبعاد صوفية فلسفية . . أو يجب أن يكون لها ذلك . . وأن كل ما يحدث على الأرض بين الحيوانات والطيور والحشرات والأشجار والكواكب كله مربوط ربطاً فلسفياً محكماً . وبينها جميعاً حوار لم يسمعه إلا مولانا جلال الدين الرومى . .

أو كأننى التقيت بحيوانات (كليله ودمنه) فتارة أنا الأسد وتارة أنا الفيل وأنا الذئب وأنا الثعلب . . وفى كل الأحوال أجد المعنى والدلالة والحكمة وراء كل شىء . . وأنا طريح هذه الكتب وغيرها من أساطير الأولين وخرافات الإغريق والرومان والهند وإيران والتبت . . والمستشفيات والأطباء والميكروبات والممرضات . . ولا أعرف إن كان كل ذلك يقال على فراش المرض . . أو أثناء حساب الملكين . . أو أننى أهلوس بكل ذلك . . أو أننى الذى قلت أو أن أحداً قال لى ذلك وأنا أردده . . هناك زحام فى أذنى وفى عينى . . وهناك انفصال . . انفصام هناك آخرون يقولون فى داخلى وعلى لسانى وفى أذنى . . وأنا أسجل ما يقال راضياً مرضياً مستسلماً تماماً . .

حتى هذا الكلام لا أعرف إن كنت قلته أو أننى سمعته فتصاعدت الكلمات ووجدت أذناً صاغية وعقلاً مفتوحاً فاستقرت فى أذنى ثم انفرطت فى عقلى . .

فهذه حالى ؟!

أفكار ليست بيضاء!

عبارات كتبتها على روشتات الأطباء . . وعلى أكياس الورق . . ووضعتها تحت المخدة . . وخطفتها من أيدى الممرضات قبل أن يلقين بها فى الزبالة .

❑ ❑ ❑

مريض فقد عقله فجأة . . السبب : أنه رأى فواتير العلاج!

❑ ❑ ❑

يجب أن تكون هناك غرفة أخرى للإنعاش بالقرب من خزينة المستشفى!

❑ ❑ ❑

كل العمليات الجراحية صغيرة . . ولكن العملية الكبرى هى دفع تكاليفها!

❑ ❑ ❑

سرير المستشفى يشبه التاكسى لأن له «عداداً» لايتوقف!

❑ ❑ ❑

فى المستشفيات يطلعونك على شيئين : حالتك الصحية وتكاليف العلاج!

❑ ❑ ❑

الدواء : على الطبيب . . والشفاء : على الله!

❑ ❑ ❑

فى استطاعة أى مستشفى أن يضعك أنت وفلوسك فى غرفة الإنعاش!

❑ ❑ ❑

المستشفيات الآن : الدفع أولا!

❑ ❑ ❑

لم يجد العلماء دواء لعلاج هذين النوعين من الألم : ألم المرض وألم مصاريف العلاج!

❑ ❑ ❑

شىء فادح الثمن : أن تكون مريضاً فى مصر!

❑ ❑ ❑

هل تعرف لماذا يكره بعض المرضى «الشوربة» لأنها تهتز مثلهم!

❑ ❑ ❑

إذا كان صحيحاً أن الناس جميعاً قد ولدوا أحراراً ، فلماذا لايقال هذا الكلام للممرضات!

❑ ❑ ❑

عندما تجد لطعام المستشفى طعماً ، فمعنى ذلك أنه يجب أن تترك المستشفى فوراً !

❑ ❑ ❑

أصبحت المستشفيات مكدسة لدرجة أنه يستحيل عليك أن تدخلها إلا إذا وقعت لك كارثة!

❑ ❑ ❑

المستشفى هو المكان الوحيد الذى يوقظونك فيه عند الفجر ليسألوك عن سبب مجيئك!

❑ ❑ ❑

هناك نوعان من المرضى : مرضى يائسون من العلاج . . ومرضى يائسون من أن يجدوا للطعام رائحة!

❑ ❑ ❑

لو كان عند الناس قليل من الصبر ، لفرغت المستشفيات من المرضى!

❑ ❑ ❑

الفنادق كالمستشفيات تدفع فيها ألوف الجنيهات ومع ذلك يسمونك ضيفاً !

❑ ❑ ❑

الذين يقولون إن النوم هدية مجانية من عند الله ، لايعرفون كم يتكلف ذلك فى الفنادق والمستشفيات!

❑ ❑ ❑

لو عرفت أين يوجد ذلك المرض الذى اسمه الحب؟

❑ ❑ ❑

التى تقول لك : أنا أموت فيك تغمض عينيها عادة حتى لاتعرف أنت أى مكان فيك هذا الذى تقصده!

❑ ❑ ❑

لقد تزوج طبيب طبيبة لسبب بسيط : أن يتفرغا للقضاء على بعضهما البعض وبمنتهى العناية المركزة!

❑ ❑ ❑

هذا الرجل وزوجته قد انفصلا . . فقد أصابهما مرض واحد : الملل!

❑ ❑ ❑

المرض الذى لا علاج له هو : إحساس الناس بعجزهم عن دفع تكاليف المرض!

❑ ❑ ❑

المرض مثل إعلانات التليفزيون . . مهما كانت سريعة فهى طويلة!

❑ ❑ ❑

فيروس الزكام من السهل التقاطه ولكن من الصعب العثور عليه!

❑ ❑ ❑

فى أمريكا : دجاجتان فى كل طبق ، سيارتان فى كل جراج : صداعان لكل قرص أسبرين!

❑ ❑ ❑

أرخص العقاقير انتشاراً لعلاج كل الأمراض : النصائح!

❑ ❑ ❑

العقاقير الحديثة تحقق المعجزات : أنها قد تضيف إلى عمرك عشر سنوات ، وفى نفس الوقت تأخذ «تحويشة» عشر سنوات!

❑ ❑ ❑

إن ارتفاع تكاليف العلاج والتمريض والعقاقير تكفى لإصابة أى إنسان بمرض!

❑ ❑ ❑

ارتفعت أسعار الأدوية لدرجة أن الوقاية أغلى من العلاج!

❑ ❑ ❑

هناك نوعان من الترمومترات فى المستشفيات : واحد يضعونه فى فمك والثانى يضعونه فى جيبك!

❑ ❑ ❑

الذى يصف الممرضات بأنهن ملائكة الرحمة ، لا رأى الملائكة ولا ذاق طعم الرحمة!

❑ ❑ ❑

إذا كانت الممرضات ملائكة الرحمة ، فكيف يكون شكل شياطين العذاب؟

❑ ❑ ❑

بعض الممرضات إذا نظرت إلى وجوهن وعيونهن واقترابهن منك أدركت أنهن أحق الناس بالنوم على سريرك إلى الأبد!

❑ ❑ ❑

إذا أردت أن توفر فلوساً لعلاج قلبك ، فيجب أن تعمل ٢٤ ساعة فى اليوم وسبعة أيام فى الأسبوع!

☐ ☐ ☐

كلما تقدم الإنسان فى السن أصبح المكان الذى يشغله فى المستشفيات صغيراً جداً !

☐ ☐ ☐

أحسن دواء : أن تضحك لسبب ولغير سبب - ولغير سبب أفضل!

☐ ☐ ☐

الدعاية الضخمة للأدوية الجديدة جعلت بعض الناس يحزن لأنه ليس مريضاً !

☐ ☐ ☐

أعظم دواء فى الدنيا : أن تحب جارك وعدوك!

☐ ☐ ☐

آه لو استطعنا أن نحقق الهدوء بلا مهدئات!

☐ ☐ ☐

أوضح صور لأى إنسان هى صورته مع نعيه فى الصحف!

☐ ☐ ☐

الموت الطبيعى : هو أن يموت الإنسان وحده ، وليس عن طريق طبيب!

☐ ☐ ☐

معظم «الحانوطية» رفعوا أسعارهم بسبب ارتفاع أسعار المعيشة!

☐ ☐ ☐

كلما اقتربنا من نهاية الحياة ، اشتد ندمنا على أننا أضعناها!

❑ ❑ ❑

الموت ليس إلا ندماً طويلاً فى آخر مراحل العمر!

❑ ❑ ❑

نصيحة : لا تمت قبل الأوان!

❑ ❑ ❑

لم يمت من لا يزال الناس يذكرونه!

❑ ❑ ❑

عندما نموت نترك وراءنا كل ماهو مزيف ، ونأخذ معنا كل ماهو حقيقى!

❑ ❑ ❑

وردة واحدة وأنت حى ، أفضل من ألف باقة من الورد وأنت ميت!

❑ ❑ ❑

لاتستطيع أن تعيش من غير أطباء . . ولا أن تموت أيضاً!

❑ ❑ ❑

الشىء المؤكد فى حياتنا هو أننا سوف نتركها!

❑ ❑ ❑

الرجل الذى رفض أن يؤمن على حياته هو الذى قرر أن يجعل يوم وفاته يوما تعيسا لأهله جميعا!

❑ ❑ ❑

الحياة كلها مشاكل . . ولكن المكان الوحيد الخالى من المشاكل هو : القبر!

❑ ❑ ❑

لا تأسف على أنك تصحو مبكراً ، سوف يجىء وقت لاتستطيع ذلك!

❑ ❑ ❑

كثير من الناس ينفق صحته من أجل الفلوس ، وكثير من الذين عندهم فلوس ينفقونها من أجل الصحة!

❑ ❑ ❑

الفلوس والنجاح والشهرة مهمة جدا فى حياتنا . . ولكنها فادحة التكاليف إذا كانت الصحة هى الثمن!

❑ ❑ ❑

أعظم دواء لصحتك : أن تكون معتدلاً !

❑ ❑ ❑

من ينفق صحته وراء ثروته يفقد الاثنين!

❑ ❑ ❑

من يعتقد أن الفلوس هى كل شىء هو شخص لم يعرف المرض!

❑ ❑ ❑

أعظم ثروة : صحتك وزوجتك!

❑ ❑ ❑

الشخص الثرثار ينقذك من الوحدة ، ويجعلك تتمنى ذلك!

❑ ❑ ❑

الذين يشعرون بالعزلة هم الذين اقاموا الجدران لا الجسور!

❑ ❑ ❑

لماذا يشعر الناجحون بأنهم فى عزلة ، لأنهم ضحوا بكثير من الأصدقاء أثناء صعودهم إلى فوق!

□ □ □

كثير من الشبان تزوجوا لأنهم يشعرون بالعزلة ، وطلقوا زوجاتهم لنفس السبب!

□ □ □

أكثر الأماكن وحشة أن تكون وحدك فى مستشفى!

□ □ □

أكثر الأماكن فى جسمك فراغا : قلبك عندما لاتحب!

□ □ □

إذا ضحكت : يضحك معك العالم ، وإذا فكرت : تموت من الوحدة!

□ □ □

تريد أن تكون وحيدا فى هذه الدنيا : قل الحق!

□ □ □

الفشل مضمون لمن عنده غرور وينام طويلاً !

□ □ □

الذين يفاخرون بأنهم ينامون كالأطفال لم يروا طفلاً عندما ينام!

□ □ □

بين اليأس والأمل : جسر من النوم الهادئ !

□ □ □

إذا أردت أن تسمعك زوجتك باهتمام : قل أى شىء وأنت تتظاهر بالنوم!

❑ ❑ ❑

إذا مشى إنسان أثناء النوم فإنه يترك زوجته ، وإذا تكلم أثناء النوم تركته زوجته!

❑ ❑ ❑

الذين ينامون واقفين : الخيول وآباء الأطفال حديثى الولادة!

❑ ❑ ❑

الذى يمشى أثناء النوم هو الشخص الوحيد الذى ينام ويتريض فى نفس الوقت!

❑ ❑ ❑

ومن تحت المخدة وبين المراتب وجدت أوراقاً مكرمشة . . لقد أخفيتها عن الممرضات اللاتى يرين أن كل ورقة هى شىء قذر يجب التخلص منها فوراً . . مادامت هذه الورقة ليست موجودة فى علبة دواء . . هذه الأوراق المكرمشة قد تآكلت حروفها حتى لم أعد أفهم لماذا كتبتها على صورة معادلات رياضية . .

❑ ❑ ❑

قل لى يا دكتور : إذا كنت أنت المريض فهل كنت توافق على أن تكون فى خدمتك مثل هذه الممرضة . . أنظر إلى عينيها إلى أصابع يديها . . إلى شعرها . . إلى جزمتها . . إلى أسنانها .

– لا أجد شيئا غريبا . .

- أما أنا فقد وجدت .

- ماذا وجدت؟

- وجدتك أنت يا دكتور !

□ □ □

- قولى لى يا ممرضة : لو كنت مريضة فهل تقبلين هذا الدكتور معالجا لك . .

- لا

- لماذا؟

- لأنه أنيق زيادة عن اللزوم . . أنظر إلى شعره . . لقد سواه فى نصف ساعة . وإلى شاربه الرفيع لقد سواه فى ساعة . . وملابسه وكرافتته . . وإلى أظافره البيضاء التى قصها ونظفها فى ساعة . . ولذلك لايمكن أن يكون هذا رجلاً يسعف المرضى وينقذ المساكين من الموت . . فليس عنده وقت لأى شىء مهم . . ولكن وقته لنفسه . . لكل ماهو تافه .

□ □ □

قل لى يا دكتور : هل تنصح أحدا من المرضى ، أن يجىء إلى هذا المستشفى؟

- نعم .

- لماذا؟

- لأن هذا هو أحسن مستشفى فى البلد .

- وهل أنت أحسن دكتور فى البلد ؟!

- لا .

- فمادمت لست أحسن دكتور فنصيحتك ليست أحسن نصيحة!

❑ ❑ ❑

- هل الموت أنواع يا دكتور؟

- لا . . الموت واحد .

- بل أنواع يا دكتور . . الموت الذى نعرفه . . والموت الذى يضطر إنسانا لأن يكون ضحيتك!

❑ ❑ ❑

- كم نوعا من الدكاترة يا دكتور؟

- هناك ألوف التخصصات .

- ولكن كل تخصص له دكتور . . وكل الدكاترة لهم صفات مشتركة لكى تمارس الفحص والعلاج .

- صحيح .

❑ ❑ ❑

- من هو دكتور الدكاترة؟

- لا يوجد .

- بل يوجد .

- من هو ؟

- الموت!

❑ ❑ ❑

- ماهى أنواع الأدوية يا دكتور؟

- لا تحصى ولا تعد .

- صحيح . . ولكن هناك دواء لم يخترعوه بعد . . ويبدو أنهم لن يفعلوا؟

- ماهو ؟

- الدواء الذى يجعلنا نرفض أى دواء آخر !

❑ ❑ ❑

- قل لى يا دكتور ؟ هل هناك دواء يقى من كل داء .

- لا . .

- بل هناك يا دكتور ؟

- ماهو ؟

- الموت !

❑ ❑ ❑

- هل تعرف أين توجد أرض السلام ؟

- كل أرض ليست فيها حروب هى أرض للسلام .

- أين هذه الأرض؟

- لا بد أن هناك مكاناً لا حرب فيه . .

- فما قولك فى الغيرة والحقد والحسد والطمع . . أليست كلها حروب داخلية . . حروب فى أعماق الناس ضد الناس .

- فعلا نحن فى أعماقنا ساحات للقتال . . إذن لاتوجد أرض تعيش فيها بسلام .

- بل توجد أرض كلها سلام بين سكانها .

- أين هى ؟
- المقابر !

□ □ □

- كأنك تريد أن تقول إن الموت أفضل من الحياة .
- ولكنى لم أقل . . لأن الحياة أروع وأجمل .
- ولكنك تمتدح السلام . ولا نجد السلام إلا بين الموتى .
- وإنما أقول إن السلام الذى هو الموت هو نهاية المريض والسليم والغنى والفقير والقوى والضعيف . . ولكن الموت هو انعدام الحياة . . ولو خيرت كل هؤلاء الناس بين الموت الذى هو لا شىء وبين الحياة التى هى كل أوجاع القلب والرأس والمعدة لاختاروا هذه الحياة أملاً فى الشفاء!

□ □ □

المتصوف الألمانى اكهارت هو الذى قال : إن أسرع حيوان ينقلك إلى الكمال : الألم .

ولكن أحداً لا يختار الألم لكى يصل إلى الكمال . . ولكن الألم هو الذى اختاره لقدرته الفذة على التعبير . . هو الذى اختار الموسيقار بيتهوفن والشاعر شيكسبير والرسام دافنشى والمخترع اديسون . . اختارهم الألم لأنهم أقدر وأكفأ المخلوقات على بلوغ الكمال فى الشعر والرسم والعلم .

□ □ □

ما الذى يمكن أن يكتبه من يأكل المسلوق وينام فى غرفة إنعاش

وتحت جلده حقن وفى دمه عقاقير وفى أنفه أوكسجين وفى بطنه مغص . . وإذا كتبت فماذا يقول؟ ولمن يقول؟ وما أهمية ما يقول ؟!

❑ ❑ ❑

ما أكثر الذين درسوا المرض ، وأقل الذين درسوا الصحة!

❑ ❑ ❑

هناك ميزة كبيرة لأن تكون فقيرا . . وهى أن الأطباء يعالجونك بسرعة !

❑ ❑ ❑

ليست الأمراض هى الخطيرة ، وإنما بعض الأطباء أخطر!

❑ ❑ ❑

هناك دواء أسوأ من الداء!

❑ ❑ ❑

لا تحمل معك إلى فراشك هموم الأمس والغد ، فهموم اليوم تكفى!

❑ ❑ ❑

العقول الإلكترونية تفكر لنا . . كل ما ينقصنا هو عقول إلكترونية أخرى تحمل عنا همومنا!

❑ ❑ ❑

التعليم مهم جداً ، لأنه يجعلك أقدر على خلق هموم أكثر!

❑ ❑ ❑

لاتقلق الآن كثيرا على المستقبل ، عندما نصبح فى المستقبل سوف تجد كفايتك من وجع القلب!

❑ ❑ ❑

إذا أردت أن تعيش طويلا ، دع شخصا آخر يحمل عنك همومك!

❑ ❑ ❑

الإنسان الصغير هو الذى ينظر أمامه ووراءه دون أن يشكو من الذى حدث ، ودون أن يشكو من الذى سيكون !

❑ ❑ ❑

الفلوس مشكلة إذا لم تكن معك ، وإذا كانت معك أيضاً !

❑ ❑ ❑

حياتنا : التخلص من متاعب قديمة ، لننشغل بمتاعب جديدة!

❑ ❑ ❑

سخيف جداً إذا أنت شغلت نفسك بمصائب الغد . . لماذا تفتح «الشمسية» قبل طلوع الشمس؟!

❑ ❑ ❑

الندم لا يمحو الماضى ، ولكنه قادر على أن يفسد الحاضر!

❑ ❑ ❑

لاشىء يعجل برحيل الإنسان إلا كثرة الهموم!

❑ ❑ ❑

إذا طال همك قصر عمرك!

❑ ❑ ❑

أنت لا تعرف قيمة زوجتك إلا إذا وقفت وحدك فى وجه المرض والموت!

❑ ❑ ❑

تصبح الدنيا ثقيلة جداً ، إذا لم تجد مخلصاً أو مخلصة تحملها معك!

□ □ □

يموت مرتين وثلاثا وأربعا من انفرد به الأطباء والممرضات!

□ □ □

زوجة مخلصة : دواء ليس فى زجاجة ، وطبيب لا يرتدى بالطو أبيض ، وابتسامة أمل فى عواصف اليأس!

□ □ □

الحزن هو الذى يجعل وجهك يتجعد ، فيضاعف حزنك!

□ □ □

بعض الناس مشغولون بنهاية العالم ، أكثرهم مغشول بنهاية الشهر!

□ □ □

لماذا تقتل الهموم كثيرا من الناس أكثر مما يقتلهم العمل ، لأنهم غارقون فى الهم أكثر من استغراقهم فى العمل!

□ □ □

نحن نشغل أنفسنا كثيرًا جدًا بما سوف يحدث أكثر من انشغالنا بالذى حدث فعلاً .

□ □ □

عندما يقول أى إنسان : لا توجد مشكلة . . فهذه هى المشكلة!

□ □ □

الشيخوخة هى الشباب وقد ألقت عليه الأيام دلواً من الماء البارد!

□ □ □

الشباب يذهب والجمال أيضا . . ولكن صفاتك الشخصية لاتموت . .

□ □ □

الشخص : يموت والشخصية : لاتموت!

□ □ □

فى شبابنا ندوس المصاعب . . فى الشيخوخة تدوسنا المصاعب!

□ □ □

العجوز يصدق كل شىء ، الرجل يشك فى كل شىء ، الشباب يعرف كل شىء : مصيبة!

□ □ □

مشكلة الشباب هذه الأيام هو البحث عن امرأة جميلة يحبها ، وامرأة بلهاء تصدقه!

□ □ □

الشيوخ يعلنون الحرب ، والشباب يخوضونها!

□ □ □

شباب هذه الأيام يذهبون إلى الحلاق وطبيب الأسنان مرة كل سنة!

□ □ □

بعض الشباب فيهم سذاجة لأنهم يقولون للفتاة التى يريدون الزواج منها : أنا لا أصلح لك . . لماذا لاتجعلها مفاجأة!

□ □ □

لاتستطيع أن تعيش بالأمل وحده ، ولا تستطيع أن تعيش بغيره!

□ □ □

أنت تشكو من الطعام فى البيت ، ومن سعره فى المطاعم!

❑ ❑ ❑

أحسن طعام لعينيك : الجزر . . هل رأيت أرنباً يضع منظاراً ؟!

❑ ❑ ❑

عجبت من إبليس فى كبره
وخبث ما أضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة
وصار قواداً لذريته!

❑ ❑ ❑

رأيت شاة وذئباً وهى ماسكة
بأذنه وهو منقاد لها سارى
فقلت : أعجوبة . . ثم التفت أرى
مابين نابيه ملقى نصف دينار
فقلت للشاة : ماذا الإلف بينكما
والذئب يسطو بأنياب وأظفار؟
تبسمت وقالت وهى ضاحكة :
بالتبر يكسر ذاك الضيغم الضارى!

❑ ❑ ❑

قلوب العاشقين لها عيون
ترى مالا يراه الناظرونا
وأجنحة تطير بغير ريش

إلى ملكوت رب العالمينا

□ □ □

يا منزلا لعب الزمان بأهله

فأبادهم بتفرق لا يجمع

إن الذين عهدتهم فيما مضى

كان الزمان بهم يضر وينفع

أصبحت تفزع من رآك وطالما

كنا إليك من المخاوف نفزع

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم

وبقى الذين حياتهم لاتنفع .

□ □ □

يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة

فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن

فمن الذى يدعو ويرجو المجرم

مالى إليك وسيلة إلا الرجا

وجميل عفوك ثم أنى مسلم

يارب : رحمتك !

فوجئت بالطبيب الذى يعالجنى يقول لى : الان يامسيو منصور تستطيع ان تجلس الى نفسك . الآن !

ولو لم يقل لى هذه العبارة لوجدتنى أقولها لنفسى : الآن . . أى بعد الذى كان فى المستشفى من مرض وعلاج ويأس وأمل ودوخه ومحاولة أن أعرف أين ومتى والى اين أذهب . . وكم بقى من العمر . . وهل من الممكن ان يبقى عمر . .

(الان) اجلس مع نفسى لاقول ماذا . . لا سمع ماذا . . ومن الذى يقول ؟ أنا . . ومن الذى يسمعنى؟ أنا . . فأى واحد من هذين الاثنين هو أنا . . أنا المريض الذى ينصح أو أنا الذى كان مريضا هو الذى ينصح حتى لا اعود مريضا مرة أخرى . .

وقررت ان أجلس الى نفس . . وانتبذت مكانا قصيا جميلا فى



باريس . . جزيرة . . وفى الجزيرة مطعم اسمه (مطعم الجزر) فى بحيرة فى قلب غابة بولونيا فى قلب باريس . . وأنا فى قلب المطعم انظر حولى وفى داخلى . . ولا أريد ان أسمع ألا ما أقوله لنفسى عن نفسى . .

الجزيرة هادئة : لا صوت . . والجو صاف : لا هواء ولا حركة لاوراق الشجر . . حتى صوت الزورق الذى يأتى بالناس كأنه يعتذر عن أن يكون له صوت . . والجرسونات بملابسهم البيضاء . كأنهم أطباء أو ممرضات . . ولكن الذى فى أيديهم ليست زجاجات دواء ولا هى حقن . . وحركتهم حولى موسيقيه كأنهم يرقصون على ايقاع لا أسمعه . . اذن انا لست فى المستشفى . . والناس يتهامسون . . ولا أحاول أن اعرف ما يقولون . . ولا من أى البلاد . .

اننى أحاصر نفسى . . أعزل نفسى لأتفرغ تماما لما سوف أقول . . لما سوف أقرر . . ولن اقرر الا مصيرى ومسارى على الصراط المستقيم بين الصحة والمرض . . هذا هو الذى يجب ان اقرره حالا والآن . فلم يكن الطبيب مازحا . بل كان جادا مهددا . فقد ترك أمرى لى . . ومرضى لى . . ومستقبل حياتى . . والسنوات الباقية من العمر والمرض فى يدى . . أو فى رجلى التى كانت قد اصابتها الجلطة . أين أضع رجلى . . وكم من الوقت تكون الساقان تحت المكتب وكم من الوقت تتحركان فى الطريق . . حتى لا يتجلط الدم مرة أخرى . . وحتى لا يتكدس ويتراكم ويعوق مسار الدم الى كل مكان . . أى حتى لا يكون قنبلة زمنية تتناثر شظاياها فى المخ والقلب والرئتين . .

وأتذكر الآن أننى عندما طلبت من الأستاذ العقاد بعد تخرجى فى الجامعة : ماذا أفعل يا أستاذ ؟

ولم يرحب العقاد بالسؤال بل وجد السؤال دليل ادانة للفلسفة التى تعلمتها ولم تعلمنى كيف أسأل ولا كيف أجيب . . واحتقار العقاد لاساتذة الفلسفة والجامعات لا حدود له . . فمن رأيه أن الجامعات لا تطلق العقل وانما تقيده . . وهى لا تدفع الفكر الى الامام وانما الى الدوران حول نفسه . . وطلاب الفلسفة عبارة عن قرود مربوطة فى سلاسل والسلاسل فى أيدى الاساتذة الذين هم قرود أيضا . فلا هم بشر ولا هم قرود . . والاساتذة لا هم علماء ولا هم قرداتية .

فلما سألت الاستاذ العقاد أحسست أننى أرحته . . فقد جسدت له الصورة التى يعرفها والتى لا يمل تكرارها . . ومن قبله كان الفيلسوف الوجودى كيركجور يكره اساتذة الفلسفة لانهم يقدمون للطلبة أفكارا فى علب من ورق . . ولا ينيرون عقولهم ولا يقلقونهم على مستقبلهم . والفلسفة لا قيمة لها اذا لم تكن مصدر للاضاءة والاحتراق . .

ويومها قال لى العقاد ساخرا : شوف يامولانا . . امش . . أمش . . ولا تتوقف عن المشى . فاذا أرهقك المشى اجلس . واذا جلست انظر وراءك ماذا فعلت وماذا أفدت . فاذا لم تجد انك قد حققت شيئا فعاود المشى . . واذا تعبت اجلس وحاسب نفسك ولا تكف عن السؤال . . هل اخترت الطريق الصحيح . . هل الطريق الذى اخترته هو الذى من الممكن ان يجعل منك شيئا . . هل

الطريق كان مستويا أو مليئا بالمطبات . . هل وجدت نفسك تقفز فوق المطبات . . هل وجدت قدمك تطاوعك نازلة طالعة فى المطبات . . هل كنت تنظر إلى قدميك اثناء المشى . . هل رأيت شجرة . . هل تابعت عصفورا . . هل أدهشك شىء مما رأيت . هل اقنعك الذى رأيت . . هل أرضاك . . وعندما وضعت يدك فى جيبك هل وجدت منديلا تمسح به دموعك وعرقك . . هل وجدت ورقا وقلما . . هل شعرت بالجوع . . هل شعرت بالوحدة . . هل اسفت على انك مشيت وحدك . . وهل أنت شديد الاسف على انك سوف تعود وحدك . . هل نظرت الى السماء وتساءلت ما هذا الذى فوقنا . . هل هناك معنى للدنيا . . هل لك أنت معنى . . هل لك دور . . هل أنت ضرورى . . واذا لم تفعل ذلك مرة واحدة فى حياتك فلا داعى لان تكرر المشى . . فأنت يامولانا مؤهل لشىء آخر . . هل تذكرت اسم أى واحد من الفلاسفة . . هل رضيت بكل الذى تعلمت وقرأت . . هل وجدت فى ذلك عونا لك على الافلات من هذه المحنة أو البقاء فيها حتى تجد لك وسيلة للخروج . .

يومها قال العقاد كل شىء ولم يكن ساخرا من الفلاسفة والنظريات الفلسفية . . ثم وضع يده على كتفى ورفعها بسرعة قائلا : لقد وضعت عليك عبئا ثقيلا ولا أريد ان أضيف اليه يدى . .ايام أو شهور سوف تجدنى فى انتظارك لا سمع قرارك !

وأشار بيده ان اقوم كأنه ركلنى فرحت أقفز على السلالم . . وفى الشارع الى بيتى تحت اللحاف اعطس عاجزا عن التنفس . .

فقد اصابنى منطق الاستاذ العقاد ببرودة شديدة . . برعشه . . بحمى . . وقشعريرة عقلية .

ولم أعد الى الاستاذ العقاد وانما اتجهت الى طه حسين أحكى له ما جرى . . ما قال العقاد وما أصابنى . . ونظرت الى طه حسين انه هادئ حانى الرأس كعادته . . يستمع صامتا حتى فرغت من كلامى الطويل . ثم رفع رأسه ليقول بصوته الجميل وابتسامته الساحرة الناعمةالتى لا تجرح أحدا : يا سيدى . . بل استمع الى قلبك . وليس الى عـقلك الآن . . أطل الانصـات الى قلبك . والذى يقوله لك يجب أن تصدقه فورا . . يجب الا ترغم نفسك على شىء . . يجب الا تعاديها . . يجب الا تنقسم إلى اثنين احدهما يشمت فى الآخر . . فعندك كل ما يجعلك شيئا هاما فى حياتك . . لا تقلق . لا تخف . . فالله لا يخلق موهبه لكى تضيع . . اجلس . . نعم اجلس الى نفسك . . وحدك . . واعط قلبك فرصة ليقول لك . . وسوف تسمع منه مايرضيك وما يسعدك . . وأنت لست فى حاجة الى أن تجوب الدنيا سيرا على قدميك لتعرف من نفسك عن نفسك ما تريد . . اجلس وأطلق خيالك . . اترك نفسك لنفسك . . وسوف اساعدك على نفسك . . لا تسرف فى التساؤل حتى لا تدمن السؤال ولا تعرف الاجابة . . اسأل نفسك : ماذا تريد؟ ما الذى يصلح لك . . ما الذى تستطيع . . ولا تسأل نفسك من أين تبدأ . . فلا أحد يعرف كيف ينتهى ولا كيف يبدأ . . ولكن سوف تفاجأ بأن قرارا قد اتخذ فى داخلك دون أن تدرى . وهو اقرار جماعى بأن تكتب أو ترسم أو تغنى أو تعود للجامعة . . انتظر . . ارفع رأسك الى السماء لتشهد

هلال حياتك الأدبية . . واذا لم تر الهلال اليوم فسوف تراه غدا . لابد ان يظهر لك هلال . . لابد . . واذا كان لابد ان تسأل احدا من اصدقائك . . فليس الآن . . فأنت الآن مع نفسك . ويجب ان تكون مع نفسك . . أن العقاد لم يخدعك . لقد قال لك الحقيقة . . ولكن بقسوته . . وهى ليست قسوة عليك . . فالعقاد قاس على نفسه مع احتقار عظيم لكل مادرست أنت وتعلمت . . فليكن هذا رأيه . والحقيقة انك تعلمت الفلسفة وأنت ماض فى هذا الطريق . فلا تجعل اسئلتك سياطاً على ظهرك . . فتكون انت الضحية والجلاد معا . . فلا ضحيه ولا جلاد ياسيدى . . فأنت فى مأزق نبيل . فأحترم نفسك واحترم حريتك . واحترم قلقك من أجل أن تعرف أصعب شىء فى الدنيا . من أجل ان تعرف نفسك . . لا شىء أعز على الإنسان من أن يعرف نفسه ليعرف ما الذى يريده لها . . لنفسه ولعقله ولقلبه ولجسده ولدنياه . . اجلس وحدك ولا تخف ولا تكره ولا تحقد ولا تحسد . . اجلس وبعد ان تراجع الاستاذ العقاد . . سوف تجدنى فى انتظارك !

وفى يوم عاودتنى الحيرة بعد سنوات من اشتغالى بالصحافة والتدريس فى الجامعة . وانفردت بالشاعر الكبير والصديق كامل الشناوى . وفأجأته بهذا السؤال الذى لم يكن مستعدا له . ولكن استعداده للسخرية هو من اهم صفاته . فهو مثل جندى يحمل كل انواع السلاح الجاهزة لا طلاق النار على أى جسم يتحرك فى الارض أو فى السماء . قلت له : أنا غير راض عن هذا الـ . .

وبسرعة سألنى : هذا ؟ تقصد ماذا ؟

- أقصد حياتى الصحفية والادبية وعن تدريس الفلسفة فى

الجامعة . وأريد ان اعرف منك ما الذى استطيع ان افعله أفضل وهل أمضى فى هذا . .

- فى ماذا ؟

- فى هذا الذى لا اعرف كيف اسميه . .

وبسرعة حتى لا استدرجه الى طلقات من الأسئلة وعواصف من الحيرة وضباب من القلق واشغله عن السيجارة التى لا تنطفىء بين أصابعة والقهوة التى لا تفارق شفتيه والتليفونات التى لا يتوقف لها رنين وبذكائه الخارق الحارق قال : اسمع أى كلام يقوله لك العقاد أو طه حسين واعمل عكسه تماما . . اذا قال لك العقاد اتجه غربا فأذهب شرقا واذا قال لك طه حسين اتجه شمالا فأذهب جنوبا . . هاها . . هاها . . انهما ينفخان فى قربه مقطوعة . . يقولان ولا أحد يسمع ولا أحد يقرأ (يرن جرس التليفون) أهلا يازينات أين أنت الليلة . سوف نجىء . . كم عددنا؟ ربما عشرون . . انت اللى وحشتنى والله قوى . . وسوف يكون معى أنيس منصور . . نعم سوف يجىء . .

وتنتهى المكالمة ويقول لى كامل الشناوى : لا تنس اننا سوف نتعشى . وزينات علوى وفريد الأطرش . فرصة لكى تنسى كل الذى قاله العقاد وطه حسين . .

ومن قبل قال لنا الفيلسوف الالمانى نيتشه : اجلس وحدك فوق بركان . . تهتز الارض تحتك . اجعل بيتك فوق الجبال يجب ان تعيش كالنسور وتموت مثلها . . عش فوق . ومت فوق !

وقبله قال الفيلسوف الوجودى الدنمركى كيركجور : واجبنا ان ندق الاجراس حتى لا يبقى فى المدينة أحد فى فراشه . يجب أن ينهض كل الناس وأن يخرجوا . . وان يتساءلوا وأن يثوروا . . فالنوم الطويل لم يحقق للبشرية شيئا . . فالبشرية لاتدين بشىء للذين ناموا . . انما للذين عرفوا القلق والارق والعرق وطار النوم من عيونهم ليحملوا أمانة الفكر ومحنتة . .

وحديثا قال الفيلسوف الاسبانى اونا مونو : يجب ان يكون الفكر وباء يصيب الناس فى عقولهم . يجعلهم يحملون الهم والكرب العظيم . . فهناك شىء خطير . . هناك كارثة وهى أن الانسان كائن عاقل لا يريد ان يعقل ولا ان يفكر ولا ان يرفض ولا أن يثور ولا أن يحارب . . وان لم تكن الحرب موجودة فعلى الانسانية ان تشعلها . . وعلى ضوء نارها وجحيمها نكتب ونفكر . . اشعلوا النيران وفكروا . . انسفوا الدنيا واكتبوا . .

❑ ❑ ❑

ودارت رأس فوق رقبتى واستدرت بمقعدى أرى الدنيا حولى . الناس فى صحة وعافية وحرص على الحياة . . لا شىء يشاركنا ولا أحد يريد . . فكل واحد اتجه الى الآخر فى حيوية فى هدوء . . يأكل على مهله ويشرب بلذة . . ولا صوت لهم . . انهم وحدهم فى صمت وفى هدوء وفى راحة . . انهم وحدهم . .

لقد اختاروا هذه هى الوحدة فيجلس كل انسان مع من يحب . . ويدلا من ان يكلم نفسه . . فهو يتحدث الى واحد آخر

كأنه نفسه . . انهم فى حالة حب . . حب النفس للنفس . . ليسوا فى شجار . . ولا هو يقبض على عنقه بيده . . ولا أحد قد جعل افكاره حبل مشنقة يتعلق منها . .

لقد تغيرت دنياى منذ سألت العقاد وطه حسين وكامل الشناوى . . فأنا الان لست خائفاً من المرض فقط . . وإنما خائف من اننى شفيت . .

لقد جلست وحدى كما نصحنى البروفسور رو شمور . جلست فلم أجد نفسى . . وأنما اغرقت نفسى فى أعماق نفسى . . واستعنت على ذلك بذكريات قديمة قفزت من داخلى عندما وجدتنى وحدى . . تكاثرت واحاطتنى واحاطت بى فقد وجدتنى أقلية . . ضغطت على جسمى . . سحقت عظامى فبرزت أفكارى . . مخاوفى . . حزنى . . اننى الآن وحدى تماما .

كل الذى استطعته هو اننى عزلت نفسى عن الذين حولى . . كأننى نوح فى السفينة . . اغلقت نوافذ السفينة فلم أعد اسمع موج البحر ولا هياج الريح . . ولكن فوجئت بكل انواع الحيوان فى داخل السفينة . . لقد وجدت نفسى مع مشاكل لا اسماء لها . . ولكنها تهزنى يمينا وشمالا . . وتوقفنى وتقعدنى . .

ولما طال وقوف الجرسون وأنا غير قادر على أن ارد عليه . . عاد وسألنى ويده على كتفى ليوقظنى : سيدى طال انتظارى . .

وطلبت منه أن يمهلنى بعض الوقت فأنا فى انتظار بعض الاصدقاء . ولم اكن أنتظر احدا . ولكن لا اريد ان ابعد عن الذى فى داخلى . . عن القيامة التى قامت . .

وفوجئت بصديق وزوجته . . قررا ان يجلسا معى وأن يسألانى عن حالى وعن مصر وعن الذين رأيتهم فى باريس . . وكيف أنا الآن . . ويؤكدان اننى فى صحة جيدة والحمد لله كثيرا . . ويسألان ان كان الافضل ان يتركانى وحدى . .

فقلت : لا . . لقد كنت وحدى طويلا فى المستشفى . . حين انفرد بى المرض والاطباء والممرضات وغرف الاشعة والطرقات الباردة . . لقد كان كل شىء فى لون الفل . . زى الفل . . لون الجليد : ابيض كريه اللون والرائحة والملمس . . فالاصوات كما يقول طه حسين بيضاء . . أى هامسة لا مبالية . . وكذلك الغرف مثل توابيت بيضاء . . عربات الاسعاف غرف ضيقة تصرخ فى الشوارع . . وكان الاطباء جبالا من الجليد كل ما يخرج منها عبارات فى برودة جدول الضرب : محدد . . جاف . . جامد . . خذ هذا صباحا . . وخذ هذا مساء . . واكتف بهذا . . وعندما تصحو . .وعندما تنام . . واذا جاءتك الممرضة . . فأمدد ذراعيك اليمنى لكن نقيس لك الضغط . . واليسرى لكى تأخذ عينة من الدم . . وافتح فمك لتعرف درجة حرارتك . . وليس من الضرورى أن تعرف من الذى يقيس لك الحرارة ولا من يتسلل الى دمك ولا من الذى يحشر لك الاقراص فى فمك . . ولا كيف خرجوا من غرفتك ولا كيف دخلوا دون اذن وأنت نائم . . ثم اذا وجدت عندك رغبة فى النوم فأسحب غطاءك واستسلم . .

- اذن . . كيف حالك ؟

ولابد ان انصرافى عن هذه المشاعر الصادقة هو الذى جعل

الرجل وزوجتـه ينسـحبـان فى صـمت . وتركـا لى فنجـانا من القهوة . . ومددت له يدى ورفعته الى فمى فوجدته ساخنا فأنا فى حـاجـة الـى من يوقظنـى . . ولكـن الادوية المهـدئة التى اتعـاطاها تجعل البن عاجزا عن فعل شىء . . ولما هممت بترك المكان الجميل وجـدت ورقه عليـها عنوان الصـديق ورقم تليـفونه فـى باريس ولمدة شهرين . .

وعدت الى الفـندق لا سأل زوجتى نفس السؤال : ماذا حدث لى . . كـيـف دخلت المسـتـشـفـى فى القـاهرة وكـيف جئت الى باريس . .

وعلى الرغم من انها قد اجابت عن هذا السؤال كـثيرا . . فإن شيئاً يبقى لا اعرفه . ودهشتى لا تنتهى كيف اننى كنت فى غرفة الانعـاش اتحـدث واحكى واضحـك . . ثم اننى لا اذكـر شـيـئـا من كل ذلك . .

هل كـنت اسـألـهـا : عن الـذى حـدث حـتـى لا يحـدث بعـد ذلك . . هل كنت ابحث عن حكمـــة عن مــوعظة عن درس اتعلمـه . . ابدا . . فـقط اريد أن اعـرف . وكـانت شكوى الاطبـاء ايضا اننى قبل ان ادخل غرف الاشعة اسال ما المعنى؟ ما الهدف؟ عن أى شىء تبحـثـون؟ ويقـال لى كـلام . . ويخـفـى الاطبـاء عنى الكثير من الكلام . . ولكنى اتساءل دائما . .

وتكون الاسئلة الكثيرة هذه دليلا على اننى لا اصدق ما يقال . ولا اعرف من الذى أصدقه . . وما الذى أصدقه . .

ولكن هناك حقيـقة واحـدة : هى اننى كنت مريضا . ولا ازال

ضعيفا . . وان لم احترس فسوف اعود الى حيث بدأت . وفى نفس الوقت أنا اليوم احسن حالا . واحمد الله على هذه النهاية . ولكن يبقى : ما الذى اعمله بعد ذلك حتى لا يعود ما كان قبل ذلك . .

تعبت . .

ولذلك استرحت الى تأجيل هذا السؤال والاجابة عنه . . أنا الذى قررت التأجيل . . وكان السؤال مثل مسمار كلما دققت رأسه عاد الى الظهور مرة أخرى . . ثم أعود أدق رأسى بيدى أدخلها فى عنقى . . ثم احشرها فى قلبى لأستمع الى قلبى مضروبا فى عقلى - كما نصحنى طه حسين !

اما السؤال : ماذا حدث ، وكيف لا يحدث مرة أخرى . وكيف امضى فى حياتى التى اكثرها جلوس الى مكتبى وأقلها سير على الأقدام . .

وكأننى مريض قد عز عليه الدواء . . فهؤلاء أعظم اطباء العقل والقلب فى دنياى . . وهذه روشتاتهم لا تفيد . . أو هى تضاعف الالم وتوزعه على جسمى ونفسى وعقلى وقلبى ودنياى بمنتهى العدل . . فكل شىء اليم . . وكل شىء اسود . وكل الطرق قد انسدت . وكل ما هو كبير صار ضئيلا ، وكل ماهو بعيد صار قريبا . . ضيقا خانقا . . وكل شىء يضغط على كل شىء حتى اصبحت كتلة من الحجر . . اختفت كل معالمها ولم تعد لها اطراف . . مثل كرة تركلها ألف قدم أو تدفعها الى جانب من

الطريق . . فلا أحد ينتظر أحداً . ولا أحد يعنيه أحد . . فأنت وحدك الذى تشق طريقك وأنت الذى ترصفه وتوسعه وتعلق المصابيح واللافتات على جانبيه . . وتدخل فى السباق حتى الموت . .

وتذكرت السفن الشراعية القديمة عندما كان يهددها الموج وتزلزلها العواصف كانت تطلب النجاة بأن تلقى فى البحر زجاجات مغلقة وفى داخلها استغاثة . . ويظل الماء يدفع الزجاجات يمينا وشمالا . . وقد تمضى عشرات أو مئات السنين دون أن تراها عين أو تمتد لها يد . . ثم يرميها الموج على الشاطى . ويكون ذلك مبعثا للدهشة . . فقد وصلت الرسالة بعد أن غرقت السفينة وكل من فيها . . إنه الأمل الذى دفع ربان السفينة وبحارتها الى طلب النجدة . . انه نوع من الأمل المستحيل الذى دفنوه فى زجاجة وتركوها للموج الذى هو الموت . . فهى صرخه ضد الموت وعندهم أمل أن يحملها الموج نفسه الى أحد . . أى احد . . فكأنهم بعثوا برسائلهم مع عزرائيل الذى يفزعون منه . .

وكذلك كنت أنا ابعث برسائلى . . بصرخاتى . . ببكائى بدموعى . . بنشيجى . . بنحيبى . . بأهاتى وتأوهاتى . . ابعث بها الى صحيفة (الاهرام) لينشرها فى صفحته الأخيرة . .

اقولها لمن لا يملكون مثلى شيئا لشىء أو لاحد . . تماما كهذه الزجاجات التى يلقونها للموج الذى هو الموت . . كأنهم يقولون : أيها الموج اذا كان هدفك ان تقضى علينا . . فاحمل هذه الرسائل الزجاجية لكى يعرف الاخرون اننا لم نفقد الأمل . . طلبنا

المستحيل عندما القينا بالامل فى أفواه اليأس . .

❑ ❑ ❑

وقـد ارسلت من باريس بصـرخـات الالـم والامـل . لعل أحـدا يدعو الله ، ويكون دعاؤه مستجابا .

لعل مريضا ان يحمد الله على ماهو فيه . .

لعل عـاجـزا عن العـلاج فى مصـر يرى ان الذين يقـدرون على العلاج فى باريس أكثر عجزا وأن المرض والموت والحياة والرزق كلها بمشيئة الله . .

لعلى اردت ان اقول : لا توجـد شـجـرة مـهـمـا كـانـت كـبـيـرة لم تهزها الريح . . ولا توجـد سفينة مـهـمـا كـانت عـمـارة أقـيـمت على الماء لم يزعزها الموج . . ولا توجـد سفينة فضاء مـهما حرستها الوف العقـول الالكترونيـة لم تكن لعـبة ضئيلة فى فم الفضـاء . . وكم سفينة فضاء احترقت على الارض وكم طاشت فى الفضاء . .

فلا أحد اكبر ولا احد اقوى ولا أحد ابقى . . فنحن جميعا هنا وهناك ولا حـاجـة . . فـسـاعى البريد الى القراء هو الموت . . كـمـا ان البحـر الذى هو مقـبـرة السفن هو الذى يحـمل الرسـائل الزجـاجـيـة الى السفن الآخرى . . والى الناس على الشاطىء . . لعل وعسى !

❑ ❑ ❑

وقد بكت عيون واحترقت قلوب وامتدت الايدى والقت بالورود والبرقيات والمكالمات الصادقة لعلها تخفف عنى مصيبة أخرى . .

فقد نجوت من كارثة لتقع لى كارثة أخرى . .

فالذى اصابنى لم اشعر به تماما . . وانما داخ به وتعذب واكتوى كل الذين حولى : زوجتى واهلى . .

أما هذه الكارثة التى جددت كل انواع العذاب والهموم واليأس والشعور بها فى وقت واحد : مرض زوجتى التى لا تدرى ما بها ، بعد مرضى الذى أدرى به الآن . . لقد كان مرضها استئنافا لعذابى . . وعودة للموت على فراشين فى وقت واحد . . واستئنافا لدموعها ولكن من عينى . . واستئنافا لارقها وفزعها وحزنها ولكن فى عقلى وقلبى وقلمى . .

ولما كان صديقى الشاعر عبد الرحمن صدقى يبكى على زوجته لم اكن اصدق أن هذا ممكن . . وكان يتغنى بها شعرا ونثرا أمام زوجته الثانية الايطالية . . ولكى تعرف زوجته الثانية بالضبط ما الذى كان يقول كان يترجم لها شعره ومشاعره . وكان يقول لها ويقول لى : ان زوجتى الحالية هى (بدل فاقد) . . هى محاولة فاشلة لسد الفراغ . . انها تزييف للواقع . . انها حفلة تأبين يومية لزوجتى الأولى . . حفلة تكريم لها . . فلا حياتى بعدها حياة . . فهى لن تموت الا معى . . كما عاشت معى . .

ولم أجد الذى قال عجبا ، بل العجيب الا يقال - كيف حدث ذلك . . كيف اننى هكذا مربوط بها مرتبط . . معتمد عليها . . فكل حياتى عبء عليها . وليس فى حياتى الا نظام واحد : ادخل مكتبى اقرأ واكتب والباقى عليها . والباقى عبء لا يطيقه ولا يقوى عليه أحد سواها . .

وانظر الى كل شىء حولى . . أنها أشكال وألوان وأحجام

ومسافات لشيء واحد هو : العدم . .

كيف كانت هى كل هذه الحياة : الألوان والأصوات والأحجام والفكر والذوق والحياة والضحكة الحلوة والابتسامة العابرة والعقل والفكر والقرار . .

كيف كانت بهجة الدنيا . .

كيف كانت المستقبل . . كيف استطاعت ادارتى وتوجيهى وحمايتى ورعايتى . .

كل ذلك يارب أين . . وكيف يعود . . وكيف أعود أنا ايضا الى ما كنت عليه . . الى ما كنا عليه . . يارب ما أصعب السؤال . . وما أسهلة عليك . . يارب . .

(١)

يارب رحمتك . .

للمرة الثانية أدخل الانعاش وألعن المرض والطب . . مرة ثانية ونفس الطريق : كرسى له عجلات وخراطيم الدواء تدخل الأنف وابر تنشب انيابها فى اللحم وفى الدم . . وآه . . وألف آه ليلا ونهارا . .

ودعاء وصلوات وعيون حمراء تتعلق بالسقف . . ويجىء الليل ولا نوم وتطلع الشمس ولا ضوء . .

ويتحول الناس الى اشباح بيضاء . . أو سحب رمادية . . تدخل كأنها ما دخلت ، وتخرج كأنها ما فارقت مرة ثانية يارب نفس المقاعد . . نفس الأجهزة ونفس الأيدى ونفس العيون . . ونفس

العجز وقله الحيلة والهوان على الناس .

يارب . .

اذا كان هذا امتحانا فهو صعب . .

اذا كان هذا قدرك فأين لطفك . .

وإذا كان هذا عقابك فأين رحمتك . .

مرة ثانية يارب ، وفى سنتين متواليتين؟! . .

قبلنا حكمتك ، وحكمك ، وقدرك وقدرتك ، فمن اين نأتى بكل هذه الدموع ، وبالاذان تسمع الأهات . . وبالصبر على كل شىء . . وان كانت هذه هى الحياة نفسها ، فلماذا نحن دون سائر مخلوقاتك . . ان كانت حكمتك (إنه اذا احب الله عبدا ابتلاه) ، فإننا نرضى بالعقوبة مادام هذا هو الحب ، ونرضى بالعذاب ان كان هذا هو الحب . .

اللهم لا اعتراض على قضائك وقدرك وحبك . . ولكن يارب أنت رحيم رحمان غفور تواب . وأنت قادر على كل شىء . . آمنت بك . .

واننى أتوسل اليك : الى عظمتك وحكمك ورحمتك وعفوك ومغفرتك ، ان ترفع عنا هذا الذى سقط فوقنا وأنقض ظهرنا وكسر عنقنا ، وجمع شملنا على البكاء ليلا ونهاراً نلتف حول عزيز علينا . .

يارب نفس الطريق فى عربة اسعاف . . مقعد اسعاف ، فى طائرة اسعاف . . نفس عربة الاسعاف من مطار القاهرة الى مطار

باريس ، ومن مطار باريس الى الانعاش . .

اننى عندما سرت فى هذا الطريق منذ سنتين - شكرا لك يارب - لم اكن اشعر بشىء ، ولكن العذاب مزق قلوب اهلى وأصدقائى . . ومزق وحطم زوجتى التى لم أر دموعها . .

وهذه هى المرة الثانية يارب التى امشى وأدفع عربة تجلس عليها زوجتى . . انها لاترى دموعى ولا ترى النار فى ضلوعى . . لا تراها مع أننى اغرق قدميها بالبكاء ولكنها لا تدرى . . فلا ترانى ولا تسمعنى . .

يارب لا حيل لنا فيما اخترت . . وفيما قررت . . وفيما حكمت . .

ولا نطمع الا فى رحمتك يا أرحم الراحمين !

(٢)

أهذه باريس ؟ ! . .

لا أعرف من الذى قالها . . أنا قلتها ولكن من الذى فى داخلى قالها؟ ولم يكن هناك أى صدى لهذه الكلمة . . هذه باريس ما الذى فى باريس . . شوارع مثل شوارع أى بلد . . والناس ككل الناس . . ولا أنوار ولا شجر . . أين ذهب الجمال فيها . . أين الأسماء الساحرة للشوارع والمقاهى . .

اين ذهبت رائحة البن وطعمه . .

اين الجمال فى المكتبات . . اين السحر . . اين الرغبة فى القراءة أو الكتابة . . وما معنى هذه الأسماء على الكتب . . وما

قيمة اين يكتب الإنسان وأن يكون مشهورا . . وبعد ذلك لا يكون . . حتى لو مات وجعلوه تمثالا فى أكبر الميادين وطابعا للبريد وصورة على علب الشيكولاتة . . وايه يعنى؟ ايه يعنى رمسيس تمثال من الرخام وسعد زغلول وشوقى وحافظ ومصطفى كامل وطلعت حرب وأم كلثوم وعبد الوهاب . . كلها من حجر فى الشوارع والحدائق . . ما المعنى؟ ما قيمة كل ذلك؟ . . المعنى : اننا نؤكد لانفسنا اننا عندما اخترناهم كنا على حق ، وأن تماثيلهم تأكيد لقرارنا . . وفى الوقت نفسه أمنية لنا ان نلقى نفس الحفاوة . ولكن ما فائدة الحفاوة للأحياء أو للأموات . .

وأمامى الآن برج ايفل . . وايه يعنى؟ وهناك ميدان الكونكورد . . وهناك مقبرة نابليون . . وهناك تمثال الفيلسوف فولتير . . وهناك المقهى الذى جلس عليه الفيلسوف الوجودى سارتر وتلامذته . . شربوا القهوة والنبيذ ، وهدوا الكون وأعادوا ترتيبه وحذفوا واضافوا . . وايه يعنى؟ وبقى كل شىء على ما هو عليه . . كان الكون ورق كوتشينة وكل فيلسوف (يفنطها) على هواه . ثم يتركها ليجىء بعده من يعيد تفنيطها وتبقى بعض الوقت ، وتنتقل الكوتشينة بين الأيدى ويعاد ترتيب أرقامها وصورها . . ولكنها هى هى . . ولم يؤد التفنيط الى تغيير فى هذا الكون الذى نراه . . ونعيش فيه ونحتج عليه . . عشنا ورأينا وقررنا ورفضنا ثم متنا . . فإيه يعنى ؟

ما الذى جعل (ايه يعنى) أقوى من أى كلام ومن كل حجة . . وأكثر حضورا من أى انسان وأعلى من برج ايفل ، واضخم من

تمثال رمسيس ، وأطول من النيل وأكبر من الهملايا؟ ! ما الذى جعل (ايه يعنى) سلطانا على كل المعانى ، وكل علامات الاستفهام والتعجب ؟ !

ما الذى جعل لعبارة (ايه يعنى) معنى (رفعت الجلسة) الى يوم القيامة .. ما الذى جعلها نقطة كبيرة فى نهاية جملة فى نهاية سطر فى نهاية آخر صفحة فى كتاب الحياة ؟ .

ان (ايه يعنى) لم تنبتها الأرض ولا أمطرتها السماء .. وانما هى قفزت من أعماقى على لسانى على الدنيا كلها ، أمامى وورائى .. أنه الشعور بخيبة الأمل فى هذه الحياة .. انه العجز أمام المرض .. مرض أعز الناس عليه !

(٣)

ممكن أن تختفى كل الألوان؟

ممكن أن تنعدم كل الأصوات ..

ممكن أن يكون كل شىء شبحا ... ممكن أن يهبط السحاب من السماء ويزحف على الأرض ..

ممكن الا تكون الشمس مصدراً للنور ..

ممكن أن تطلع الشس وتنزل وتغرب وتشرق وننظر نحن الى كل ذلك ولا نراه ولا نسمعه ؟ !

دون أن تكون مخمورا ولا مشلولا ولا مسطولا هل هذا ممكن ؟

نعم ممكن ..

ممكن أن تلتفت إلى شفاه الناس ولا تسمع ما يقولون . . ممكن أن ينتظر منك الناس أن تقول ، فتقول ولكنك لا تسمع ما تقول ولا ما يقولون ؟ ! ممكن ؟ نعم ممكن !

ممكن أن تتلمس بيدك يدك ، وساقك ووجهك ولا تشعر بأى شىء . . ولا تعرف إن كنت حيا أو ميتاً ؟ . ممكن . . ممكن أن تشعر كأنك فى كابوس . . تطير فى الهواء . . وتنقض عليك الوحوش . . وإن واحدا يلقى بك من النافذة ، ومن النافذة إلى البحر . . وتحت ماء البحر تتربص بك ذئاب وكلاب ؟ ! ممكن . .

ممكن ألا يكون للطعام طعم ، وألا يكون للشراب مذاق . . ولا تعرف إن كان الذى تتناوله يدخل فمك أو يسقط دونه ، ومع ذلك فاسنانك طالعة نازلة كأنك تأكل . . وأنت تاكل وتشرب ، ولكن الذى تأكله وتشربه كأنه لا شىء . . فأنت تبلع لا شىء ، وتمضغ لا شىء ، وتهضم لا شىء . . ممكن ؟

ممكن أن تكون مثل السفينة التى تحدثت عنها (ألف ليلة) . . السفينة جذبتها (جزيرة المغناطيس) وتطايرت منها المسامير التى كانت تمسك الواحها . . فتفككت السفينة وغرق من فيها . . والقليلون تعلقوا بالالواح الخشبية واغرقهم الموج . . فقط المسامير هى التى نجت من الغرق ؟ . . ممكن . .

ممكن أن يحدث لك كل هذا وتتفرج على نفسك وكأنك فى إحدى (مسرحيات العبث) التى يتحدث فيها الانسان الى جار لا يريد أن يرد . . ولكنه يصر على أن يتكلم فى نفس الوقت الذى تتكلم فيه أنت . . ومن يراكما من بعيد يخيل اليه انكما غارقان

فى حوار فلسفى صوفى . . والحقيقة انكما تتكلمان ولا يسمع أحدكما الآخر ولا يريد . . ومع ذلك ورغم ذلك لم يتوقف أحدكما عن الكلام . . والجمهور فى ذهول من هذا الذى يرىء وفى ذهول من اصراره على إن يبقى فى مقعده دون أن ينقض على الممثلين؟ ! ممكن . .

والله يارب كل هذا حدث ويحدث لأى انسان اذا رأى اعز الناس عليه يتلاشى بين الحياة والموت . . هو عاجز ونحن أكثر عجزا الا عن البكاء !

(٤)

لا اقرأ صفحات الذين ماتوا . فكل الذين أجبتهم قد ماتوا . فلم أعد قلقا على أحد . . صفيت حسابى مع الناس ، وأغلقت الملفات وأغلقت قلبى . وتركت لسكرتيرى أن يقوم بواجب العزاء . انتهى .

ولم أكتف بذلك بل ذهبت إلى السخرية من الذين يقطعون مصر من أولها لآخرها لتقديم واجب العزاء . . واندهشت من أن بعض الأصدقاء يعاتبنى لأنه لم يتلق برقية عزاء ولا مجاملة مكتوبة . . ولاحظت أن بعض الأصدقاء يسجلون أسماء الذين أبرقوا لهم وقد أدهشهم اننى لم أبعث برقية . .

وعدت أقرأ الوقيات حتى لا أنسى فيغضب الناس . . ورحت أذهب إلى العزاء وآخذ من ذلك عظة وعبرة وليتأكد لدى يوما بعد يوم تفاهة الحياة الدنيا وسخافة الجرى ليلا ونهارا على لا شىء . .

وسخافة الزحام الشديد على الصغائر والكبائر . . مع ان الحياة لا تساوى . . وإذا كان لابد من الحياة فليكن ذلك على القليل الذى لايوجع الدماغ والمعدة . . والجوع صحة . . والزهد عافية . . والرضا كنز . . والمثل يقول : خفها لكى تسير . . أى الأنسان يجب أن يخفف أحماله لكى يقدر على المشى . . ويخفف حمولة السفينة لكى تسير . . وكلما أثقلنا كاهنا وملأنا بطوننا ورءوسنا جاءنا الصداع والمغص من حيث لانعرف . .

وكنت أتصور أنه بعد البكاء المستمر على أمى لن أبكى على أحد بعدها فهى التى كانت تساوى ولاتزال . . والدمع عليها موصول حتى الموت . . فهى تعيش فى أعماقى . . وهى مع الشهداء عند ربهم يرزقون . . وهى لاتزال فى حياتى وفى خيالى ، وما زال دمعى يجرى يروى الأرض التى كانت تحت قدميها . . وكنت أظن أن دموعى محجوزة لأمى وحدها فلا قبلها ولا بعدها . .

ولما مات الأستاذ العقاد بكيت كثيرا . . مع اننى أعلم أنه ميت واننا ميتون . ولكن من الذى يستطيع أن يقنع عينى بذلك!

ولما رأيت الرئيس السادات فى آخر لحظات حياته وإحسان عبدالقدوس وتوفيق الحكيم تحولت كل عين إلى نبع يتدفق دموعا ، وكنت أظن أنها جفت .

وهذه الأيام فإننى أبكى أضعاف ما بكيت طوال عمرى . . ادعوا بطول العمر والعافية وأتوسل وأركع وأسجد لله وكل دموعى حروف تكتب على الأرض : رحمتك يارب إنها زوجتى!

أنا من أكثر الناس ترددا على المقابر . لا تجزع من هذه العبارة فوراء هذه الصفحة الأخيرة من جريدة الأهرام صفحات لدموع الناس . و(كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) .

وأنت لا تحب هذا الكلام . فليكن ولكن هذه هى نهاية كل حى والشاعر العربى القديم كعب بن زهير يقول :

كل ابن انثى وان طالت سلامته . .

يوماً ، على آله حدباء محمول . .

فإذا ذهبت الى المقابر فهناك الهدوء الذى لا يحتاجه الموتى . . وهناك كل شىء يتحول إلى صمت . والصمت كالتراب ، وكل ذرة تراب هى جسد انسان كان هنا وغاب . . وكلنا هنا وسوف نكون هناك . طال العمر أو قصر ، أغنياء كنا أو فقراء ، حكاما أو محكومين . . ظالمين أو مظلومين . .

وهنا ترى الدنيا من بعيد . . ماذا ترى بعيدا . . عربات تجرى وتجرى وتطلق هواء مسموما . . انها لا تتخلص من السموم وانما تسهم فى السموم أمامنا وحولنا . . ونحن لا نطلق السموم على الذين وراءنا . . فأمامنا آخرون أطلقوها علينا أيضا . . فنحن جميعا قتلة لأنفسنا . . ونتفنن على ذلك . ونتنافس بسرعة أو على مهل . .

فماذا نرى فى سماء القاهرة . . ان لم تكن هذه سحبا هبابا . . فهى سحب ضوضاء . . وان لم تكن ضوضاء فهى سحب ميكروبات . . وإن لم تكن ميكروبات فهى دعوات مرفوضة من

السماء فتعلقت بين السماء والأرض تحجب رحمة الله وترد لعنات البشر . . فما الذى هنا . . من الذين غابوا واستراحوا . . هنا فرصتك الوحيدة فى أن تتأمل ماذا فعلت . . ماذا كسبت ماذا خسرت . . لماذا كل هذا العذاب والبهدلة . . لماذا الخوف؟ لماذا الغضب؟ لماذا الندم؟ من أجل ماذا كل هذه المعارك بين الناس ، وبين الشعوب . . من المنتصر . . من المنكسر . . الاثنان متجاوران هنا . . كانوا لحما تحول الى عظم . . حتى العظم أكلته الأرض . . من الذى أكل من . . اننا أكلنا غيرنا وغيرنا أكلنا . . هنا تحت الأرض تدب الحياة فى حشرات تأكلنا وتأكل بعضها بعضا وتموت . . ولا يبقى إلا التراب . . فنحن تراب يمشى على تراب . . يسقط من الإعياء على التراب . . ولن تجد أرحم وأحن علينا من التراب الذى تحت أقدامنا . .

ليس من الضرورى أن تذهب إلى حيث أذهب كثيرا . أنت حر . وربنا يعطيك العمر والعافية . . وأدعو لك بأن تفيق من حين إلى حين . . تفيق من خمر الحياة ، ونشوة النصر ، وغرور الكسب . . وتذهب ولو مرة واحدة كل اسبوع لتعرف أنك منفوخ على الفاضى ، و (إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) . . صدق الله العظيم !

وانك اذا وقفت الى جانب سرير به مريض عزيز عليك فإنك ذْليل مكسور لا تساوى شيئا .

(٥)

عندما دخلت مستشفى (الأميرة جريس) فى لندن لإجراء

عملية فى أسنانى قال لى الطبيب المصرى البارع جابى جبران : عندنا هنا نظرية تقول إنه لاداعى لأن يتالم المريض . فأنت لن تشعر بأى ألم فى أى وقت !

وقبل أن اذهب الى لندن قابلت جابى جبران ، وقال لى فى اليوم الأول سوف تدخل المستشفى تحت اسم مستعار لاعتبارات خاصة بالأمن . وفى الليل سوف تجىء ممرضة تسجل درجة حرارتك وضغطك . . وممرضة أخرى تسالك عن تاريخ المرض عندك وتاريخ المرض فى الاسرة كلها . رغم أن الذى عندى لم يكن مرضا . وإنما كيس من (الماء) تحت الأسنان . وفى الليل سوف تجيء ممرضة ثالثة تعطيك قرصا مهدئا . . ثم قرصا منوما ثم قرصا منوما جدا . . وفى الصباح سوف تجرى العملية دون أن أشعر . . وسوف أعود الى غرفتى دون ألم على الإطلاق . وقد نفذت تماما كل خطوة وكل مرحلة . وقال أيضا : سوف تبقى هنا فى المستشفى خمسة أيام وتخرج لتبقى فى الفندق خمسة أيام وتعود لأنزع السلك الموجود فى الفم ٣٥ عرزة ودون ألم . وأعود إليه بعد سنة ليرى ماذا حدث للفك واللثة والأسنان . وقد حدث . والحمد لله . .

وجلست أكتب ماذا جرى ، وماذا رأيت وماذا أحسست . ووجدتنى حائرا تماما فى تعريف : ماهو الألم؟ ما معنى أن يشعر إنسان بألم هنا . . أو هناك . . وكل ألم له طعم . . له وجع . . ألم الإنسان غير الصداع غير المغص غير التشنجات غير الانتفاخ غير الأختناق . فما هو الألم؟ ما الذى يجعل إنسانا يتألم . وهل الأصح أن يتألم الإنسان فيعرف الطبيب أن هناك خللا ما فى

مكان من الجسم . . أو هل الأفضل ألا يكون هناك ألم ، ويتفاقم المرض ثم نفاجا به خطيرا فادحا فى النهاية؟ هل الألم مفيد؟ نعم .

هل الألم غير مفيد؟ نعم . .

هناك نظريات واجتهادات بين العلماء وجابى جبران من المدرسة التى ترى إنه لاداعى لأن يتالم المريض . وقد حدث فى القرن الثامن عشر عندما اختراعوا البنج أن هاجمته الكنيسة ، لأن المسيح عليه السلام قد تعذب على الصليب من أجل خلاص البشرية . فكيف لا يتعذب الناس مثله؟ ولكن الناس يريدون من يخفف عنهم الألم والوجع . . فلماذا الألم ؟

ذهبت إلى المكتبة التابعة لكلية الطب ، أبحث عن كتب تقول لى : ما هو الألم . . ووجدت كتبا كثيرة ، وكلها كتب علمية طبية بحتة . ووجدت ان هناك عددا كبيرا من الآلام قبل العملية الجراحية وبعدها ، ووجدت أوهاما عن الألم . ووجدت أن المريض الذى قطعوا ذراعه أو ساقه يشعر بألم كأن ذراعه أو ساقه لاتزال هناك . . فكيف ذلك؟ وما معنى الألم ؟

وحاولت أن أعرف ما الدموع؟ ولماذا ومن أين تجىء وكيف تكون بهذه السرعة ولماذا هى ساخنة ولماذا باردة؟ ووجدت معادلات رياضية وشروحا بيانية . ولكنها ليست الدموع . . دموعى على زوجتى !

(٦)

عندما سئل الشاعر الألمانى العظيم جيته : ما هى الكتب التى

قرأتها وكانت سببا فى عظمتك ؟ فأجاب الشاعر : لا أعرف . . كما أننى لا أعرف ماهى الاطعمة التى أدت الى لمعان عينى واظافرى !!

ورأى النقاد أن الذى قاله الشاعر العظيم هو الجواب القاطع لكل شك وكل اجتهاد بعده .

ولكن نحن الآن نعرف انها الفيتامينات التى تجعل الاظافر والأسنان والعيون لامعة .

ولكنى الآن أمام زوجتى لا أعرف والأسى يقطعنى ألف قطعة : أين ذهب لمعان العينين والاظافر والاسنان فى هذا العزيز الغالى المسجى فى سريره . .

أين العظمة اين الذكاء أين الموهبة . .

أين القرار . . أين الحكمة أين بعد النظر . .

أين العقل الكبير الذى يرى فى لحة ما يراه الناس فى شهور . . أين الكنز الذى لا مثيل له ولا بديل عنه . . أين ذهب النور هنا . . وكيف انطفا البريق هناك . .

وأين توارت الكبرياء وظهر الضعف والاستسلام .

من سرق منا كل هذه الأبهة الفكرية والعظمة العقلية والمثل العليا . . إننى اعرف كيف كانت ولا اعرف اين ذهبت . .

وقديما قال الشاعر أبو نواس : ياويح أهلى أبلى بين أعينهم .

على الفراش ولا يدرون ما دائى ؟

وقال أمير الشعراء شوقى موضحا هذا اللغز :

ياويح أهلى أبلى بين أعينهم .

ويدرج الموت فى جسمى وأعضائى .

وينظرون لجسم لا هدو له .

على الفراش .

ولا يدرون ما دائى .

والله لا ندرى ما الداء ولا الدواء . . لكننا ندرى نوعا من الانسحاب لكل شىء . . نوعا من الانحسار . . نوعا من التسلل إلى بعيد . . نوعا من الإفلاس . . كل شىء يسلم أدواته وينسحب . . كأن الجسم الإنسانى بكل وظائفه ، والعقل بكل ملكاته والنفس بكل خلجاتها اشهرت إفلاسها . . إنه قرار منفرد . . إنه استبداد . . كيف ذلك ونحن نناشد العزيز الغالى أن يبقى ، أن ينتظر ان يصبر . . ايمانا بالله وبقدرته على إحياء العظام وهى رميم . . على نجاة يونس من بطن الحوت . . حوت المرض والوهن . . ونجاة نوح من الطوفان وشفاء أيوب من ألف مرض . . نحن على يقين من ذلك . . كم ألف مليون مرة حدث فى البحر مد وجزر . . جزر وبعده مد . . ومد بعد جزر . . فيارب نسألك نهاية هذا الجزر . . نسألك المد والمدد والعافية وطول العمر لأعز الناس . . يارب !

لقد تعبنا حتى صرنا عاجزين عن الدعاء والأمل فى رحمتك . . استغفر الله . .

(٧)

فى باريس حديقة اسمها غابة بولونيا (٢٥٠٠ فدان) وفى الحديقة واحدة أخرى صغيرة اسمها (حديقة بجاتل) . وبجاتل اسم قصر . والكلمة معناها : خرافة . . هوس . وعلى باب القصر توجد عبارة لاتينية تقول : إنه صغير لكن مريح . كأنها رد على سؤال خطر على بالى : وأيه يعنى هذا القصر؟ ولكنه وثيقة تاريخية من القرن الثامن عشر . . نزلت به الملكة مارى انطوانيت ونابليون وانتقلت ملكية القصر إلى الفرنسيين والانجليز . واصبحت الحديقة حوله تحفة فى عالم الزهور والحيوان . . وفى الحديقة طيور وبحيرات ومطاعم . . يعنى أمامك ألف شىء يجعلك تقول : الله . .

نظرت حولى : الأطعمة فى الآنية جميلة والاكواب ذهب وفضة لها لون الورود والشفاه ثم القهوة فى لون الحزن . . ولكن السعادة موزعة بالعدل بين العيون والشفاه والقبلات . اننا فى باريس .

فليس القصر وحده هو (الصغير المريح) وانما كل شىء . . فالمقاعد أحضان صغيرة واطباق الطعام . . وكؤوس الشراب . .

وتذكرت قصة لكاتب روسى عن اليوم الذى صلب فيه السيد المسيح عليه السلام وهو يحمل صليبه ثقيلا كأنه ذنوب البشر ويمشى فى طريق الآلام الى جبل الجلجثة أى الجمجمة . . والناس يصرخون ويبكون مصير السيد النبيل العظيم . . وفوق السطوح رجل وزوجته . هو يشكو من ورم فى فكه . ويقول لزوجته : كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يفتحوا أفواههم بهذه القوة؟ !

انتهت القصة . .

فالرجل الموجوع لم يلتفت إلى الكارثة الإنسانية التى أمامه ، والظلم البشع الذى يزلزل قلوب الناس ولايزال . وإنما كل الذى شغله وأدهشه هو أنهم قادرون على فتح أفواههم يلعنون الرومان واليهود الذين عذبوا المسيح !

وأنا مثل هذا الرجل تماما . .

فكل الذى آراه ولا حاجة . . وكل الذى أسمعه ولا شىء . . فلا طعام ولا أناقة ولا جمال شباب ولا قبلات تروح وتجىء ولا الزهور كأنها طيور على شجر . . فأنا غير قادر على أن أشترك فى سيمفونية الحمال والشباب ان ملامحى فقدت وظائفها وتجمدت على شكل واحد . فلا هو تساؤل ولا هو استسلام . . ولا هو أمل ولا هو يأس . .

وتذكرت شاعرنا الذى يقول :

غير مجد فى ملتى واعتقادى .

نوح باك ولا ترنم شادى .

. . حتى يعود مريضنا الى الحياة

مثل بقية خلق الله فى دنيا الله !

❑ ❑ ❑

يارب رحمتك . .

فى حديقة (مركز التأهيل) فى مدينة (سرجى بونتواز) على مسافة خمسين كيلو مترا من باريس جلسنا . . وحولنا شباب بذراع واحدة وساق واحدة . . أو بلا سيقان بسبب الرياضة العنيفة فى الجبال والملاعب والسيارات والموتوسيكلات والشيخوخة . .

جلست الى أحد المرضى ولا اعرف من الذى بدأ الكلام . .

فهو قال : يا أخى عندى مشكلة فى مشكلة فى مشكلة . . أقول لك . . اذا أنا ابتلعت الأسبرين فأننى أنام بعمق واصحو من النوم دائخا ومصابا بالامساك . . وإذا نمت من غير أسبرين أصابنى الأرق الذى يوجع عينى فلا أقرأ ولا أكتب وأظل طوال اليوم مقريفا ومقرفا . . أدور حول نفسى أو الدنيا هى التى تدور . . يدوخ الكون وأنا أيضا . .

- يعنى أيه ؟

- يعنى كل هذا الذى قلت لك . .

- وهذه شكوى ؟

- شكاوى .

- أفهم بالضبط .

- يا أخى اننى أتوجع اليك وأتوسل . . فإن كان عندك حل فقل لى عليه . . وإلا غيرت الموضوع وسكتنا نحن الاثنين . .

- اننى أرى أن لديك ألف سبب لكى تخر لله ساجدا على الذى أعطاه لك . . احمد ربنا . . أنك تستطيع أن تأخذ الاسبرين وانك تنام وأنك تصحو وانك تمشى وانك تشعر بدوخة . . وأن عندك رغبه فى القراءة والكتابة . فكثيرون ممنوعون من الاسبرين ومحرومون من النوم وعاجزون عن النهوض من الفراش . . ولا يشعرون لا بالنوم ولا باليقظة ولا بالأرق . . ولا يملكون أن يصلوا الى هذا المكان الجميل الذى حولنا . . يكفى أن تنظر لنفسك الآن . . فأنت جالس ساقا على ساق ، ناشرا . . وعلى ذراعيك . .

والورود والزهور والطيور من حولك . . قادر على القعود والوقوف وترك هذا المكان الى اى مكان فى الدنيا . . فلست مربوطا فى الجبس ولا مشدودا فى كرسى له عجلات . .

– يعنى ايه ؟ !

– يعنى احمد ربنا على النعمة التى أنت فيها . . على أنك فى الهواء الطلق ولست فى الانعاش . . فى باريس ولست فى امبابة . .

– هل هذا رأيك ؟

– ويجب أن يكون رأيك . . أضرب لك مثلا بسيطا جدا . . هل تعرف أن حركة أصابع يديك هى من أعقد الأشياء رغم انك نحركها فى اليوم ألوف المرات . . إن الذين تراهم امامك يحتاجون الى سنوات من التدريب لكى يحركوا إصبعا واحدة . . والفرق بين الإنسان والقرد هو تحريك هذه الأصابع التى اليها يرجع الفضل فى صنع حضارة الإنسان . ومن أهم صفات الانسان أنه حيوان صانع لأدوات الحياة . . بأصابعه . . فهمت ؟ !

. . . .

(٨)

فى طريقى يوميا من المستشفى وإليها أدوس الملايين من أوراق الخريف . . هذه الأوراق الصفراء كانت فوق ، ولما تجاوزت عمرها صارت تحت . . كانت فوق تلمع بالحياة تلتقط شعاعات الشمس وتمتص ثانى اوكسيد الكربون وتحوله الى اوكسجين . . وكل شوارع

باريس بها اشجار كما ان كل النوافذ بها أزهار . . هذه الاوراق الذابلة كانت أكفا ضارعة فلما استجابت لها السماء سقطت وانتهى دورها لتظهر أكف جديدة تستأنف الدعاء . .

وكل يوم يجىء الكناس ومعه (تليفون محمول) يكنس ويتحدث . . ثم يمد خرطوما ينفخ أوراق الشجر ويكومها على شكل هرم . . مقبرة لملايين الجماجم الورقية . . وتجىء سيارة تشفط كل ذلك . .

إنها جنازة يومية بلا مشيعين . .

وفى النهار تتغطى الارصفة بالاوراق كأنها خرجت من الأرض وتهطل عليها امطار غزيرة . ولكن الامطار لا تحيى هذه الموتى . . واحسست أن هناك معنى . . رسالة لى وللعواجيز على الدكك فى الشوارع وظهورهم الى الحائط . . والشبان يركبون القباقيب ينزلقون على الأرصفة . . حيوية ورشاقة إنهم يتعجلون نهاية الطريق . . والشيوخ خريف يتفرج على الخريف . . أو ينتظرون دورهم حين يصيرون ورقا يكنسه الزمن ويكومه القدر - هذه هى الرسالة اليومية التى اقرؤها بقدمى . .

وجو باريس - مثل أهل باريس - متقلب - شتاء فى الصباح ربيع بعد ذلك وفى الظهر كأنك فى أسوان وفى الليل أوروبى شديد البرودة . . وأول من نبهنا الى هذا المعنى رفاعة الطهطاوى عندما جاء يتعلم فى باريس ، ليعلمنا بعد ذلك فى القاهرة . . والناس عراة فى الشوارع فالجو لا يطاق . . البنات عاريات والرجال ايضا إلا أنا أرتدى البلوفر الاسود وفى يدى الجاكتة مخافة البرد . .

صحيح يبدو منظرى غريبا مضحكا . فليكن ، فأنا خائف من البرد ، حتى لو لم يكن هناك مبرر لذلك!

وأعود الى شارع الاديب العظيم (فكتور هيجو) حيث المستشفى والفندق . أخوض فى أوراق كأنها شهادة وفاة وتصريح بالدفن بعد ان مضت ايام العمر . .

مضت وانقضت فالذى . . يقع من الشجر لا يعود . .

مثل دمعة العين تنزل ولا تعود . . كل شىء فى اتجاه واحد . . الى النهاية . . بسرعة . . ببطء . . كله ذاهب رائح الى حيث ينتهى فلا يكون شيئا !

(٩)

شارعنا فى باريس : آخره المستشفى الأمريكى ، وأوله محل زهور مكتوب عليه : زهور للأفراح والجنازات ، وبين الاثنين عربة إسعاف بيضاء تجرى كأنها مكوك يغزل الحزن والخوف .

مشيت الطريق ذهابا وإيابا كما يقول شاعرنا أبو العلاء المعرى :

مشيناها خطى كتبت علينا .

ومن كتبت عليه خطى مشاها .

ومن كانت ميتة بأرض .

فليس يموت فى أرض سواها . .

وإذا ذهبت إلى المستشفى فإننى أطير كأننى جناح بلا طائر . . أو كأننى ريش بلا جناح فلا أشعر لا بالأرض ولا علاماتها

البيضاء ولا مصابيح المرور الحمراء ولا بالعواصف على شكل سيارات تبرق وترعد . . وإذا عدت من المستشفى فكأننى أرض تدب على الأرض . . كأننى حجر يتدحرج بلا أطراف . . أتوقف عند كل إشارة وأتوجس من كل سيارة . كأننى لا أريد أن أمشى . . أو لا أريد أن أعود . . ولا أعرف بالضبط ماذا أريد وما الذى يراد لكل الناس المحبوسين فى غرف خائفة مخنوقة . . مع الخوف ينهضون . . فالمستشفى ليس إلا خوفا له جدران وله أبواب . . والمرضى لايشمون إلا هواء معقما له رائحة اليود والموت . . وكل شىء أبيض . . خال من اللون . . من الطعم . . من الإنسانية . . لون أبيض كريه . . لون الكفن والنعش .

. . نفس الطريق ذهابا وإيابا . . أذهب خفيفا وأعود ثقيلا . . أذهب وكلى أمل وأرجع وكلى يأس . . أما العبارات التى كتبها الشاعر الإيطالى دانتى على باب جهنم فإننى أجدها على باب المستشفى . . فعلى باب جهنم كتب الشاعر يقول : أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة !

طريقى واحد . . أعرف أوله وأعرف آخره . وآخره هو الذى شغلنى ولا يزال . . ففيه محل للزهور والورد من كل لون وكل حجم . وتوجد سلال . . وتوجد تيجان من فروع الورد . . وتوجد سلال للورد . . وأنت الذى تختار الورد . . ألوانه وأحجامه . . فأنت وحدك الذى تعرف المناسبة . . وتعرف المعنى . . وتختار الفل الأبيض للموتى متمنيا لهم جزاء وثوابا عن حياة نقية صافية فى

لون الفل . . أو تتمنى للعروسين حياة بلا مشكلات نقية من المتاعب كلون الورد الأبيض . .

فلا الطريق له معنى خاص ولا الورد ، وإنما نحن الذين نصنع المعنى ونختار المفردات اللونية . . فالمعانى هنا فى دماغك أنت وفى قلبك !

(١٠)

افرض أنك تقيم فى القاهرة وعندك مريض عزيز عليك فى مستشفى وأنت دائخ صباحا ومساء فى زيارة هذا المريض الغالى ولك مهمة يومية بسيطة : هى تسلية المريض لعله ينسى قضبان السجن . .

فهو مسجون فى الجبس مسجون فى السرير مسجون فى العجز عن الكلام . . لا دموعه جفت ولا دموعك . . وأنت كالأطباء عاجز عن فعل شىء . . فهم يطلبون منك ومن المريض ما لا قدرة لأحد عليه : الصبر . . والشجاعة . . صبرك أنت وشجاعة المريض . . وهو كلام علمى لم تقتنع به عينى ولم يفهمه . . وهات يا دموع !

ثم جاءتك هذه الرسالة من صديق أو قريب يعيش فى أسوان يقول لك :

يا عم يا بختك . . طبعا أنت الصبح تفطر مع يسرا فى سميراميس وتتغذى مع رغدة فى هيلتون وتتعشى مع نبيلة عبيد فى المريديان ، وتبحلق فى فيفى عبده . . وإذا زهقت من هؤلاء ركبت زورقا فى النيل تضحك مع أحمد رجب ومحمود

السعدنى ، وتتمتع مع نجيب محفوظ وفى الليل تسهر مع عمرو دياب وفرقته وإذا أردت فرفشة أكثر وجدت سمير صبرى والجميلات . . يا عم الله يرضى عليك ويزيدك من نعيمه . . وإياك تقول لى إنك تتردد على المكتبات وتزور أضرحة الأولياء . . وتستأنف البكاء على قبر والدتك كل يوم خميس . . ثم إنك لا تزال تصحو فى الرابعة صباحا وأما إذا قلت لى شيئا غير ذلك فلكى تخزى العين وتضع عودا فى عين الحسود . بمنتهى الأمانة إننى أتمنى واحدا على عشرة من هذا الذى تنعم فيه كل يوم وليلة . . ولو حدث لكنت من أسعد خلق الله . . واللى أعطاك يعطينا» .

بالذمة لو جاءك خطاب كهذا فما الذى يمكن أن تقول ؟

أنا أقول لك : تطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه كل ما أعطاك من هموم النفس ووجع القلب ودوخة العقل وعذاب أقسى من عذاب القبر - اللهم آمين ! .

(١١)

إنه بقايا إنسان . . جلست أمامه فى حديقة (سرجى بنتواز) من ضواحى باريس التى هى ٥٠٠ فدان من اشجار ابو فروة . . وهو غير قادر على أن يجلس ، ولا أن يقف ، ولا ان يضع ذراعا على ذراع ، أو ساقا على ساق . . لقد كان يحارب مع القوات الفرنسية فى الحرب العالمية الثانية ، وزار مصر ، ولا يزال يحفظ بعض الشتائم المصرية ، واللبنانية ويضحك . . وتهتز ذراعه المكسورة ، أما

ساقه التى بها عود من الحديد فلا تهتز ، وأعاود النظر إليه ، واندهش من اين تخرج هذه القوة التى تضىء وجهه وعينيه ، وعنده سيل من النكت والحكايات والضحك بصوت عال . . ولا يكف عن النصيحة أيضا . . وهى أنه لابد أن يكون عندك أمل . . وان يكون أملك هو قهر المرض وزحزحة الموت من الاقتراب منك . . وأنه جاء إلى هذا المعهد مفكوكا فربطوه ، ومهشما فاصلحوه . أما الباقى فعليه هو . . وكان الباقى هو الصبر والشجاعة والتحدى والاصرار على أن يعيش .

وكأنه أحس اننى أراه فقط حيوانا ضاحكا ، فقال : أن لديه خمسة من الاولاد ، وعشرين حفيدا ، ولولا أن زوجته قد تعبت من الحمل والولادة لكان لديه عشرون ولدا وعشرات من الاحفاد وأبناء الاحفاد . .

ثم أشار بيده الى سيدة تجلس على مقعد له عجلات وقال : التى هناك هذه زوجتى ، لقد أجريت لها تسع عمليات وهى كما ترى كالعفريت لاتكف عن الحركة بين المستشفى والحديقة الجميلة والتلفزيون والبوفيه ، ولكنها لا تجلس معى ، وهذا طبيعى ، فنحن زوجان من خمسين سنة ولم يبق عندى شىء جديد أقوله . . ثم ان اللوحة الفنية والتمثال الذى وجدته هى فى وجهى وقوامى قد ذهبت معالمه . . ومعها حق . . ولذلك فأنا اتطلع الى وجوه أخرى . . . وهى أيضا ، فالحياة يجب أن نجعلها جميلة ، وإلا كانت موتا ودفنا لنا ونحن أحياء !

وتذكرت ما كتبه طه حسين فى مقدمة كتابه (الأيام) بأجزائه الثلاثة التى وجهها الى المكفوفين ، قال لهم انه استطاع التغلب على هذه الآفة ، ولم يعذبه فى حياته إلا اشفاق الناس عليه وسخريتهم منه ، وهو انه على الناس ، ولو خففوا واقتصدوا فى السخرية لكان لطه حسين شأن آخر ، ولكنه استطاع باسما ان يقهر الآفة وان يستمتع بحياته وفنه وان يكون قويا ، أقوى من الأقوياء . . بل ان السلاطين والملوك ليسوا كذلك . . انه اقوى وأطول عمرا ، واخر سطر فى الجزء الثالث من (الأيام) وهو شعار طه حسين فى حياته . . وهو بيت من الشعر لأبى نواس :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب . .

ولا كل سلطان . . على أمير

كلام جميل يا استاذنا . . اننى استطيع ان اوقف الكلام فى حلقى . اما الدموع فلا استطيع ! .

١٢

كان لى صديق خفيف الدم . وكانت أمه كأنها أمنا جميعا وكانت تدعو لنا بأن يكون منا : الوزير والأمير والمأمور إن شاء الله عندما نكبر . وكنا نسألها : أينا الوزير والأمير والمأمور .

وكانت تختار لابنها أن يكون المأمور لأنه أهم شخص فى البلد . . له سيارة وحوله حراسه وأمامه ووراءه . وكلمته هى الكلمة وقراره هو القرار الذى لا راد له ولا رد عليه . أما الوزير فأنا - لأننى أقل من المأمور . أى فى الدرجة الثانية من الحب . . وأما الأمير فهو زميل ثالث . . لأنه ابن ناس وأبوه رجل غنى ثم أنه مدلل . فشكله ومنظره كالأمراء . .

وكانت تدعو لابنها هكذا : أشوفك المأمور . . وراءك عسكرى وأمامك عسكرى وعلى بابك عسكرى . . عظمة !

زميلنا هذا صار فيما بعد من كبار الشيوعيين فى مصر . وفى يوم ذهبت لزيارته ورحنا نتذكر أيام زمان . ثم راح يضحك وهو يقول : فاكر ماما . . فاكر لما كانت تقول لى أشوفك وعلى بابا عسكرى وأمامك ووراءك . . لقد تحققت أمنتيها بالحرف الواحد . . فأنا سجين وفى كل مكان عسكرى . . أن أمى لم تكن تقصد . ذلك ولكن حدث خطأ فى الترجمة . . فقد تحرفت أحلامها فى طريقها إلى السماء !

وأنا أيضا . . كنت أتمنى أن تكون لى ابنة - ظنا أن البنت أحسن من الولد أرق وألطف وأكثر حنانا . . وتمنيت طويلا . ولم يشأ الله أن تكون لى ابنة ولا ابن . . وفى يوم زارتنى ابنة أحد الأدباء ، يرحمة الله وجاءت تطلب حقها فى كتب أبيها التى أمرت بطبعها عندما كنت رئيسا لمجلس إدارة دار المعارف . . وأسعدنى أن ألبى هذا الطلب فورا . ورأيت أن تعود إلى بيتها وألا تتعب نفسها . وسوف تصلها الفلوس . وأسعدها ذلك . . وأسعدنى . وإنشغلت .

وبعد شهور فوجئت بها فى مكتبى . وجاء السكرتير يقول لى أنها تبكى . فسارعت إليها . وعرفت أن شيئا مما أمرت به لم ينفذ . وأنها ترددت على (دار المعارف) بأن عدة مرات ولكن لا فائدة . وأقدرت قراراً أن تتقاضى فلوسها فورا وجاءها شيك بالمبلغ بعد دقائق . ثم سألتها : ماذا حدث ؟

حدث أن فى كل خطوة تخطوها من غرفة إلى غرفة ومن مكتب إلى مكتب كانت تواجه أساليب من المعاكسات : إن لم

تفعل كذا فلا كذا . . وأدهشنى أن يكون الذين ضايقوها أناس لم أتصور أنهم بهذا السوء . .

وتخيلت ماذا يحدث لابنتى إذا مت وجاءت إلى دور النشر تطالب بحقوقها . . كم واحد سوف يعاكسها . . كم واحد سوف يساومها . وهى لن تقبل بأى ثمن . فأنا قد ربيتها على الكبرياء واحترام النفس . .

ومن العجيب أننى فى أحد المستشفيات وجدت زميل الدراسة الشيوعى . وقلت له : فاكر حكاية العسكرى أمامك والعسكرى وراءك . . ذلك الأمل القديم للمرحومة والدتك . .

وضحكنا . وقلت له : وأنا أيضا أعانى من هذا الحلم . . فأنا أيضا . . فقد حدث خطأ كبير فى ترجمة آمالى . فعندما انتقلت الآمال إلى السماء تعرضت لكثير من التحريف . . فقد كنت أحلم بأبنة صغيرة أعلمها جميل الكلام أملاً فى أن تكون أقوى وأجمل وأعظم . . واليوم أجدنى أمام زوجتى هى الأخرى تتعلم الكلام كأنها طفلة . . إذا غضبت تبكى وإذا فرحت تبكى . . وما أتفه الأشياء التى تغضبها . . وما أكثر حيرتى وتعاستى وعذابى وأنا أحاول أن أعرف ما الذى أغضبها أو ضايقها أو أحزنها . . أو حتى ما الذى يفرحها . . أنها طفلتى ابنتى وأمى وزوجتى وأختى ومصدر الحياة والحيوية والأمل والشجاعة والنور فى حياتى . .

غلطة فظيعة فى الترجمة . . يارب اشنق واحرق هذا الذى ارتكب هذه الجريمة !

"وابيضت عيناه من الحزن"

قرآن كريم

الآن فقط لاحظت أننى لا أريد أن أجلس مع نفسى . . أريد أن أهرب إلى شىء . . إلى أى أحد . . إلى أى مكان إلى الزحام حتى تمتلىء هذه المسافة التى بينى وبين نفسى بأصوات وروائح وأناس آخرين . . فأجدنى هاربا يلوذ بالوحدة والأصوات والسيارات ورائحة البن والسجائر . . المهم أن أفتح كل حواسى على خارجى . .

وقررت فجأة أن أذهب إليه . . أنه صاحب مكتبة . وهو رجل مثقف والحديث معه متعة عقلية . . وأنا أطلب إليه أن يتكلم . . وألا ينتظر منى ردا أو تعليقا فأنا أريد أن أسمعه . . أنه يعيش هنا فى قلب باريس قلب الحضارة الأوربية وهو فرنسى الجنسية ألمانى الأب إيطالى الأم قد ولد فى روسيا ويتكلم لغات كل هذه البلاد . .

ذهبت إليه . وجدته وحده يقرأ فى أوراق على مكتبه . . أنها فواتير . . وفى المكتبة بعض الشبان يقلبون فى الكتب حوله . وبسرعة قال لى :

لحظات وسوف أكون تحت أمرك . .

أى أمر . . إنما أريد فقط أن ينقذنى من نفسى . . أن ينتشلنى . . أن يساعدنى على أن أجيب على هذا السؤال : وبعدين ؟ ما الذى يمكن أن أفعله . . كيف أعيش بعد ذلك . . فقد كنت مريضا . والمطلوب أن أكون شديد الحرص . . وزوجتى هى الأخرى مريضة وأنا الآن عاجز عن عمل أى شىء . . وقلق على شفائها والوقت طال . . أو يزداد طولا . . والأطباء عندهم أمل كبير ويرون أن الذى تحقق فى شفائى وشفاء زوجتى أنه شىء عظيم . . وأنه أسرع مما تقول كتب الطب . . هم الذين يقولون . . ولكنى لا أرى ذلك . . وهم أصدق . ولكنى غير قادر على أن أصدقهم فكيف لا أصدقهم وكيف أستريح . . وكيف أمضى فى عملى . . فى فكرى . . فى تحقيق الكثير مما يدور فى رأسى ويديرها . . ويجعلها مرة فوق ومرة على الأرض . . فلا أعرف أين أنا وإلى أين . . ولا أستطيع أن أعرف ذلك بنفسى ومن نفسى ومع نفسى . . ولذلك فأنا لاجىء إلى هذا الصديق هذا الذى فرغ من الورق أمامه . وأشار إلى أن نتناول القهوة فى ركن المكتبة . . وأشار إلى إحدى الفتيات العاملات أن تجلس مكانه . .

وجاءت بداية الحوار غريبة . فهو يكمل حوارا فى دماغه . . وينتهز فرصة وجودى ليكمل ما بدأ فى دماغه هو . . فهو الآخر

كـان قـد جلس مع نفسـه ولم يكمل مـا جـال فى خـاطره وراح يقول : . . ولذلك يمكن أن تقول أن كل حضارة توشك أن تنتهى . . أن تتوقف . . ويكون وقوفها واضحا فى التفكك والانحلال واليأس والعجز عن الإجابة عن أسئلة كثيرة طرحها الإنسان على نفسه . ويسبق هذا العجز نوع رهيب من الغرور . وإحساس هذه الحضارة إنها هى القـمـة . . وإحسـاس الشعوب أنهم قـادرون على كل شىء . . وأنهم يعيشون فى منتهى السعادة فى عصرهم الذهبى . . وهذا الإحساس وحده هو أكبر دليل على النهاية . . كذلك كان حال الإمبراطورية الرومانية والسلطنة العثمانية والخلافة العباسية وإمبراطورية المغول . . وكانوا يؤمنون بأن بلادهم هى أرض المعاد . . الجنة الموعودة . . ونهاية الطريق . . وكما أن الجنة كان فيها العصيان والخطيئة والجريمة والعقاب . . كذلك الحضارة الغربية كلها تتحلل . . تتفكك . . تنهار الأسرة والقيم الأخلاقية ويتفشى الجهل . . وعدم الرغبة فى أن يتعلم الشبان . وتربية الأجسام عندهم أهم من تنمية العقول . والحرص على أن يكون الإنسان فى شلة . . فى نقابة تحميه . . أكثر من حرصه على أن إثراء ذاته وتدعيم شخصيته وتوسيع حريته . . وهذا هو (عرض نهاية القرن) . . نهاية الألفية . .

ومضى يقول دون أن يدرك أنه أطال ودون أن يسألنى عن حالى وكيف أنا ولماذا جئت وأين كنت السنوات الخمس الماضية . . وقال : الولايات المتحدة نموذج لكل ذلك . . فهى تعانى من نقص كبير فى العلماء والمتخرعين . . وتشعر بالعار أنها فى حاجة إلى

علماء روسيا الخائفة المنهارة . . وأمريكا أضعف من اليابان التى حكمتها الحديد والنار والعار . . وهى دون ألمانيا التى احتلتها ومسحت بها وبتاريخها وكبريائها الأرض وكل شاشات السينما والتليفزيون . . وانتشار المخدرات فى أمريكا وظهور الأنبياء الكاذبين الذين لهم اتباع بالألوف يدفعونهم إلى الانتحار الجماعى . . كما تنتحر الفئران بالملايين فى السويد والنرويج كل سنة . . وأى يصبر الشعب الأمريكى على الرئيس كلينتون بسبب (نزوة) لم تكن غريبة على البيت الأبيض الذى رأى مارلين مونرو تخرج من مكتب الرئيس كيندى وفى خديها وكتفيها العاريتين أثار أسنان الرئيس . . وفى البيت الأبيض انتحر أكبر موظفيه لأنه كان عشاقا للسيدة الأولى أو عشيقا . . وما حدث فى الأسرة المالكة البريطانية . . والعشيقة وابنتها من الرئيس ميتران فى قصر الرياسة الفرنسية . . وما كان بين تيتو وزوجته ومانديلا وزوجته . . وكارلوس منعم وزوجته . . وما قاله العشيق الأول لزوجة زعيم حزب المحافظين الإنجليز . . وما قاله العشيق الأول لزوجة رئيس وزراء إسرائيل نتنياهو . . وقتل الأطفال والأمهات والآباء وكل أشكال الإرهاب فى كل القارات . . كلها ذات معنى واحد : أن روح الحضارة توشك أن تخرج من جسدها ومعها كل الموروثات التى أمضى الإنسان مئات السنين يبذرها ويرويها ويحصدها وعنده أمل فى الذى هو أفضل وأجمل وأبقى . . هذا هو المرض يجب أن يشغلنا عن أى شىء أخر فى هذه الدنيا . . مرض ألوف الملايين ، . . وليس مرض واحد من أولادنا أو زوجاتنا أو أمهاتنا . .

وسكت فجأة كأن التيار الكهربى قد انقطع . . كأنه فيلم . . كأنه كاسيت . . كأنه كان منوما مغناطيسيا ثم تخلت عنه الروح التى كانت تلبس جسمه . . واتجه ناحيتى يسألنى بنفس الطريقة فى الكلام : لم تقل لى أين كنت . . ومالى أراك مهموما هكذا ؟

واقترب منى واقفا : لا شىء يدل على أنك فى حالة معنوية سيئة . . وانحدار معنوى . . إلا حرصك على ألا تكون وحدك . . كل الحضارات انحلت وتآكلت وتلاشت لأن الناس يكرهون التأمل . . يكرهون أن ينفردوا بأنفسهم . . ولذلك أغرقوا نفسهم فى الملذات . . وفى الخمور والمخدرات . . حتى الحروب هى حشد للناس واغتيال لأعمالهم وحرصهم تماما على ألا يكون هناك (أنا) . . وإنما أن يكون الجميع (نحن) . . فلا أحد . . لا فرد . . وإنما كتيبه . . وفرقة وجيش . . يبدو أنك شىء من هذا . . قل لى . . أليس كذلك ؟!

قلت : إنها هى أيضا حكاية طويلة . . فإلى لقاء آخر . .

ووقف ولم يحاول أن يقول لى : لماذا لا نذهب إلى مكان آخر . . لماذا لا نلتقى ليلا . . لماذا لا نتفق على أن نذهب معا إلى الجبال . . وهناك أو إلى الشاطئ وهناك نكمل مابدأنا . .

ولم أجد سببا قويا يدعونى إلى لقائه . .

فهو الآخر قد جلس مع نفسه طويلا . . ولم يكد يرانى حتى أفرغ الذى فى نفسه . . إنها موضوعات كثيرة وقضايا متشابكة معقدة . . إنها تريده أن يتناولها وأن يقول رأيه فيها وأن يصرفها بعيدا عنه لعله يستخلص نفسه من هذا الزحام وأن يضعها جانباً وأن ينفرد بها . . وقد فعل . وهذه هى النتيجة . . لم يكن وحده . . وإنما كان وحده

تماما عندما جلس معى . . لقد كان يحدث نفسه بصوت مرتفع كأننى لم أكن هناك . . ولما كنت هناك وسمعت ما قال وهممت بأن أنصرف كأننى كنت أبحث عن كتاب نهض من مقعده وكان قد اختار لى كتابا وكأنه يقرأ الفهرس لعلى اشتريه فلما لم يجد ردا أو إستجابة منى أو حرصا على البقاء إنصرف إلى زبون آخر !

❑ ❑ ❑

زمان كنت أداعب الشاعر الصديق كامل الشناوى وكان بدينا . فوجدته فى إحدى المرات جالساً وحده فى مكتبه فقلت له : أنت الآن منعقد . . ما هو جدول أعمالك !

وغضب كامل الشناوى . فقد تحدثت عنه كأنه كثيرون !

والحقيقة أن أى واحد يجلس مع نفسه فهو منعقد . . لأنه كثيرون . . يتكلمون فى وقت واحد . . وهذه حالى الآن . . فلا أعرف من معى ومن هو ضدى . . هذا يقول لى : أفعل . . وهذا يقول لى : يا شيخ مفيش فايدة . . هذا يقول لى : أخرج . . وهذا يقول لى : أقعد . . ومن يقول لى : الطبيب ينصحك أن تمشى ساعة كل يوم وأن تشرب لترين من الماء . . انهض . . امش . . أخرج . . غلطة أخرى سوف تذهب بحياتك . .

وصوت أخر يقول : أشرب الكثير من الماء ولكن يمكن أن تمشى فى البيت . . لقد كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يفعل ذلك . . وكان عبد الوهاب رشيقا وتجاوز التسعين من عمره ولم يتوقف عن الإبداع وكانت أغنية أو أغنيات (من غير ليه ؟) أروع ختام لحياته الفنية . . أو كانت لؤلوه التاج الغنائى العربى . .

ووجدت إجماعا فى داخلى على أن أذهب إلى أحد المقاهى . . إلى المقهى الذى كان يجلس فيه الفيلسوف الوجودى سارتر . . وفى نفس المكان فى الدور العلوى . لماذا ؟ لا أريد أن أتعمق هذا السؤال ولا أريد أن أجيب فلم يعد الأمر بيدى . . ولا القرار قرارى . . أنه إجماع فى داخلى . . ولابد أن هذا هو الأفضل . .

وكان الجو باردا . . ويزداد برودة عند تقاطع الطرق . . وازرر الجاكتة ومن فوقها البالطو . . وكانت فى يدى بعض الصحف وألقيت بها فى أحد السلال ، لكى أتمكن من وضع يدى فى جيبى . وبذلك لا يبقى فى مهب الهواء البارد الأوجهى الذى يحمى أفكارى الساخنة . .

قلت لنفسى : وبعدين ؟

ماذا بعد هذه الليالى البيضاء التى لا تنطفى فيها المصابيح حتى تصبح الدنيا كلها بيضاء أمام عينى فلا أرى . . وكان طه حسين يصف الأصوات أنها بيضاء . لعله يقصد أن الأذن لا تبين شيئا مما تسمعه . . والأوروبيون يصفون ليالى الشمال التى لا تغرب عنها الشمس شهورا بأنها بيضاء . وقفزت إلى رأسى أن مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل قد أهدانى كتاباً اسمه (الليالى البيضاء) . . وفى الكتاب يصف الليالى التى أمضاها فى السجن . وكانت أنوار السجن لا تنطفى لا ليلا ولا نهارا حتى أرهقت الأضواء عينيه فلم يعد يرى شيئا . . كل الألوان قد انسلخت من كل شىء . . فكل شىء أبيض . . بلا معالم . .

ويوم هبطت بنا الطيارة الروسية فى القطب الشمالى فى مدينة مورمنسك ونحن فى طريقنا إلى كوبا . . نظرت فلم أر شيئا . . الأرض جليدية . . الأرض كأنها سماء بيضاء زرقاء . . ولا أعرف كيف هبطت الطائرة ولما هبطت لم أر أية معالم . . اللهم الا بيتا صغيرا جلس فيه بعض الروس يشربون الفودكا ويلعبون الشطرنج . . وكما كان الجو فى الخارج ثلاثين درجة تحت الصفر كان فى البيت ثلاثين فوق الصفر . . وأذا كانت الألوان والروائح قد انعدمت فى الخارج فقد اختفت الألوان والروائح فى الداخل . . أو فى إدارة المطار . .

ولم أكن أكره اللون الأبيض . . أما الآن فكل ما هو أبيض يقرفنى . . يدوخنى . . يجعلنى يأساً يمشى على قدمين . . والحزن ملقى على مقعد . . أو مكوماً فى سرير . . لون الدنيا من وراء الدموع . . فالبكاء ملاء الدنيا ضباباً أمام عينى لها لون اكفان الجليد ونعش الأمل . . والقرآن الكريم يصف النبى يعقوب بقوله (وابيضت عيناه من الحزن) أى من البكاء على ولديه يوسف وبنيامين . .

ولكن النبى يعقوب أرتد إليه البصر ورأى الوان الدنيا عندما عاد أولاده بقميص يوسف . . فقد شم فيه رائحة يوسف . . وأعادت حاسة الشم إلى يعقوب حاسة البصر . . واستردت الدنيا ألوانها وأحجامها ورائحتها . . وانفتح الطريق إلى بصره ليرى يوسف .

فأين انت يا قميص يوسف ؟ !

ولم أجب عن هذا السؤال وأنما وجدت صديقى صاحب المكتبة قد انتظرنى فى الفندق دون ان يخبرنى بذلك . فلما رآنى نهض وقال لى : فكرت . فكرت فيك . . ووجدت إنك فى أزمة . .

أعذرنى لم أكن أعرف ما الذى اصابك . . واصاب زوجتك فأصابك مرة اخرى . . ولكن صديقنا د . . . هو الذى شرح محنتك وأطال فأحزننى عليك . .

قلت له : أذن انت تعرف . .

فأجاب : صرت مشغولاً ومهموما بك . . هل تذكر آخر مرة التقينا . . كنا فى طوكيو . . وكنت قد عدت توا من زيارة زوجتى فى المستشفى . . كانت زوجتى مثل ذراعى الذى لا أشعر بها معلقة فى كتفى . . اعتدت عليها . . انها احدى عينى . . وفجأة انكسر الذراع . . وفقئت عينى . . وقابلتك فى ذلك اليوم . . وكنت أنت اخف واكثر مر حاً . . وانت الذى قلت لى وصدقتك . . قلت لى انهم فى كندا كانوا يصيدون الثعالب بالفخ . . فعندما يدخل الثعلب من الفخ . . ينطبق على إحدى رجليه . . والشئ الذى افزعنى هو ان الثعلب لكى ينجو لابد ان يخلص إحدى ساقيه من الفخ . . فيقطعها بأسنانه ويبكى . . إنه يريد ان ينجو . . والثمن فادح . . ولذلك صدر قرار بتحريم استخدام الفخاخ فى صيد الثعالب . . حتى لا تتعذب ! هل تذكر ذلك . . كنت تريد ان تقول لى : اقطع ذراعك اذا كان ذراعك يهدد حياتك . . وإذا كانت عينك أيضاً . كلام سهل جداً . فظيع جداً . وكرهتك ورأيتك أبشع منتجات الفلسفة . . وقلت لك يومها : انت عندك كل المؤهلات ان تكون جزارا أو زعيماً شيوعياً !

وهززت أنا رأسى كأن افكارى عصافير أو غربان أريدها ان تطير بعيداً . . واحنيت رأسى كأننى اريد أن اكسر رقبتى واقدمها ثمناً

لهـذه الأفكار الحـزينة . فلم اكن فى ذلك الوقت لا مـحبـاً ولا عاشقاً ولا زوجاً . . وانما كنت عصفوراً على شجرة . . فراشاً فى كل بسـتـان . . شـريداً مـشـرداً من المذاهب الفلسـفـيـة والدينيـة والألحـادية . . عطشـان لا أرتوى من المعـرفـة والتـجـربة والقـراءة رالسـفـر . . كنت وحدى وبعدى الطوفان . . أكـره السـلاسل من ذهب أو من فـضـة . . أكـره الوعـود . . أكـره القـيـود . . كنت أرى المرأة مصيدة جميلة . . تصبح بعد ذلك مصيدة بلا جـمال . . أرى الحب خـيـانة للفلسـفـة . . أرى نفسى راكـبـاً فى طائرة حين ترتفع بنا يطلبون منا ان نربط الحزام وان نطفىء السجائر وان نعتدل فى جلستنا لأن الطائرة سوف ترتفع . . وشرط الأرتفاع والصعود ان نحترم بعض القيود . . وكنت أرفض أى شىء يعطلنى عن ان اكون شيئاً فى الصحافة أو الأدب أو الفلسفة . . ويومها قلت له : لا تعطل نفسك من أجل احد . . فلا احد يساوى ان يسد الطريق امامك إلى فـوق . . كل شئ له مـثيل فى الدنيـا . . الا انت فـلا مـثـيل لك ولا بديل عنك . . فـأنت الأول وأنت الآخـر . . انت البـداية وانت النهـاية . . وكل الذى يدخل بينك وبين نفـسك يعطلك . . يصدك . . يردك . . يوقف نموك . .

قلت ذلك وأكثر . ولم أكن اعرف معنى ان تكون اقوى . . ارفع . . ولم اسـأله عن زوجتـه من هى . . وكـيف كـانت له . . وكـيـف كانا معاً . . لم أكن اعرف إلا كلمة : أنا . . ولـم استخدم كلمة : نحن . . ولـم الاحظ أنه يقـول كـثـيـراً (نحن) . . وكـنت اظن أنهـا نوع من القنزحة . . أو سببها أنه كان مدرساً وكان عضواً هاماً فى

الحزب الشيوعى . . وكان (لسان حال) الحزب ولذلك لابد ان يقول (نحن) الحزب . . نحن اعضاء اللجنة المركزية . وهو الذى سمعت منه اول مرة انه مع زوجته اشتركا فى بناء مؤسسة ثقافية . . هذه المؤسسة يكون فيها : المليونير . . والمدير . . والزوج النموذجى والأب المثالى والصديق الذى لا يمل . . لا يمل احد ولا يمله احد . . وهو الذى يتاجر فى الكتب وهو الذى يشتريها ويختارها ويبيعها ويهدى الزبائن من الطلبة والأساتذة إلى انسب الكتب وأحدثها .

ومن كل هذا الذى قال وقلت وقرأت وسمعت وعايشت وبكيت وحزنت صنعت نسيجاً لقميصى . .

ان لم يكن قميص يوسف عليه السلام فهو شبيه بذلك . .

ووضعته على عينى وعلى انفى وأذنى وأخرجت من احد أكمامه قلمى وكتبت :

يقول الشاعر ابو فراس الحمدانى :

(وقلبت أمرى لا أرى لى راحة)

الا ان اكتب . . .

وجلست أكتب : أحزان هذا الكاتب الذى هو :



القاهرة ـ نوفمبر ـ ١٩٩٩



الفهرس

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ

أنيس منصور

(ا) ترجمة ذاتية:

١ - فى صالون العقاد.. كانت لنا أيام.

٢ - عاشوا فى حياتى.

٣ - إلا قليلاً.

٤ - طلع البدر علينا .

٥ - البقية فى حياتى.

٦ - نحن أولاد الغجر.

٧ - من نفسى.

٨ - حتى أنت يا أنا .

٩ - أضواء وضوضاء.

١٠- كل شىء نسبى.

١١- لأول مرة.

١٢- شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

١٣- الحائط والدموع.

١٤- وجع فى قلب إسرائيل.

١٥- الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل).

١٦- عبد الناصر - المفترَى عليه والمفترِى علينا.

١٧- فى السياسة (٣ أجزاء).

١٨- الدين والديناميت.

١٩- لا حرب فى أكتوبر ولا سلام.

٢٠- السيدة الأولى.

٢١- التاريخ أنياب وأظافر.

٢٢- الخالدون مائة - أعظمهم محمد (ﷺ).

٢٣- على رقاب العباد.

٢٤- ديانات أخرى.

٢٥- وكانت الصحة هى الثمن.

٢٦- الغرباء.

٢٧- الخبز والقبلات.

(ج) قصص:

٢٨- عزيزى فلان.

٢٩- هى وغيرها .

٣٠- بقايا كل شىء.

٣١- يا من كنت حبيبى.

٣٢- قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

**** للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات:**

٣٣- رومولوس العظيم.

٣٤- زيارة السيدة العجوز.

٣٥- زواج السيد مسيسبى.

٣٦- الشهاب.

٣٧- هى وعشاقها .

**** للأديب السويسرى ماكس فريش:**

٣٨- أمير الأراضى البور.

٣٩- مشعلو النيران.

**** للأديب الفرنسى جان جيرودو:**

٤٠- من أجل سواد عينيها.

**** للأديب الأمريكى آرثر ميللر:**

٤١- بعد السقوط.

**** للأديب الأمريكى تنسى وليامز:**

٤٢- فوق الكهف.

**** للأديب الأمريكى يوجين أونيل:**

٤٣- الإمبراطور جونس.

**** للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:**

٤٤- تعب كلها الحياة.

**** للأديب الفرنسى أداموف:**

٤٥- الباب والشباك.

**** للأديب الأسبانى أرابال:**

٤٦- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧- الحنان أقوى.

٤٨- من أول نظرة.

٤٩- طريق العذاب.

٥٠- الوان من الحب.

٥١- شباب.. شباب.

٥٢- مذكرات شاب غاضب.

٥٣- مذكرات شابة غاضبة.
٥٤- جسمك لا يكذب.
٥٥- الذين هاجروا.
٥٦- غرباء فى كل عصر.
٥٧- أظافرها الطويلة.
٥٨- هموم هذا الزمان.
٥٩- زمن الهموم الكبيرة.
٦٠- الحب الذى بيننا.
٦١- عذاب كل يوم.
٦٢- كيمياء الفضيحة.
٦٣- كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.
٦٥- الذين عادوا إلى السماء.
٦٦- القوى الخفية.
٦٧- أرواح وأشباح.
٦٨- لعنة الفراعنة.
٦٩- دقات الصحة هى الثمن.

(ز) نقد أدبى:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.
٧١- وداعًا أيها الملل.
٧٢- كرسى على الشمال.
٧٣- ساعات بلا عقارب.
٧٤- مع الآخرين.
٧٥- شيء من الفكر.
٧٦- لو كنت أيوب.
٧٧- يعيش.. يعيش.
٧٨- الوجودية.
٧٩- طريق العذاب.
٨٠- وحدى.. مع الآخرين.
٨١- ما لا تعلمون.
٨٢- لحظات مسروقة.
٨٣- كتّاب عن كتب.
٨٤- أنتم الناس أيها الشعراء.
٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
٨٦- أوراق على شجر.
٨٧- فى تلك السنة.
٨٨- دراسات فى الأدب الأمريكى.
٨٩- دراسات فى الأدب الألمانى.
٩٠- دراسات فى الأدب الإيطالى.
٩١- فلاسفة وجوديون.
٩٢- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣- حول العالم فى ٢٠٠ يوم.
٩٤- بلاد الله خلق الله.
٩٥- غريب فى بلاد غريبة.
٩٦- اليمن ذلك المجهول.
٩٧- أنت فى اليابان وبلاد أخرى.
٩٨- أطيب تحياتى من موسكو.
٩٩- أعجب الرحلات فى التاريخ.
١٠٠- ماذا يريد الشباب؟
١٠١- الرصاص لا يقتل العصافير.
١٠٢- من أول السطر.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٣- مدرسة الحب.
١٠٤- حلمك يا شيخ علام.
١٠٥- مين قتل مين.
١٠٦- جمعية كل واشكر.
١٠٧- الأحياء المجاورة.
١٠٨- سلطان زمانه.
١٠٩- العبقرى.
١١٠- كلام لك يا جارة.
١١١- فوق الركبة.
١١٢- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
١١٣- يوم بيوم.
١١٤- إنها الأشياء الصغيرة.
١١٥- إلا فاطمة.
١١٦- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

١١٧- حقنة بينج.
١١٨- اتنين.. اتنين.
١١٩- عريس فاطمة.
١٢٠- من الذى لا يحب فاطمة؟
١٢١- غاضبون وغاضبات.
١٢٢- هى وغيرها .
١٢٣- هى وعشاقها.
١٢٤- العبقرى.
١٢٥- القلب أبدًا يدق.

١٢٦- يعود الماضى يعود.

(ك) كتب (مقالات):

١٢٧- ثم ضاع الطريق.

١٢٨- النجوم تولد وتموت.

١٢٩- هناك أمل.

١٣٠- أحب وأكره.

١٣١- الحيوانات ألطف كثيرًا.

١٣٢- مصباح لكل إنسان.

١٣٣- أتمنى لك.

١٣٤- لعل الموت ينسانا.

١٣٥- اقرأ أى شىء.

١٣٦- ولكنى أتأمل.

١٣٧- حتى تعرف نفسك.

١٣٨- الحب والفلوس والموت.. وأنا.

١٣٩- نحن كذلك !!

١٤٠- اللهم إنى سائح.

١٤١- كائنات فوق.

١٤٢- تعال نفكر معًا.

١٤٣- آه لو رأيت !

١٤٤- النار على الحدود: لعبة كل العصور.

١٤٥- انتهى زمن الفرص الضائعة !

١٤٦- هناك فرق.

١٤٧- الرئيس قال لى.. وقلت أيضًا (الجزء الأول والثانى).

١٤٨- يا نور النبى.

١٤٩- وأنت ما رأيك؟

١٥٠- حضارة الإوز والبقر.

١٥١- حلمنا الجميل.

١٥٢- ضاع الجيل ضاع.

١٥٣- قالوا (الجزء الأول والثانى).

١٥٤- وأخرتها.

١٥٥- من أول السطر.

(ل) الترجمات القصصية:

١٥٦- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى أرفنج والاس.

١٥٧- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.

١٥٨- (لو كنت مكانى) للأديب السويسرى ماكس فريش.

١٥٩- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا.

١٦٠- (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو ملبارته.

١٦١- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكى جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

١٦٢- الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر.

١٦٣- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.

١٦٤- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.

١٦٥- مسرح العبث الفرنسى - لاتيان ماريبو.

١٦٦- الفيلسوف الروسى برديائف - لفيكتور لوزتسيف.

١٦٧- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.

١٦٨- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.

١٦٩ - رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.

١٧٠- فاشلون لكن نبلاء - لجان مارى روار.

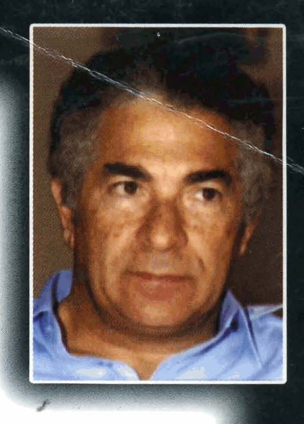
١٧١- ما الميتافيزيقا؟ لمارتن هيدجر.

١٧٢- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.

١٧٣- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.

١٧٤- كروتشه فيلسوف الحرية - لايرابيلا دلورنتس.





زى الفـــل

قـال لى الطبيب: اجلس وحدك..

مع نفسك لنفسك !

إنه لا يعلم ما هذا الذى بينى وبين نفسى..

لست صديقًا لها دائمًا.

بل تدور بينها وبينى معارك.. ولا أعرف من الذى يقول لى اسمع كلام الطبيب.. ولا من الذى يقول:

لا تسمع كلامه.. ولا من الذى يقول: اجلس.. ولا من الذى يقول لى: قم..

إن الفلسفة التى تعلمتها أورثتنى إدمان السؤال.. فأنا كثير التساؤل... ولا أحظى إلا بإجابات قليلة..

وجلست أكتب كما أراد الطبيب.. وحشدت أفكارى.. وعصرت دماغى.. وسددت قلمى إلى الورق..

ثم جعلته شبكة أصيد بها أفكارى..

وجعلت أفكارى فراشًا أتفرج عليه، وأتمنى لو سقط على الورق حروفًا ونقطًا وعلامات استفهام وتعجب..

فكان هذا الكتاب عن أحزان هذا الكاتب.

أنيس منصور



